

روايةٌ تاريخيةٌ غراميةٌ

وهي الحلقة الرابعة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

تشتمل على وصف بلاد الاندلس وحضارتها وعادات اهلها
في زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر الاموى
(من سنة ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) ومابلغت اليه دولته
من النعمة والسيادة وما بناه من القصور
الفخمة وكيف كان يحتفل باستقبال وفود
ملوك اوربا بالهدايا وما كان من
خروج ابنه عبد الله يطلب
ولاية العهد لنفسه دون
أخيه الحكم الخ

تأليف

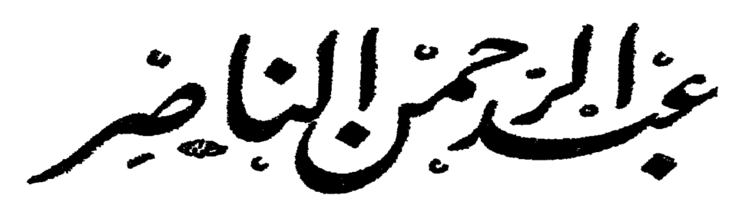
جرجي زيدان

منشئ الهلال

الطبعة الرابعة

مطبعة الهلال

بمصر سنة ١٣٣٣



عبد الرحمن الناصر

رواية تاريخية غرامية

وهي الحلقة الرابعة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

تشمل على وصف بلاد الاندلس وحضارتها وعادات اهلها
في زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر الاموي
(من سنة ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) وما بلغت اليه دولته
من المنعة والسيادة وما بناه من القصور
الفخمة وكيف كان يحتفل باستقبال وفود
ملوك اوربا بالهدايا وما كان من
خروج ابنه عبد الله يطلب
ولاية العهد لنفسه دون
أخيه الحكم الخ

تأليف

جرجي زيدان

منشئ الهلال

الطبعة الرابعة

مطبعة الهلال

سنة ١٩٣٣ م

المقدمة

هذه هي الحلقة الرابعة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام والثالثة منها في تاريخ الاندلس . فان الاولى رواية «فتح الاندلس» تتضمن فتح هذه البلاد على يد طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ مع بيان حالها السياسي والاجتماعي والديني قبل الفتح . والثانية رواية «شارل وعبد الرحمن» وتشتمل على فتوح العرب في فرنسا الى ضفاف نهر لوار في أوائل القرن الثاني للهجرة حتى ردهم شارل مارتل . وهذه رواية «عبد الرحمن الناصر» تحتوى على وصف حال الاندلس في أيام عبد الرحمن الناصر اول من سمى خليفة من بنى مروان هناك (٣٠٠ـ٣٥٠) وما بلغت اليه دولته من المنعة والحضارة والعمارة

فمن طالع هذه الروايات جميعاً يستطلع تاريخ الاندلس السياسي والاجتماعى من فتحها في أواخر القرن الاول للهجرة الى ايام الخليفة الناصر الاموي باوائل القرن الرابع وقد بلغت هذه الدولة في ايامه ابان مجدها يوم كانت الدولة الاسلامية يتنازعها ثلاثة خلفاء عبد الرحمن الناصر الاموى هذا فى الاندلس والخلفاء العبيديون او الفاطميون في افريقية والخلفاء العباسيون في بغداد وكان هو أعزهم جانباً واطولهم أياما وأوسعهم حضارة

فنطلب اليه تعالى ان يأخذ بيدنا لاتمام هذه السلسلة انه السميع المجيب

الفصل الاول

قرطبة والخليفة عبد الرحمن الناصر

قرطبة عاصمة الامويين في الاندلس واقعة شمالي نهر يعرف باسم الوادى الكبير في جنوب اسبانيا. وقد بلغت ابان حضارتها وأوج مجدها في زمن عبد الرحمن الناصر (تولى سنة ٣٠٠ ــ ٣٥٠ للهجرة) وهو أول من تسمي خليفة من ملوك الاندلس. تولى الملك والاحوال مضطربة والبلاد قائمة قاعدة لاختلاف الاحزاب وكثرة المطالبين من العرب والبربر غير الافرنج المجاورين له في اشتوريا وغليكية ونافار وبمبلونة وغسكونية وغيرها. فما زال يحارب ويناضل ويجد ويجتهد حتى دانت له الرقاب واستقر له الملك واستتب الامر. فتقرب اليه ملوك عصره بالهدايا وأوفدوا اليه الوفود من القسطنطينية ورومية وفرنسا وروسيا (ملك الصقالبة) وغيرهم

ولما أحس من نفسه بالقوة ورأى الخلافة العباسية قد تضعضعت واستولى الجند التركي على خلفائها سمى نفسه أمير المؤمنين فلم يلق معارضة. واتفق في أثناء ذلك قيام الدولة الفاطمية (العبيدية) في المغرب وهم شيعة يطلبون الخلافة باسم علي فاصبحت الخلافة الاسلامية يدعيها ثلاث دول. العباسيون في العراق والفاطميون في المغرب والامويون في الاندلس

وزهت قرطبة في أيام الناصر واستبحر عمرانها وكثرت قصورها ومتنزهاتها ــ يكفي من ذلك قصرها الكبير لانه آية من آيات الزمان كان مؤلفاً من ٤٣٠ داراً بينها قصور فخمة لكل منها اسم خاص كالكامل والمجدد والحائر والروضة والمعشوق والمبارك والرستق وقصر البديع وقد غالوا في زخرفها واتقانها وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والاحواض وجلبوا اليها الماء في قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى أوصلوه اليها ووزعوه فيها وفي ساحاتها ونواحيها في تلك القنوات تؤديها الى المصانع صورا مختلفة الاشكال من الذهب الابريز والفضة الخالصة

والنحاس المموه الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة ينصب فيها الماء من أنابيب الذهب .و الفضة بصور الحيوانات الكاسرة أو الطيور الجميلة على أشكال بديعة

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير ولم يكن في بلاد الاسلام أعظم منه ولا أعجب بناء . وكان في مكانه كنيسة للنصارى شاطرهم عليها المسلمون عند الفتح كما فعلوا بالجامع الاموي بدمشق ثم أخذوا بتوسيعه والزيادة فيه حتى بلغت سعته في أيام الناصر ٢٢٥ ذرعاً في ٢٠٥ اذرع . وأغرب مافيه المئذنة لم يكن في مساجد المسلمين مئذنة تعدلها طولها الى موقف المؤذن ٥٤ ذرعاً والى أعلى الرمانة ٧٣ ذرعاً وعرضها ١٨ ذراعاً

ومما ابتدعه الناصر من القصور قصر الزهراء ذكروا انه بناه اجابة لطلب جارية له اسمها الزهراء على مسافة أربعة أميال من قرطبة . وهو عبارة عن بلد كبير طوله من الشرق الى الغرب ٢٧٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠٠ وعدد أعمدته أو سواريه ٤٣٠٠ سارية بعضها حمل الى قرطبة من رومية وافريقية وتونس وبعضها أهداه صاحب القسطنطينية . وفيها الرخام الابيض والاخضر والوردي والمجزع . وكان في الزهراء مسجد فخم وعدة قصور وحدائق على نحو ماتقدم في وصف القصر الكبير . وفيها البحيرات تسبح فيها الاسماك بألوانها وأنواعها وأحواض الرخام المنقوش على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب في جملتها حوض منقوش بتماثيل الانسان جيء به من القسطنطينية ونصبه الناصر في بيت المنام بالمجلس الشرقي المعروف بالمؤنس وجعل عليه ١٢ تمثالا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي مما صنع بدار الصناعة في قرطبة صورة أسد بجانبه غزال الى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل . وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاوس ودجاجة وديك وحدأة ونسر وكلها من ذهب مرصع بالجوهر يجري الماء من أفواهها وقد أنفق في بناء هذا القصر ما يزيد على ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار (١)

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ٩٤ — ٥ (طبعة ثالثة)

ناهيك بما كان في دولة الناصر من رواج العلم فقد كانت قرطبة كعبة العلم ومجتمع العلماء ومقصد باعة الكتب . وكان اقتناء الكتب من جملة ضروريات الحياة عندهم ـ كانوا يفعلون ذلك اقتداء بخليفتهم وأبنائه

الفصل الثانى

مكتبة في قرطبة

قال جوهر خادم المكتبة «مالى أرى الناس في شاغل عن النسخ والمطالعة اليوم ياسيدي »

فأجابه صاحبها سعيد « انهم فى شاغل عن كل شيء بالتشوف الى رسل قيصر الروم الذين جاءوا بالهدايا من قسطنطين بن ليون صاحب القسطنطينية إلى مولانا أمير المؤمنين الناصر فخرجوا من قرطبة لمشاهدة الوفد قبل وصوله . كأنك كنت غائباً عن قرطبة ؟ »

قال الغلام « لم أكن غائباً ولكنني لم أبرح هذه الدار منذ أسبوع يا سيدي »

فانتبه سعيد وقال « صدقت . . فالخليفة لما بلغه قدوم رسل ملك الروم أمر ان يتلقوا أحسن تلق وبعث جماعة من خاصته يلاقونهم في بجاية وأن يحسنوا خدمة الطريق . فوصلوا أمس الى مقربة من قرطبة فأمر بارسال الجند والعدة والتعبية لملاقاتهم . فاشتغل أكثر الناس بالوقوف لهم فى الطرق ومشاهدة موكبهم فلم يأتنا أحد منهم »

فقال « وكيف هم رسل ملك الروم ؟ »

فاستغرب سعيد سذاجة خادمه فقال « انهم أناس مثلنا هل تحب أن تراهم »

قال « كيف لا ؟ »

قال « ولكن ذلك غير ميسور لاحد لان الخليفة الناصر أمر ان ينزلوا في ارض خارج المدينة بمنية الحكم ولى العهد وان يمنعوا من

ملابسة الناس وأن يقام الحجاب على أبوابهم حتى لا يخاطبوا أحداً ولا يراهم احد »

فقال « ياللعجب وهل يخافهم على دولته ؟ »

قال « كلا . ولكن للملوك سياسات لا تفهمها . . هذا الفقيه ابن عبد البر قادم أعدد له المسند وضع له الدواة على المنضدة في غرفة المطالعة »

ولم يتم سعيد كلامه حتى وصل ابن عبد البر وهو من كبار الفقهاء في قرطبة وقد شب في حاشية الحكم ولي العهد ثم لازم أخاه عبد الله بن الناصر . وكان عبد الله يحب العلماء وأهل الادب ويكثر من مجالستهم

وكان ابن عبد البر هذا يتردد على هذه المكتبة مثل كثيرين من الادباء ومحبي المطالعة . وقرطبة يومئذ في أوج مجدها واقتناء الكتب فيها من لوازم الرخاء كما تقدم بل هي كالاثاث لا يستغنى عنها في بيت من البيوت لان الخليفة نفسه كان محباً للعلم مقرباً للعلماء وشب أولاده على ذلك وخصوصاً الحكم ولي العهد وأخوه عبد الله واقتدى بهم سائر أهل الدولة — والناس على دين ملوكهم . فاصبحت تجارة الكتب من أروج التجارات عند وجهاء وأهل الرياسة فكثر الوراقون وهم الذين يشتغلون ببيع الكتب ونسخها

وكان سعيد صاحب هذه المكتبة قد أنشأها في الربض خارج قرطبة في بيت على ضفة الوادي الكبير (نهر قرطبة) فهي تطل على قرطبة عن بعد وبينهما النهر وقد جعلها أشبه بنادي مطالعة منه بمستودع كتب و دار نسخ . فكان أدباء قرطبة يتوافدون اليها للمطالعة والشراء أو نسخ فيرون من سعيد مؤانسة ولطفاً وتساهلا ويلتذون بمعاشرته لسعة اطلاعه ودماثة أخلاقه . وكان كثير الاحتفاء على الخصوص بابن عبد البر وهو [illegible] حسب احتفاءه به مبنياً على انتفاعه منه بكتاب يبيعه على يده لولي العهد و أخيه عبد الله بن الناصر . لان الفقيه كان معدوداً من خاصة عبد الله [illegible] مغرماً باقتناء الكتب فاذا سمع بكتاب بذل في سبيله الاموال [illegible] حتى يقتنيه . وكثيراً ما كان يبتاعها من عند سعيد بواسطة ابن عبد البر [illegible]

احتفاء سعيد كان لغرض آخر يقصر ابن عبد البر عن ادراكه

فلما أطل الفقيه من باب الحديقة خف سعيد لاستقباله فى الدار ورحب به فدخل وعلى وجهه أمارات العجلة فتجاهل سعيد وهنئ له وقال « مابال الفقيه قد أبطأ علينا اليوم ألعله كان في جملة الذين خرجوا لمشاهدة رسل القسطنطينية ؟ »

فقال وهو يخرج يده من جيب جبته وفيها لفافة من الورق « كلا لم أذهب معهم ولكنى شغلت بالمطالعة . . . هل في مكتبك كتاب البيان والتبين للجاحظ ؟ »

قال « كيف لا ... أظنك تشتغل باعداد خطبة تتلوها في يوم الاحتفال باستقبال أولئك الرسل فى حضرة الخليفة »

فضحك ضحكة اعجاب بنفسه ولم يجب وظل ماشياً وهو يصلح عمامته ويخرج منها قلماً كان قد غرسه فيها لما قام مسرعاً من منزله لمراجعة شيء في كتاب البيان والتبيين — ومشى سعيد أمامه الى خزانة الكتب وهي عبارة عن غرفة واسعة فيها رفوف مسمرة بالحائط وعليها الكتب مرتبة حسب مواضيعها واكثرها من كتب الادب ولم يكن يتجاسر على التظاهر بكتب الطبيعيات والفلسفة لان أصحابها كانوا متهمين بالكفر . وبدلا من أن يأمر الخادم المولج بحفظ الكتب أن يستخرج كتاب البيان ويقدمه للفقيه أسرع سعيد بنفسه وحمله اليه مبالغة بالاكرام . فتناول ابن عبد البر الكتاب وجلس على المسند المعد له وهو يقول « ان هذا الكتاب عندنا منه عدة نسخ في مكتبة مولانا الامير عبد الله ولكنني أحببت ان أخلو به هنا بجوارك ياصاحبى »

فقال سعيد « ان ذلك من حسن حظى يامولاى » وتركه وانصرف الى ناحية من المنزل تشرف على النهر وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل فرأى الناس في القوارب عائدين من ملاقاة الوفد وفهم من حديثهم ان الرسل وصلوا الربض ونزلوا فى منية الحكم . فوقف هنيهة ساكتاً واستغرق في تأملاته حتى نسى موقفه ولم يتنبه حتى ناداه جوهر الخادم

فالتفت فاذا هو بشير اليه أن يأتي وأسرع نحوه وهو يقول والدهشة بادية في وجهه « ان ياسراً فتى أمير المؤمنين . . . » وتلعثم لسانه من الدهشة

الفصل الثالث

ياسر كبير الخصيان

فاستغرب سعيد قدوم ياسر في ذلك اليوم وكان قد سمع بخروجه هو وتمام الفتى الآخر لاستقبال رسل الروم مبالغة في اكرامهم . لان ياسراً وتماماً كانا كبيري الخصيان في القصر بما يشبه الباش آغا الآن وكان للخصيان في ذلك العهد سطوة ونفوذ لانهم أصحاب الخلوة مع الناصر وحرمه وبيدهم القصر السلطاني . فارسال كبيري الخصيان لملاقاة أولئك الرسل بعد من المبالغة في الاكرام

وكان ياسر طويل القامة ابيض الطلعة لانه من الصقالبة البيض أزرق العينين عاثرهما عريض ما بينهما بارز الوجنات أجرد الوجه مثل سائر الخصيان

فاستقبله سعيد وهش له ورحب به ورأى في وجهه انقباضاً فتجاهل وقال « أهلا بالاستاذ ياسر . . . » ودعاه للدخول الى قاعة المطالعة للاستراحة

فرد ياسر التحية بصوت رفيع كصوت الاحداث مثل أصوات سائر الخصيان ولم يبتسم كعادته ولكنه أطاع سعيد ومشى معه حتى جلس على كرسي قدمه له فجلس وهو يتلفت فقال سعيد [illegible] مولاي شيء اقدمه من كتاب أو قلم أو ورق [illegible]

قال « لا [illegible] لكنني جئت الفقيه محمد [illegible] سكان »

قال « نعم [illegible] وهو يطالع في [illegible] »

قال « كلا . . . دعه في عمله »

فراد سعيد أن يستجسه فقال « ألم يخرج الاستاذ لملاقاة رسل صاحب القسطنطينية اليوم . . ؟ »

قال « بلى خرجت وأنا عائد الآن وقد وصل القوم الى الربض فالقنا عليهم الحرس حتى يأمر أمير المؤمنين باستقدامهم اليه » قال ذلك وفي خاطره شيء يكتمه

وقال سعيد « سيكون يوم استقبالهم حافلا . . . أين يكون ذلك ياترى ؟ »

قال « في القصر الزاهر من قصور الخلافة انهم يهيئون المكان منذ أيام »

قال « كنت أحسبه يستقبلهم في قصر من قصور الزهراء الفخمة »

قال « ولكنه أمر أن يهيئوا القصر الزاهر لهذه الغاية »

قال « انه سيكون مشهدا جميلا في داخل القصر »

فدرك ياسر أنه يعرض برغبته في الحضور فقال « اذا شئت الحضور فادخل برفقة الفقيه ابن عبد البر فلا يعارضك أحد . وان كنت أنا في جملة المرحبين فلا بأس عليك » قال ذلك وبلع ريقه كأنه يخفى امتعاضاً خامره . وكان سعيد يراقب كل حركة تبدو منه فلما لحظ امتعاضه قال وهو يظهر الاستغراب « أرى الاستاذ يشك في كونه أحد المرحبين وهل يتقدمه أحد في ذلك . . . ؟ لاريب أنك ستكون في مقدمة مستقبليهم »

وقال ياسر وفي صدره شيء يود التصريح به ليشفي ما في نفسه من الغيظ ولكنه أمسك وقال « من الممكن أن لا أكون هناك »

فصحك سعيد وأظهر انه لم يصدق كلامه وقال « كلا انك ستكون في صدر الديوان . . . أنا اعرف منزلتك عند امير المؤمنين »

فنهض ياسر فجأة ووضع أنامله على فم سعيد كأنه يتلطف في اسكاته وتمتم وقال « كانت تلك المنزلة . . . ولكن » وخاف أن يخونه لسانه

فيقول ما يندم عليه فتظاهر بتغيير الحديث وقال « اني أرى أناساً قادمين اليك ولا أحب أن يعلم احد بمجيئي الى هنا اليوم . استودعك الله » قال ذلك وخرج وغادر سعيداً يفكر في سبب مجيئه وفي ما بدر منه من الالفاظ القليلة العدد الكثيرة المادة وقد همه الاطلاع على ما في نفس ياسر

وبعد قليل أخذ الناس يتوافدون الى منزل سعيد وكل منهم يشتغل بشيء من كتابة أو نسخ او مطالعة واذا احوجهم الاستفهام عن أمر أشكل عليهم عمدوا الى سعيد وهو يرشدهم الى ما يريدون . وكانوا يعتقدون الصدق في ما يقوله ولو خالف المعقول لانه كان قوي الحجة قوي العارضة وكان في عينيه شيء كالمغناطيس اذا تفرس في عيني جليسه تغلب عليه كأنه نومه بالمغنطيسية الحيوانية فلا يشعر الجليس الا وهو طوع ارادته

وكان سعيد الوراق هذا في نحو الاربعين من عمره صحيح البنية عريض الكتفين قوي العضل كبير الدماغ تتجلى الرزانة في جبينه والذكاء في عينيه والثبات حول شفتيه . ويكفي التعبير عن حدة عينيه بالذكاء فان فيهما قوة الاقناع أو هي المانيتزم لانه لا يباحث احداً الا اقنعه . وكان خفيف العارضين واللحية قلما يضحك ولكن الابتسام خلقة في وجهه . وقد مضى عليه بضع سنين يشتغل بالوراقة في قرطبة او يتجر بالكتب ولم يعامله احد الا اعجب باخلاقه العالية وذكائه المفرط . فكان الادباء من الفقهاء وأهل الدولة يترددون الى منزله كما يجتمع الناس في ناد للمطالعة والاستفادة ولكنه كان يشترط ان يكون ذلك في النهار فاذا غربت الشمس اقفل الباب

فلما رأى الناس يتوافدون في ذلك اليوم امر خادمه بتقديم ما يحتاجون اليه وليس خصياً مثل سائر خدم قرطبة فان اهلها قلدوا امراءهم باقتناء الخصيان — على اختلاف اجناسهم وهي كثيرة يومئذ وكانوا يحملونهم من اطراف العالم الى دار الاسلام وخصوصا الاندلس

لانها كانت اكثر الممالك الاسلامية رخاء في ذلك العهد وانما كان خادم سعيد بربرياً من اهل المغرب فى نهاية السذاجة

الفصل الرابع

تليد خازن كتب الحكم

اشتغل جوهر بتقديم ما يحتاج اليه القوم . وتوجه سعيد الى الغرفة التي فيها ابن عبد البر فرآه منهمكا بالمطالعة يكتب في كاغد بيده وهو يتأمل بما يكتبه وقد نزع عمامته واستغرق في التفكير . وبينما هو ينظر اليه سمع وقع خطوات وراءه فالتفت فرأى تليدا صاحب خزانة كتب الحكم ولي العهد قادماً على عجل — وهو خصي وجيه . فتحول سعيد للترحيب به فرآه يشير اليه بسبابته على شفتيه ان يسكت فسكت . وتقدم تليد حتى أطل على ابن عبد البر خلسة فلما رآه مستغرقاً بالكتابة همس في اذن سعيد « ان الفقيه يهيء خطاباً ليتلوه بين يدي أمير المؤمنين غداً فينال منصب قاضى القضاة » قال ذلك وهز رأسه استخفافاً ورجع وهو قابض على يد سعيد حتى دخلا غرفة أخرى وابن عبد البر لم ينتبه

فمشى سعيد معه وهو ينتظر مايبدو منه فاذا هو يقول له « بلغني أن رجلا من بني أمية اسمه أبو الفرج الاصفهاني الف كتاباً في الاغاني هل سمعت عنه شيئاً ! »

قال « سمعت أنه يؤلف هذا الكتاب من عهد بعيد ولا أدري إذا كان قد أتمه الآن »

قال « سمعت أنه أحسن كتاب في الادب »

قال سعيد « نعم وقد بلغني أنه قضى معظم حياته في جمعه وتأليفه وهو يغني عن سائر الكتب »

قال « بلغ مولاي الحكم خبر هذا الكتاب وأن مؤلفه أموي مثله

فاحب اقتناءه وهو يبذل ماتشاء للحصول عليه »

قال « سأبعث في طلبه من العراق لان صاحبه مقيم هناك »

قال « افعل . . . . ولا تذكر خبر قدومي اليك ولا خبر هذا الكتاب . . فهمت ! »

فاجاب « نعم » وقد أدرك أنه يريد أن يخفي ذلك خصوصاً عن ابن عبد البر لاتصاله بعبد الله شقيق الحكم وكان عبد الله ينافس أخاه الحكم في اقتناء الكتب فاذا سبق أحدهما الى اقتناء كتاب جديد عد ذلك فخراً له

وودع تليد سعيداً بالاشارة وهم بالخروج فتبعه سعيد الى الباب وقال له « هل كنتم في حملة الخارجين لملاقاة رسل الروم . . . : ياحبذا لو كنت معكم »

قال « لا لم أكن »

فقال « لو كنت لم يحدث شيء يغضب ياسراً » قال ذلك وهو لا يعرف شيء مما أغضبه وإنما أراد الاستطلاع

فقال تليد « وهل بلغك ما حصل ! انى أرى ياسراً محقاً في غضبه لان عاماً مع أنه أقرب عهداً في خدمة القصر نراه قد شمخ بانفه عليه ويريد أن يتقدمه في المجالس وفي الاحتفالات . ولكن ياسر عاقل لا أظنه يحاسبه على هذه الجسارة » قال ذلك وودعه وهو يقول لا تذكر خبر قدومى لاحد

فادرك سعيد سبب غضب ياسر واستبشر به وكتمه وعاد الى مجلسه ولما دنت الشمس من المغيب أخذ الزوار في الانصراف وابن عبد البر مستغرق في دروسه وكتابته ولم يشأ سعيد أن ينبهه . . خرج الجميع ولم يبق هنالك غيره فانتبه لنفسه لما غابت الشمس وحم الظلام وهم بالنهوض فرأى جوهر الخادم يحمل اليه سراجاً مضيئاً وهو يقول « ان مولاى قد بعث اليك هذا السراج تستضيء به حتى يتم عملك »

الفصل الخامس

عابدة

فشكر له اختصاصه بهذا الاكرام وظل جالساً يكتب وقد خفت الضوضاء . وهو في ذلك سمع وقع أقدام خارج غرفته فالتفت فلمح شبحاً مر ببابها يشبه أن يكون امرأة حاسرة الوجه جميلة الطلعة . فستغرب ذلك وأنصت لعله يستطلع شيئاً فسمع سعيداً يرحب بالقادم بصيغة التأنيث فحمله حب الاستطلاع على رؤية الفتاة فنهض وأطل من الباب وهو يتجاهل فرأى فتاة كالقمر طلعة والخيزران قواماً تخاطب سعيد بلسان فصيح يدل على علم وأدب . وسعيد يقول لها « أتيت أهلا ووطئت سهلا ياعابدة لقد طال انتظارى قدومك »

فقالت « لم يكن تأخرى عن عمد ولكنني شغلت بمطالعة كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ونسخه فان هذا الرجل قد جمع فيه مالا مثيل له في سواه من العروض والشعر والاخبار والامثال والتاريخ ناهيك بالفوائد الصحية والعظات الدينية وقد نظم أعمال أمير المؤمنين شعراً وتوفي وهو ينظمها منذ ثماني سنوات (توفي ابن عبد ربه سنة ٣٢٨ هـ) » قالت ذلك وأخرجت من تحت ردائها صرة كبيرة وقالت « وهذه هي النسخة التي نسختها »

فتناولها سعيد وهو يقول « أنت نسختها بيدك ؟ »

قالت « نعم نسختها بيدي وأرجو ان تعجبك »

فاخذ سعيد يقلب فيها ويتصفحها وهو يقول « ان هذا الكتاب نادر المثال ومع أن صاحبه توفي في هذه المدينة منذ بضعة أعوام فاني لم أجد نسخة منه بمثل هذا الخط وهذا الضبط » قال ذلك وهم بالمسير نحو غرفة ابن عبد البر وهو يقول « اظن أن هذه النسخة تليق بخزانة الامير عبد الله ابن أمير المؤمنين »

فلما رآه ابن عبد البر يتقدم نحوه عاد الى مجلسه وأظهر أنه كان مشتغلا بالكتابة فلما وصل سعيد الى الباب قال « هل يأذن الفقيه بالدخول »

قال « تفضل وادخل »

فدخل والكتاب بيده وأشار الى الفتاة أن تدخل فدخلت وهي حاسرة الوجه والذكاء يتجلى في عينيها فدهش الفقيه لرؤيتها واستغرب كشف وجهها على هذه الصورة وظنها أول وهلة نصرانية او يهودية لان اليهود كانوا يعنون بالادب العربي . والتفت الى سعيد وهو ينتظر مايبدو منه فاذا هو يقدم له الكتاب ويقول « جاءتني هذه الاديبة بهذا الكتاب مكتوباً بخط يدها وهو العقد الفريد لابن عبد ربه واظن في مكتبة مولانا الامير عبد الله عدة نسخ مثله »

فتناول الفقيه الكتاب وهو ضخم وأخذ يقلبه على ضوء السراج ويعجب بجمال خطه وضبطه وقال « نعم فيها منه عدة نسخ ولكن لا مثيل بينها لهذه النسخة واظن مولانا الامير يرغب في اقتنائها اذ أرادت هذه الحسناء بيعها . وهل هي خطها بيدها ! » ورفع بصره اليها

قال سعيد « نعم . . . وهل تستغرب ذلك ! فكيف اذا عرفت أنها تعي هذا الكتاب وعشرات مثله في ذهنها . . . فلا تسألها عن شعر جاهلي او اسلامي الا قالته »

فقال ابن عبد البر « ما شاء الله . . ان ذلك نادر في النساء »

فقال سعيد « وفوق ذلك فهي تحسن الغناء والضرب على العود »

فدهش الفقيه وجلس يفكر بما يسمعه وقال « واغرب من ذلك أنها نصرانية أو اسرائيلية على ما أظن »

قال « كلا بل هي مسلمة »

قال « ولكني أراها مكشوفة الوجه . . وأظن بهذا الجمال أن [illegible] العيون »

فالتفت سعيد الى الفتاة كأنه يطلب اليها أن تجيب عن نفسها فقالت

بأنفاظ رخيمة لها وقع على النفس أشد من وقع معانيها « لا أرى داعيا الى تغطية الوجه الا ضعف النفس . وانى على رأي عائشة بنت طلحة . وه . كانت تجالس الرجال ولا تحجب وجهها عنهم . ولما سئلت عن ذلك قالت ان الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم فما كنت لاستره ووالله ما في وصمة يقدر أن يـ كرني بها أحد »

فلما سمع الفقيه كلامها زادت دهشته والتفت الى سعيد وقال همسا « من هي »

قال « هي جارية من مولدات بغداد »

فهز الفقيه رأسه اعجابا وقال « لله در بغداد كم يخرج منها . . . ان مثل هذه الجارية جديرة ان تكون في دور الخلفاء أو الامراء . . . »

فقطع سعيد كلامه قائلا « الا تظن مولانا الامير يحب اقتناء هذه النسخة من العقد الفريد » واشار الى الكتاب بيده

ففهم الفقيه أن سعيداً لا يحب ان يذكر خبر اقتناء الجارية بين يدي صاحبه « لا أشك في ذلك . . فاذا قدمته اليه بعد الفراغ من الاحتفال القادم أخذه وأكرمك . وأنا أذكر له خبرك قبل قدومك واذا رأيت أن تأخذ هذه الحسناء معك ليراها ويسمع حديثها كان ذلك باعثاً على رضاه وسروره »

قال « سنفعل . . . والآن متى يكون الاحتفال باستقبال رسل القسطنطينية ؟ »

قال « أظنه لا يكون قبل بضعة عشر يوماً على عادة أمير المؤمنين من تأجيل المقابلة زيادة في الارهاب »

قال « اني شديد الرغبة في حضور ذلك الاحتفال »

قال « سأصطحبك معي . ومتى آن الوقت أنبأتك وذهبنا معاً »

فشكر له وهم بالخروج فقال الفقيه « قد آن لي أن أنصرف فأذن لي ان شئت »

قال « لك الخيار يا سيدى . ولا بأس عندي من بقائك هنا في عملك واذا أردت كتباً أخرى غير البيان والتبيين قدمته مع السرور . وهذا كتاب العقد الفريد بين يديك ولعله يفيدك في ما تحتاج اليه في خطبتك من الشواهد التاريخية أو الامثال . . تفضل اجلس »

فشكر ابن عبد البر احتفاءه وقال « يكفى الآن ما قرأته »

قال سعيد « أظن خطبتك ستكون جامعة واعية وأرجو أن تنتفع بها فاذا انتفعت عادت بالنفع على أصحابك ولكن لا أدري اذا كنت تعدنى من الاصحاب . . »

فخجل ابن عبد البر من هذا الاطناب وقال « انك من اعز الاصدقاء يا سعيد واذا وفقني المولى ونلت المنصب الذي أتوقعه بعد هذا الاحتفال رأيت مني ما يسرك فادع لى »

قال « انى أدعو لك بكل خير وأراك أهلا لاكبر المناصب العلمية فن أولى منك برئاسة القضاة أو الخطباء ! »

الفصل السادس

المانيتزم

فتظاهر ابن عبد البر بالتواضع وأسرع فوضع أوراقه في جيبه وخرج . فشيعه سعيد الى الباب ثم أمر خادمه أن يوصد الباب و[illegible]
ولما سمع اصداءه تنهد طويلا وعاد الى موقف الجارية فاذا هي لا [illegible] واقفة في انتظاره . فلما استقبلها نظر اليه بعينين براقتين تكادان تنطقان وقالت « هل تأذن بانصرافي أيضاً ؟ »

فأشار اليها أن تجلس [illegible] حتى [illegible] من جانب المكان [illegible] جلست على وسادة في غرفة ليس فيها غير بسط [illegible] الاقداح أو الكتب او أدوات الكتابة ومسراح قائم على [illegible] [illegible] في تلك الغرفة [illegible] كما تتصاعد زهرات [illegible]

يشعر بها سعيد أو لعله شعر وتجاهل

فلما قعدت قعد أمامهـا وهى تنظر اليه فلما وقع بصرها على بصره بادرت الى الاطراق لانها لا تطيق التفرس في عينيه لحظة فاذا فعلت أحست كأن سهاماً تخترق بصرها الى أحشائها أو هي أشعة كهربائية تنتفض لها جوارحها . ولم يكن هو يجهل ذلك ولـكن مطالبه غير مطالبها . فلما أطرقت قال لها « مابالك لاتنظرين الى »

قالت « ألا تعلم أني لا أستطيع النظر الى عينيك ! »

قال « كنت أحسبك تفعلين ذلك حياء »

قالت « لم يبق باعثاً على الحياء بيننا وقد أطاعتك على مكنونات قلبى وتفاهمنا ملياً »

قال « يسرني أنك فهمت مرادي وذهب سوء الظن »

قالت « نعم فهمت . ولـكن يظهر لى أن هذا الانتظار لا آخر له وأنت قانع ببيع الـكتب ونسخها ومقابلة الناس ومحاسنتهم » قالت ذلك وأبرقت عيناها وظهر الارتباك في شفتيها كأنها تخفى شيئاً تريد أن يفهمه سعيد بدون أن تقوله

أما هو فاحس بحدة ذلك التوبيخ فتغيرت سحنته وقال « لست وراقاً ولا ناسخاً كما تعلمين وانما أنا . . . » والتفت خوفا من أن يسمعه أحد وسكت وهو يحرق أسنانه

فقالت « لا تغضب يا سيدي . ولا تحسبني اعاتبك ولـكني استبطيء النجاح . . ان شبابنا كاد ينقضى في هذه الديار متسترين . . »

فرفع بصره اليها وقال « يعجبني منك حماستك في سبيل الامر الذي جئنا هذه الديار من أجله ولا تظنني جاهلا مرادك فانا اعلم انك أرقى نفسا من أن يكون مطلبك مني مثل مطلب سائر النساء الجاهلات . وقد تعاقدنا وتعاهدنا على ذلك . وأما استبطاؤك النجاح فقد يكون في محله وقد تكونين مخطئة فان لـكل أجل كتابا . . . . وهل تحسبينني غافلا . . . ولـكن اعلمى باعابدة أن الساعة دنت وفتح باب الفرج

الآن . . . وأصبح اتمام العمل عليك « قال ذلك وتفرس في وجهها »
فتحمست وقالت « علي أنا ! . اني طوع اشارتك . . . متى بلغ من
الامر ان يكون قضاؤه علي فقد انمضى »

فأعجب بذلك القول الدال على قوة العزيمة والحزم وقال « اتطيعيني »
فتنهدت وقالت « وهل أقدر أن أعصاك . . . لا أعلم ما بعينيك من
التأثير في خاطري . . . اني لا يقع بصري على بصرك الا شعرت كأنك
غلبتني على أمري وقيدت ارادتي بارادتك فاشعر كأني عضو من اعضائك
خضع لارادتك ويعصاني . فكيف تسألني اذا كنت اطيعك ! » قالت
ذلك واطرقت حياء

فقال « تطيعنني حتى الموت ! »
قالت « حتى الموت وبعد الموت »
قال « لا اعني ان تعرضي نفسك للموت بل أعني اذا اقتضت الحال
ان تقتلي أحدا بيدك هل تفعلين . . . ! »
قالت « اذا كان ذلك في امكاني افعله » قالت ذلك وقد احست
قشعريرة خفيفة وسكتت

فتحفز للوقوف وهو يقول « اني ذاهب الساعة الى الاجتماع »
فتنهدت وقالت « ألا يزال القوم يجتمعون كالعادة »
قال « نعم وهم يزدادون عدداً وقوة حتى دخل في جمعيتنا هذه كل
رؤساء القبائل الناقمة على الناصر وفيهم آل حصفون الذين غلبهم على أمرهم
وجماعات كتامة وغيرهم من البربر وانما نحن نترقب الفرص »

قالت « وهل يتعدون حتى الآن انهم يجتمعون لاصلاح داخلية
بلادهم »

قال « ان المفهوم من اغراض هذه الجمعية عند [illegible] انها تشكو
من إيثار الناصر للخصيان الصقالبة على ابناء العرب او غيرهم من
الاحرار . وتنتقد بذخه واسرافه [illegible] كل ما [illegible] من [illegible] .

وليس في هذه البلاد من يفهم حقيقة الغرض الاصلى الا انت وانا فابقي على الكتمان »

فاطرقت لحظة وقد بدأ الاهتمام في جبينها وقالت « دعني أذهب معك »

قال « ولماذا ! »

قالت « أفعل كما تفعلون . . لعلى استحث القوم على العمل »

قال « احسنت هيا بنا » ونهض فنهضت معه وقد التفت بردائها فامسك بيدها وخرج من باب آخر في المنزل ومشيا في الظلام وهى لاترى شيئاً ولو مشى بها الى الجحيم وهو قابض على يدها لمشت ولم تبال لانها أسيرة ارادته كما يخضع من ينام نوما مغنطيسيا لارادة منومه بالاستهواء

مشيا مدة بين صعود وهبوط وقد بعدا عن الابنية حتى وقف بها في مكان سمعت فيه عنين ساقية وخرير ماء فقال « وصلنا »

الفصل السابع

الاجتماع

فنظرت الى ماحولها فرأت بين يديها ماء يجرى في نهر عرفت ذلك من لمعان سطحه في الظلام فقالت « نحن على ضفة الوادي الكبير (نهر قرطبة) »

قال « اصبري » وأخذ بيدها وأدخلها دهليزاً شديد الظلام بجانب الساقية فتلمسا الحائط حتى أطلا على باب فاستخرج سعيد من جيبه مفتاحاً فتحه به ودخل وأقفله وراءه وعابدة تحملق بعينيها من شدة الظلام فاذا هى ترى شعاعاً ضيقاً ما زال يشتد حتى ظهر فرأت نفسها عند باب مقفل فتقدم سعيد وقرعه قرعاً مخصوصاً ففتح له ونظر الى عابدة على النور فرأى سحنتها قد تغيرت لشدة القلق في أثناء

الطريق فاشار اليها أن ترخى النقاب ففعلت ودخل أمامها ـ ثم امرها أن تدخل ومشي بها الى مجلس في صدر القاعة فاجلسها على وسادة الى جانبه وتفرست في الوجوه فرأت شيوخا وشبانا عرفت بعضهم ورأت أناسا بينهم من رجال الدولة المروانية أنفسهم فتهيبت برهة ثم سمعت سعيداً يتكلم فقال « ياقوم نحن الآن في جلسة مقدسة وقد أتيت بهذه الأديبة من أهل دعوتنا لتعلموا أن النساء يشاركننا في النقمة على الحالة الحاضرة . . فالى متى نحن صابرون ؟ »

فنهض رجل من الحضور وهو في عنفوان الشباب وقال « نحن صابرون لصبرك . قم بنا فانا قائمون »

قال « صدقت . . . ولكنني لا أرى العجلة تنفع . ان الامر الذي نحن ساعون فيه يحتاج الى اعمال الفكرة . نحن ساعون في المطالبة بحق ضائع . ان هذا الرجل الذي سمى نفسه خليفة وتلقب بامير المؤمنين قد استبد بالاحكام وأخرج المناصب من أهلها فسلمها الى جماعة من الخصيان والعبيد حملوا اليه حمل الاغنام من أقصى الشمال فاشتراهم كما يشتري الماشية ثم اختصهم بقربه وأغفل أهله وأبناء عترته . ولم يبق إلا أن يولى لعضاء فتى من فتيانه الصقالبة أو الافرنج . . انه ينفق الاموال في بناء القصور واقامة التماثيل ويصنع حجارة البناء من ذهب وقد نهى الله عن ذلك[1] ان الذين فعلوا هذا قبله اضاعوا الدولة والمملكة فتبصروا في أمركم »

فنهضت عابدة والنقاب لا يزال على وجهها وقالت « اني فتاة لا أعلم علمكم ولكنني أعلم ان طول الصبر عجز وان المبادرة حزم ـ ان عبد الرحمن صاحب هذا البلد قد أفرط في الاسراف وحط من قدر العرب وغيرهم من المسلمين الذين هم أصل هذا الدين وعماده فعهد بأكبر مناصب الدولة الى الخصيان والعبيد واستكثر من هؤلاء حتى غصت بهم قصوره وابتنى قصر الزهراء على اسم جاريته وملأه بالخصيان والجواري

(١) المغربي جزء ١

والعبيد . ان في هذا القصر وحده ١٣٧٥٠ فتى من الخصيان وفيه من الصبيان الصقالبة ٣٧٥٠ وعدد النساء الصغار والكبار فيه ٦٣١٤ مافائدة الدولة من هؤلاء وهو ينفق عليهم الوف الوف الدنانير من مالها . . . أتعلمون كم مقدار النفقة ؟ ان إحصاءها فوق طاقتي ولكنني أذكر لكم مقدار ماينفق لاطعام اسماك إحدى بحيرات الزهراء . . . سمعت أن مبلغ ذلك في اليوم ١٢٠٠٠ خبزة وستة أقفزة من الحمص ـ تلك هي نفقة طعام اسماك احدى البحيرات فكم يكون مقدار النفقة على سائر حيوانات تلك القصور من الخيل والاسود والكلاب بل كم هي نفقة أولئك الالوف من الخصيان والعبيد . وانما البلية من كثرة النساء لان كثرتهن تكثر الخصيان . . . هل فيكم من يقدر ان يعرف مقدار النفقة ؟ كلا ولكنكم تعرفون جميعا انها باهظة »

كانت تقول ذلك بصوتها الرخيم فلما وصلت الى هنا بلعت ريقها وسكتت هنيهة ثم عادت الى الكلام فقالت « وهؤلاء الخصيان المجلوبون بالشراء أصبحوا الآن كبار رجال الدولة كصاحب الخيل وصاحب الطراز وقد اتخذ منهم جنده وحاشيته وجالسهم وقربهم وأصبح إذا أراد أن يكرم وافداً بعث منهم خصياً يستقبله كما فعل اليوم بانفاذه ياسراً وتماماً لاستقبال رسل ملك القسطنطينية . وقد اتخذ من العبيد أيضا جنداً وحاشية وأهمل العرب والبربر الذين فتحوا هذا البلد وجاهدوا في سبيل الاسلام ـ ان أعماله هذه دليل على قرب سقوط هذه الدولة . ولا يغرنكم ما تسمعون به من الذهب ولا ما تشاهدونه من أسباب الرخاء والترف فقد كان مثل ذلك أو أكثر منه فى الدولة العباسية على عهد الرشيد والمأمون ولكنهم أهملوا اهل عصبتهم فاستقووا بالاتراك يحاربون بهم . فصار النفوذ الى الاتراك وهو صائر هنا الى الخصيان إن لم تمنعوه بمبادرتكم . ويكفي لفتاة مثلى أن تقول ذلك واذا رأيتم انى أستطيع عملا اندبوني له والسلام »

وكانت تتكلم والحضور كأن على رؤوسهم الطير وقد أحسوا بتهامسهم

فنهض شاب متحمس وقال « إني افدي الامة بنفسي اندبوني للقتل او لفتك . . ان اهلي وعترتي يعدون بالمئات وهذا دمي بين ايديكم »

وصاح صائح بمثل ذلك وعلت الضوضاء فوقف سعيد وقال « لا حاجة بنا الى العجلة انظروني فاخبركم بالوقت المناسب . لكنني أتقدم اليكم أن تجعلوا نصب أعينكم أن هذه الدولة لابأس من بقائها وانما العيب في أميرها ولا نرى ولى العهد إلا مثله فان أقرب المقربين اليه خصي صقلبي هو جعفر فاذا صارت الخلافة اليه هل يرجى منه غير ماتراه من أبيه ؟ لقد أعمى عبد الرحمن ابصار الناس بالابهة والزخرف . . . اعماها بالقصور التى بناها لجاريته . وابنه الحكم سيكون مثله . . . ولابد من النظر في من يصلح للملك سواهما . . . على اني أشكر لهذه الفتاة التي اتتنا وبثت فينا روح النشاط والهمة وهي عسى سيكون لها شأن في هذا العمل الجليل »

وبعد قليل انفضت الجلسة وقد اقسم كل منهم على الكتمان والثبات وعاد سعيد ومعه عابدة من حيث أتيا حتى اذا وصل الى منزله قال لها « لقد أعجبتني لانك لم تذكرى دولة العبيديين ولا قلت شيئا عن نشأتها لئلا يستفشونا »

فقالت « ألم أقل لك أنى أشعر كأني عضو من أعضائك انما قلوب متوجهه إلي ويكفى ان تريد ذلك وإن لم تقله والآن اسمح لي بالانصراف »

قال « موعد اللقاء يوم الذهاب الى الامير عبد الله بعد حين عهد العيد وانما ابعث اليك بالخبر في حينه »

فحنت رأسها إيجابا وابتسمت وانصرفت وهي ملتفتة اليه وكان حسون الخصي في انتظارها خارجا ليمشي في خدمتها الى منزلها

الفصل الثامن

المنـاجاة

انصرفت عابدة وسعيد يشيعها ببصره ثم وقف حينا وهو غارق في بحار الهواجس ينظر الى الارض وهو تارة يحك ذقنه بسبابته وأخرى يتشاغل باصلاح قبعة كان يلبسها على رأسه كالعرقية والخادم واقف وبيده المصباح ينتظر امره ولا يجسر ان يخاطبه تهيبا مما في وجهه من ملامح الاهتمام والارتباك . ثم انتبه سعيد لنفسه ومشى الى غرفة الرقاد وأشار الى الغلام أن يضع المصباح هناك ويمضي

ثم نهض سعيد وأغلق باب الغرفة واستلقي على فراشه ولم يبدل شيئا من ثيابه كأنه لاينوى الرقاد في تلك الساعة لما قام في ذهنه من الذكريات المقلقة . ظل مستلقيا برهة وهو غارق في التفكير ثم جلس وحده وأخذ يناجي نفسه قائلا « ماذا اعمل ؟ انها تحبني . . . . كثيراً ولكنني لا اشعر اني احبها . . . . بل لا أقدر ان احبها مع انها جميلة وذكية و . . . لماذا لا احبها واريح قلبي من التفكير بسواها ؟ . . . » ولطم كفه على جبينه وحرق اسنانه ونهض وأخذ يمشي في الغرفة ثم وقف وقال « مسكينة عابدة انها جميلة وأديبة وذكية وهي تحبني بل هي تعشقني وتستهلك في سبيل مرضاتي . . . فلماذا لا احبها ! . . لماذا لا أحبها وأنزع صورة تلك القاسية القلب الشامخة الانف من ذهني . . . نعم ينبغي لي ان ابغض هذه وارذلها واطرد خيالها من خاطري . . . آه اني اذا فعلت ذلك فأنا سعيد البطل الحازم واكون اهلا للامر الذي يحسبني هؤلاء اسعى فيه واني انما قمت هنا نصرة للمظلومين ودفعا لظالمين . . . نعم ينبغي أن يكون هذا غرضي الوحيد . . . نعم اذا طردت ذلك الخيال من خاطري خيال تلك المتكبرة القاسية . . . اذا نزعتها من فكري واحببت عابدة — اذا فعلت ذلك يرتاح قلبي واتفرغ للعمل

العظيم الذي يتوقعه الناس مني . . نعم هكذا يجب ان اعمل هكذا يجب ان يكون سعيد القائد الحكيم الحازم . . »

قال ذلك وأخذ يخلع ثيابه فخلع الفراجية وعلقها بوتد في الحائط ثم نزع القبعة ودار وهو لايدري اين يضعها لاضطراب خاطره فرمى بها الى الارض واطفأ المصباح واستلقى فعادت اليه هواجسه وهجره النوم وتراكمت عليه الخيالات . فجعل الغطاء فوق رأسه كأنه يختبيء من الخيالات فلم يرها إلا تزداد وازداد تنبهه حتى سمع دقات قلبه بأذنه فصبر عليها فأخذته سنة الوسن هنيهة فرأى حلماً ازعجه فوثب من الفراش كالمجنون وهو يقول « لا لا . . . يجب ان احب عابدة التي تكاد تعبدنى . . . وانزع تلك الصورة من خاطرى . . . والا فما انا سعيد كما يسمونني . . . مابالى لا اشعر اني قادر على ذلك . . . ماهذا الخيال الذى يتردد امام عيني ! . . . اذهب عني . . . دعنى وشأني اني قد عزمت على السلو . . كيف لا . . انى اشعر بقوة ازحزح بها الجبال واغالب اعقل الناس وادهاهم فلا أقدر على امتلاك قلبي . . . ماذا ارى . . . هذا خيالها . . » وأطبق كفيه على عينيه كأن امامه شبحاً لا يريد ان يراه وقال « اذهبي عنى دعيني وشأني قد آن لى ان ارجع الى رشدى وقد ادركت الاربعين . . فيجب ان انسى عواطف ابناء العشرين والثلاثين . . نعم يجب ان انساها لانها نسيتني وعلقت بسواى . . علقت بسواى ? اذن هي احتقرتني فيجب ان انتقم منها . . انتقم منها ? لا لا . . لعلها معذورة واذا رأتني تتذكر الماضي وتعود الى . . هل يكون ذلك . . وافرحتاه انى أراها تبتسم لى وتهم بمعانقتي . . آه ما اجمل رضاها . . انه ينسيني عابدة وسائر العباد . . هل يجود على الزمان بذلك ? نعم لا بد أن يجود . سأجعله يجود رغم أنفه . . سأضحي كل شيء في سبيل الوصول الى تلك الحبيبة فاما أنالها او انتقم منها ومن . . . » وسكت لانه سمع حركة توهم ان عابدة قادمة نحوه فوقف والظلام حالك وهو يتوقع ان يسمع قرع الباب فلم يسمعه فعلم انه واهم ولكنه عاد الى تذكر عابدة فقال

« وعابدة المسكينة أأهملها ؟ لا . . بل أجعلها سعيدة مع سواى . . او . . ولكن بعد ان تخدمنى في غرضي .. »

الفصل التاسع

السحر والتنجيم

قضى سعيد معظم الليل في أمثال هذه الهواجس ولم ينم الا عند الفجر بعد ان تعب وخارت قواه وأصبح في اليوم التالى وعاد الى عمله فشغل عن هواجسه بمقابلة الزائرين وهو على احر من الجمر في انتظار يوم الاحتفال وقد أخذ في التفكير والتدبير لينتفع من الاجتماع في ذلك اليوم

وأتته عابدة في أثناء الانتظار تتذرع الى رؤيته بالسؤال عن وقت الاحتفال فأجابها انه لايزال ينتظر الخبر بذلك . فمكثت عنده حيناً تتشاغل بتقليب الكتب وهو يبدي السرور برؤيتها وفي خاطره تردد لم يظهر لها لانه كان قوي الارادة كبير المطامع لايبالى بما يقف في طريقه الى غرضه ولا بما قد يرتكبه في ذلك السبيل من الكبائر فاتخذ ساعات اجتماعه بعابدة في أثناء تلك الفترة فرصة لتوطئة المعدات التى ينوي أعدادها لتنفيذ غرضه وهي توافقه ولا ترى غير مايراه . وفي جملة تلك المعدات كتاب قديم استخرجه من خزانة وأخذ يقلب صفحاته وفيها رسوم وأشكال من قبيل الطلاسم واستخراج المخبآت وهي لا تزداد بذلك الا تعلقاً به وانقياداً له حتى صارت تعتقد انه قادر على كل شيء

وهما في ذلك أنبأهما الخادم بقدوم الفقيه ابن عبد البر فخف سعيد لاستقباله فلما دخل ورأى عابدة فرح بها ووافق وجودها غرضاً جاء من أجله . فحيا وسلم على عابدة سلام من يعرفها فردت التحية بادب وحشمة زادتها رفعة في عينيه فوجه كلامه الى سعيد قائلا اظننى اتيت في غير الوقت المناسب »

فاظهر سعيد الاحتفاء الكثير وقال « بالعكس ياسيدي فقد جئت في ابان الحاجة اليك »

فنظر الى الكتاب الذي بين يديه وقال « ألعلك عثرت على كتاب جديد »

قال « كلا يامولاي . . ان هذا الكتاب قديم » وجعل يقلب فيه فوقع بصر الفقيه على رسوم واشكال تسود أن يرى مثلها في كتب السحر فقال « وساحر أيضاً . . انك رجل نادر المثال »

فقال« لاتستغرب شيئاً أيها الفقيه فان الانسان اذا جد وجد ولا أراني أعرض شيئاً لايستطيعه سواي . . وفي كل حال فليس لي ما للفقيه من العلم الواسع في الفقه وأصوله وهو الخطيب المفوه . . »

فقطع ابن عبد البر كلامه على كيفية يوهمه بها ان خاطراً خطر له في تلك اللحظة ولم يكن في باله من قبل مع انه جاء من أجله فقال « ليس في شيء من ذلك . . . وقد اذكرتني أمر الخطاب »

فادرك سعيد ما في نفسه فسبقه الى القول « انما قلت مقالتك لاتدرج الى سماع خطابك . هل أتممته ؟ »

فمد ابن عبد البر يده الى جيب قفطانه واستخرج منديلا فيه [illegible] مقصها وهو يقول « هذا هو الخطاب . . ولم يأت كما كنت أحب . ولكن لا بأس به »

فأومأ سعيد الى عابدة فقالت للفقيه « لا اظننا نستحق ان نسمعه قبل مولانا امير المؤمنين »

قال وقد أثر قولها فيه « كيف لا ؟ اذا شئت تلوته عليك ولكني لا أراه أهلا لاعجاب ادبية مثلك . . . »

فابتسمت وأشارت اليه أن يقرأ اذا شاء فقال « أتلوه عليك على سبيل تجربة واذا بدا لكما انتقاد فقولاه »

فأشار سعيد [illegible] انه يحل للفقيه من أن يكون [illegible] [illegible] [illegible] ثم اصلح الفقيه موقعه وأخذ يتلو الخطاب كما يتلى في حضرة

الخليفة وسعيد وعابدة صامتان مصغيان يبديان الاعجاب عند بعض المواقف وهو يجود وما أتى على آخر الخطاب حتى امتلأ اعجاباً بنفسه وسعيد وعابدة يطنبان ويعجبان حتى قال سعيد « ان هذا الخطاب اذا قدره أمير المؤمنين قدره حعلك قاضي القضاة او شيخ أهل الفتوى »

فحنى الفقيه رأسه تواضعاً وهو بالحقيقة يعتقد في نفسه اضعاف ما سمعه ولكنه خاطب سعيداً قائلا « ان ذلك يرجع الى التوفيق فاذا وفقت الى ساعة سعيدة ووازرتني بدعائك نجحت ان شاء الله . ولكن هذا كتاب الطوالع بيدك اخبرني عما سيكون من حظي بعد تلاوة الخطاب »

فقال وهو يفتح الكتاب « ذلك يتوقف على اليوم الذي سيعقد فيه الاحتفال اذ لكل يوم طالع قد يوافق نجمك وقد لا يوافقه .. هل تعرف متى يكون الاحتفال ؟ »

قال « عينوا له يوم السبت القادم الواقع في ١١ ربيع الاول »

فأخذ سعيد يقلب صفحات الكتاب ويقرأ ويعيد القراءة ويعيد التقليب وقد بدت البغتة في عينيه وهو يقول « أنت مؤكد انه سيكون يوم السبت من كل بد ؟ لعلك واهم »

فاختلج قلب الفقيه في صدره خوفاً وقال « ألعل ذلك اليوم لا يوافق طالعي ؟ »

قال « لا أعني ذلك ولكنني أحب أن أعرف الذين سيحضرون ذلك المحل فان الطالع يتغير بتغير الجواذب والدوافع من الطوالع الاخرى » ثم رحل الى صحيفة وقف عندها طويلا وقال « ان طالعك اذا استقل لا خوف عليه في أي يوم كان اما اذا زاحمه طالع آخر أرى صفته في هذا الكتاب وكان ذلك في يوم السبت قد يصيبه ضرر . . ولكن ذلك غير متأكد فتوكل على الله واعلم انك أحسنهم جميعاً وانما أتقدم اليك متى أحرزت ذلك المنصب الرفيع أن لا تنسى صاحبك سعيداً »

فقلقه ذلك الارتياب لكنه اطمأن للعبارة الاخيرة فضحك وهز رأسه

استخفافاً بتلك التهمة ولسان حاله يقول « كيف انساك ؟ » وزاد ذهنه تعلقاً بنيل هذا المنصب

وهم في ذلك دخل ياسر كبير فتيان الناصر وكان قد أكثر من التردد على سعيد بعد مقابلته الاخيرة وأسر اليه اموراً فرحه بها وزادت الروابط بينهما سراً وارتفعت الكلفة . وأما بين يدي الفقيه فاحتفل سعيد بياسر وبالغ في تبجيله واكرامه وقدم له كرسياً ليقعد عليه وابن عبد البر لايزال قابضاً على اللفافة فهم بوضعها في جيبه وأخذ بالسلام على ياسر وآنس منه احتفاء واكراماً فوق العادة فآنس به فقال سعيد لياسر « هل يرغب الاستاذ في خدمة ؟ »

قال « كلا ولكنني تذكرت سؤالك عن وقت الاحتفال باستقبال رسل القسطنطينية لانك تحب حضوره وكنت قد جئت على عجلتي الى هذه الجهة لغرض لي فرأيت أن أمر بك وأخبرك ان الاحتفال يكون يوم السبت القادم وقد سرني اني لقيت الفقيه هنا لاوصيه بمرافقتك الى القصر الزاهر حيث يكون الاحتفال »

قال « أشكرك ياسيدي على هذه العناية » والتفت الى الفقيه يسأله عن الملتقى فقال « ملتقى في المسجد قرب باب الجنان المطل على الرصيف فوق الوادي الكبير وهو أقرب أبواب القصر الينا على ما أظن »

قال « حسناً سأوافيك الى هنا صباح يوم السبت القادم ان شاء الله »

وهم ياسر بالانصراف فاستوقفه الفقيه بقوله « هل كنت تعرف [illegible] الآن ان لسيدك معرفة بالسياسة والطوالع »

قال « وأعرف فوق ذلك أنه طبيب وكيماوي »

فدهش الفقيه [illegible] وكيماوي أيضاً [illegible] كل شيء

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الفتاة الاديبة ؟ لا أظن في قصور أمير المؤمنين فتاة في مثل أدبها وتعقلها »

فالتفت ياسر الى الفتاة وقد خجلت من ذلك الاطراء وعلت وجهها حمرة وأبرقت عيناها فقال « هل تعرف الشعر والادب ؟ »

قال سعيد « نعم ياسيدي إنها تحفظ ألوفا من أشعار العرب وأمثالهم وأخبارهم »

قال « ليس بين نساء قصر أمير المؤمنين من يحفظ الشعر الا الزهراء ولذلك فانها أقرب جواريه اليه كما تعلمون لان مولانا الناصر كثير الشغف بالادب وأهله . على أن معرفتها قليلة في جانب ماتذكره عن هذه الحسناء »

فندم الفقيه على توجيه نظر ياسر الى عابدة مخافة أن يسعى في أخذها الى الخليفة وهو يحب أن تكون للامير عبد الله فيكون له حظ من أدبها فغير الحديث واستأذن في الانصراف على موعد اللقاء يوم السبت وبعد قليل انصرف ياسر بعد أن ودع سعيداً وقد تماها

الفصل العاشر

الاحتفال

وأخذ أهل قرطبة يتأهبون لاستقبال رسل ملك القسطنطينية في البناء المعروف بالقصر الزاهر أحد أبنية القصر الكبير . لان هذا القصر كان مؤلفا من عدة قصور كما تقدم وهو واقع في الطرف الغربي من قرطبة يطل على الوادي الكبير وهو نهرها الذي يجرى من الشرق الشمالي الى الغرب الجنوبي . والقصر يشغل مساحة كبيرة تتخللها البساتين والحدائق والاحواض والبرك والبحيرات والقصور ونحوها . ويحيط بها جميعا سور له بضعة أبواب منها بابان في الجنوب يطلان على النهر هما باب الجنان وباب السطح وواحد في الشمال اسمه باب قوريه وآخر في الشرق هو

باب الجامع . والاخير في الغرب ويقال له باب الوادى . والاثنان الاولان يشرفان على النهر وبينه وبينهما رصيف عريض يفصل قرطبة عن النهر يخرج اليه الوجهاء وأهل الدولة للتنزه بقرب الوادى الكبير (النهر)

وفوق النهر جسر فخم (كوبري) يصل بين قرطبة وأرباضها الجنوبية طوله ٨٠٠ ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وارتفاعه ٦٠ ذراعاً وعدد قناطره ١٨ قنطرة وفوقه أبراج عددها ١٩ برجاً وهو يعد من مفاخر قرطبة ولا يزال الى اليوم من آثارها الفخمة

وكان منزل سعيد في الارباض الجنوبية ولا بد له في ذهابه الى القصر من العبور على ذلك الجسر . فلما كان اليوم المعين لبس لباساً فاخراً على شكل يلفت انتباه أهل قرطبة وفيه مشابهة للباس العلماء والاطباء مع فخامة واتقان وكبر العمامة على الخصوص مع ان أهل الاندلس قلما كانت لهم عناية بالعمائم . وغرس في عمامته قلم الكتابة وعلق فوق القفطان بمنطقة من جلد غرس فيها دواة من الفضة واكتحل بالاثمد اكتحالا كثيفاً . وركب بغلته وساقها يطلب باب الجنان من أبواب القصر ومشى خادمه في ركابه . وكان ركوب البغل في الاندلس من دلائل الجاه والثروة . فقطع سعيد مسافة وهو يطلب الجسر فعرف قربه من الوادى مما سمعه من دوي الرحى بجواره — فقد ذكروا انه كان في ذلك الوادي ٥٠٠٠ رحى[1] تطحن حنطة وغيرها وكلها تدور بمجرى الماء

وبعد قليل أشرف سعيد على الجسر فرأى الاقدام قد تزاحمت عليه لكثرة الوافدين على القصر أو على الرصيف للتفرج على احتفال . واتئد الرسل . ورأى ما على الجسر من الابراج في الجانبين [illegible] [illegible] ثلاثون ذراعاً [illegible] الاعلام منصوبة تخفق مع الريح [illegible] [illegible] الظاهر والشمس [illegible] [illegible] السماء بعد فصل [illegible] [illegible]
[illegible] رجالا ونساء وأطفالا [illegible] [illegible]

(١) [illegible] ج ٢

وخصوصاً بقرب الجسر . لان الرسل سيمرون عليهم باتقائهم من منزل ولى العهد في الربض بعدوة قرطبة الى القصر الكبير . وقد تفرقت الاجناد في الطرق لمنع الزحام وخصوصا على الجسر

فظل سعيد سائقاً بغلته في الرصيف الى الجامع فلم يجد ابن عبد البر فيه ولكنه وجد خادما صقليبا واقفاً بانتظاره . فلما رأى سعيداً قال له « ان مولانا الفقيه سبقك الى السطح المشرف فوق الباب وراء هذا الجامع ويرغب اليك ان تذهب الى هناك لتشرف من ذلك السطح على النهر والجسر والرصيف والقصر جميعاً »

وساق بغلته الى ذلك الباب وعليه سطح مشرف لامثيل له في العالم[١] فتحول وترك البغلة للخادم وصعد الى السطح من سلم بجانب الباب فرأى الفقيه جالساً في انتظاره فوقف له ورحب به وقال « اظنني اتعبتك بالمجيء الى هنا ولكنني أعلم أنك تسر بهذا المنظر الجميل . . . »

فوقف سعيد الى جانبه وتلفت الى مايشرف عليه فاذا هو يرى النهر وفيه القوارب من جهة الجنوب وفوق الجسر وعليه الاعلام تخفق فوق الابراج وقد تزاحم الناس وتحاكت مناكبهم وفيهم العربى والصقلبي والبربري والمستعرب (وهو في اصطلاحهم الاسبانى الذى يتكلم العربية) من الرجال والنساء والاطفال يتخللهم الباعة بالاطباق على رؤوسهم وفيهم من يحمل طعاما أو فاكهة أو نقلا والسقاة يحملون الجرار على ظهورهم ينادون سبيل ياعطشان وبين هذه الاخلاط من الناس رجال الجند تتشابه ملابسهم وفيهم الصقالبة البيض والرجالة العبيد وقد رتبوا صفوفاً حسب رتبهم وأجناسهم . فوقف صف من العبيد عليهم الجواشن والاقبية البيض وعلى رؤوسهم الخوذ الصقلبية وفي ايديهم التراس الملونة على طول الجسر الى باب الجنان من ابواب القصر يتخللهم فرسان منهم

(١) المقرى ج ١

الفصل الحادي عشر

القصور

وأومأ الفقيه الى سعيد أن يلتفت شمالا غربيا نحو أبنية القصر وبساتينه فرأى ما بهره من القصور المختلفة الاشكال وبينها الحدائق والبساتين تتخللها البرك والبحيرات والاحواض من الرخام المنقوش وعليها تماثيل من الرخام أو الفضة على أشكال مختلفة يجرى ماؤها من أنابيب بعضها كافواه الحيوانات . اكثرها من الرخام وبعضها من الفضة والبعض الآخر من الذهب تتلألأ عن بعد في أشعة الشمس . وبعض الاحواض عليها التماثيل من النحاس المموه على أشكال جميلة والماء ينبثق من جوانبها فيتلون رشاشه بألوان قوس القزح . فانبهر سعيد من تلك المناظر ولم تسبق له رؤيتها من ذلك السطح المشرف فقال « بالحقيقة ان الخليفة الناصر قد ابدع في تدبير هذا القصر واتقانه . واغرب ما فيه هذه الاحواض المنقوشة وعليها التماثيل يتفجر الماء من جوانبها أو رؤوسها أو أفواهها . هل هو ماء النهر حمل اليها ؟ »

فضحك الفقيه وقال « ماء النهر . . وهل يصعد الماء من هذا الوادي الى هذه المصانع ؟ . انما هو ماء مجلوب من هذه الجبال العالية على المسافات البعيدة . . وقد أنفقوا في سبيل جلبه ما لا يقدر من الاموال . يكفي أن تتصور جلب هذا الماء من تلك الجبال الى هذه القصور في قنوات من الرصاص . فكم نقروا من الصخور وبنوا من القصاب لتدبير الماء في جريه بالانابيب المذكورة . ثم تصور توزيع الماء بعد وصوله الى هذه القصور والبحيرات والبرك والصهاريج حتى ينصب من تماثيل الفضة او الرخام أو النحاس المموه وبعضه يجري من انابيب الذهب . غير ما انفقوه في نقش هذه التماثيل الرخامية فوق الاحواض »

فكان ابن عبد البر يتكلم وسعيد مطرق يفكر حتى فرغ الرجل من

كلامه فقال له « لايدهشني مقدار ما انفق من الاموال أكثر من اتخاذ هذه التماثيل . . فهل افتيتم له باتخاذها وهي محرمة على ما أعلم »

فهز الفقيه رأسه وقال « من افتى له ؟ انه افتى لنفسه »

ثم استوقفهما صوت النفير فالتفتا نحو الجسر فرأيا الناس يتسابقون نحوه لمشاهدة اولئك الرسل وقد اقبلوا على افراسهم وعليهم الالبسة المذهبة تتألق بضوء الشمس فوق السروج المفضضة وقد احاطت بهم كوكبة من الفتيان الوصفاء من شبان الصقالبة عليهم الدروع السابغة والسيوف الحالية وقد امتطوا الافراس الجياد عليها اللجم المحلاة بالذهب . وقد بالغ عبد الرحمن باظهار الابهة والعظمة ارهاباً للاعداء

فأراد سعيد ان ينزل عن السطح فقال له « والى اين ؟ ان الطريق مسدود بالناس ولا سبيل لنا الى القصر الآن فالافضل ان نمكث هنا ريثما يمر الركب ثم ندركه على عجل او نسبقه من طريق مختصر اعرفه . . أنظر الى ما أراده أمير المؤمنين من الارهاب بايقاف أحاسن رجاله في طريق أولئك الرسل . ان رجالته العبيد مصفوفون على الجسر وهذه كوكبة من الفتيان الاصاغر تحيط بالرسل . . ألا ترى هؤلاء الروم قد أحنوا رؤوسهم خوفا ورهبة . انظر الى باب الجنان كم نصب عليه من الاعلام وكم وقف بجانبيه من الفرسان وعليهم الالبسة الثمينة هؤلاء ذوو الاسنان من الفتيان الصقالبة وقد لبسوا البياض وبأيديهم السيوف ووراءهم من هذا الباب في الداخل الى الباب الثاني من أبواب القصر صف من الرماة وقد تنكبوا قسيهم وجعابهم . واذا أمعنت نظرك في الوقوف بالباب الثاني وما وراءه رأيت طائفة أخرى من الصقالبة الاكابر في أثمن من ذلك وأبهج . . لاريب عندي أن أولئك الاروام قد دهشوا من هذه المناظر . وسترى أغرب من ذلك متى أتيت القصر ورأيت ما أعدوه هناك من الرياش والاثاث ومظاهر الملك وأبهة الدولة . . »

قال سعيد « أخاف أن يبدأ الاحتفال قبل وصولنا فيذهب تعبنا سدى ؟

فهز رأسه استخفافا وقال « لا يبدأون قبل وصول الخطباء . . . ومع ذلك فاني آخذك من طريق مختصر نصل منه الى القصر قبل وصول الناس اليه »

قال « افعل اذا شئت »

فتحول الفقيه وتحول سعيد معه فلما صارا في الطريق أشار الى سعيد ان يترك بغلته ويسير معه ماشياً لان ذلك أسهل عليهما

فاشار سعيد الى خادمه أن يحتفظ بالبغلة ومشى مع الفقيه . فسار به في البساتين بين الاشجار والرياحين وقد سره المشي هناك بدل الركوب ليتمكن من رؤية كل شيء فكثيراً ماوقف عند بعض الاحواض الرخامية يتأمل انصباب الماء من جوانبها أو من أواسطها في الانابيب المختلفة الاشكال والالوان وحولها البستانيون يتعهدونها بالاصلاح والري والتنظيم . ولحظ الفقيه اعجابه بما يشاهده هناك فقال له « أراك قد دهشت مما تراه في هذا القصر من البذخ فكيف اذا دخلت الزهراء ورأيت قصورها وقاعاتها وحدائقها وقبابها ؟ كيف اذا رأيت القبة التى قرميدها من الذهب ؟ . . »

فصاح سعيد « قرميدها من الذهب ؟ . اني استغرب ذلك من أمير المؤمنين بعد ان اتخذ الخلافة فصار نائباً عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو الناهي عن اتخاذ ذلك . . »

فأومأ الفقيه بسبابته على شفته السفلى ان « دع هذا الآن »

الفصل الثاني عشر

القصر الزاهر

وما زالا يتصلان من بستان الى بستان ومن حديقة قصر الى حديقة قصر آخر وقد سبقا الموكب حتى اطلا على القصر الزاهر . وهو من أجمل أبنية القصر الكبير فانتبه سعيد على الخصوص لواجهته ورأى عليها

نقوشاً كالوشم على المعصم في اشكال جميلة بين أقواس منحوتة باشكال هندسية عربيــة تتخللها الابواب في الاسفل وهى في غاية ما يكون من اتقان النقش . ويزينها فى الطبقة العليا النوافذ والاحنية والقناطر كالرواق القائم على أساطين الرخام وعلى تيجانهــا نقوش وكتابة وفوق التيجان الاقواس قد تقطعت سقوفهامربعات متداخلة ورسمت فيها الآيات والدعوات حفراً أو تصويراً . وعلى افاريز الشبابيك أبيات من الشعر مذهبة والافاريز من الشكل المقرنص . وتنتهي تلك الطبقة بطنف بارز هو امتداد السطح الى الخارج وعليه نقوش فى غاية الجمال. وحول النوافذ زجاج ملون مصنوع على أشكال هندسية في أجمل زينة

لم يستطع سعيد التفرس فى ذلك البناء طويلا لما رآه ببابه من الحرس وقوفاً وهم من خاصة الفتيــان الاكابر والمقدمين . عليهم الالبسة القصب وعلى أكتافهم الظهائر المذهبة وعلى رءوسهم القلانس الهرمية الشـكل يزينهــا الطراز المذهب وقد تقلدوا السيوف المذهبة وهم نخبة الرجال قامة وجمالا وهيبة ممــا يستوقف الابصار . فتهيب سعيد من تلك العظمة ولم يكن يتصور أبهة الملك تبلغ الى هذا الحد فقال في نفسه كيف يكون البهو الداخلي الذي أعدوه لاستقبال الرسل . ولم يستطع دخول القصر الا بعد ان رأى الحرس رفيقه الفقيه ابن عبد البر وتحققوا انه من حاشية الامير عبد الله وصنيعة الحـكم فدخل وتبعه سعيد فمشيا في طرقات بين الاشجار مفروشة بالازهار والرياحين حتى أتيا الباب الخارجي وقد فرش من عتبته الى الدهاليز وصحن الدار وهو البهو الخارجي بعتاق البسط وكرائم الارائك وظللت أبواب الدار وحناياها بظلال الديباج ورفيع الستور

وصعد من ذلك الصحن على بضع درجات من الرخام المذهب الى بهو واسع قد نقش سقفه وأفاريزه بالذهب والالوان الزاهية أكثرها الاحمر والازرق والاصفر . وقد جللت جدرانه بالديباج وفرشت أرضه بالسجاد الثمين ونصبت المقاعد والكراسي في جوانب البهو على حسب الرتب والمناصب

وفى صدر البهو سرير الخليفة من الذهب مرصع بالزمرد والياقوت فوقه قبة فيها نقوش وآيات على أبدع تصوير . وقد فاحت رائحة العنبر من مبخرة مذهبة نصبت في بعض جوانب البهو . ولم يؤذن بدخولهما هذا المجلس لان الخليفة لم يكن قد وصل بعد . فوقفا حائرين وسعيد يأمل كل شيء ويعمل فكرته في كل شيء . ثم لاحت منه التفاتة فرأى ياسراً ينظر اليه فاشار سعيد انه يريد الدخول فتقدم ياسر وقال له « لا يجوز الدخول قبل قدوم الخليفة ولكن لابأس من دخولكما خلسة من باب سري تجلسان في مكان لاضرر منه وتريان الناس عند دخولهم ومتى انتظم عقد الجلوس تجلسان في هذا المكان مع جماعة الفقهاء » واشار الى المكان

فسر سعيد لهذه الفرصة ودخل ومعه ابن عبد البر حتى وقفا وراء بعض الاساطين في آخر البهو بحيث يريان كل قادم ولا يراهما أحد

ولم تمض هنيهة حتى سمعا لغطاً ورأيا الخصيان في حركة فعلم ابن عبد البر ان الناصر قادم فتهيب وبانت الدهشة في وجهه . فادرك سعيد ذلك فالتفت اليه وقال « أظن مولانا امير المؤمنين قادماً »

فاشار الفقيه برأسه ان « نعم »

ثم رأياه مقبلا وقد تزيا بزى الخلفاء فنظر سعيد الى الفقيه كانه يستفهمه فقال له بصوت خافت « لو دخلت على أمير المؤمنين منذ بضع عشرة سنة لرأيت لباسه يختلف عنه الآن ولم تر هذا القضيب بيده فانه قضيب الخلافة ولم يكن خليفة الا منذ بضع عشرة سنة . ولذلك رأيته الآن يلبس العمامة المرصعة بالجواهر ويحمل القضيب بيده . وهذه بردته مثل بردة سائر الخلفاء لكنه جعلها بيضاء تشبهاً بلباس أقربائه في ايام الشام . وترى تحت البردة قباء من الوشي وهو لباس الامويين في أيام دولتهم بالشام »

كان الفقيه يتكلم بصوت منخفض يحاذر أن يسمعه أحد خلو القاعة من الناس وهدو المكان وسعيد شاخص ببصره الى الناصر يتأمل الاحه

ويستطلع فراسته فرآه ابيض اللون مشرباً حمرة أزرق العينين وفي محياه هيبة وقوة وقد مشى وبيده قضيب الخلافة والجلال يتجلى في جبينه والذكاء ينبعث من عينيه وقد وخطه الشيب . وشغل سعيد على الخصوص بما على عمامته من الجواهر والتفت نحو الفقيه فرآه يبالغ في الانزواء خوفاً من وقوع بصر الخليفة عليه فقال له « ان أمير المؤمنين فوق ما كنت أتصور ويظهر لى مع كون والدته أمة نصرانية ان هيبة الخلفاء لم تنقص شيئاً »

الفصل الثالث عشر

استقبال الرسل

فقال الفقيه « لا أظنك تجهل ان أكثر الخلفاء في الدولتين الاموية والعباسية امهاتهم من الاماء وبعضهن من الجواري أما أم مولانا فهي نصرانية جميلة وكان اسمها مريه » (١)

وفي أثناء هذا الحديث كان الخليفة قد جلس على السرير في صدر البهو فوق عرش مرتفع ووقف بين يديه جماعة من كبار الفتيان يتلقون أوامره وعليهم البسة تأخذ بالبصر لما فيها من الطراز المذهب والالوان الزاهية وسعيد لا يرفع بصره عن الناصر وقد همه أمره كثيراً

فرآه ينظر الى باب البهو ويبتسم ويشير برأسه مرحباً فالتفت سعيد فرأى الحكم ولى العهد داخلا في لباس فاخر ونضارة الشباب تتجلى فى وجهه وقد فاحت منه رائحة المسك ومن يره يعرف انه ولى العهد لانه كان يلبس القلنسوة الخاصة بذلك . فلما اقترب من أبيه ناداه اليه وأجلسه الى يمينه وهو يبتسم له

ثم دخل ابنه الثاني الامير عبد الله وكان البهو قد تكاثر فيه الناس فلم يعد الفقيه يخشى أن يسمع صوته فلما دخل الامير عبد الله لفت نظر سعيد

(١) كوسى — رواه روى ج ٤

اليه وقال « هذا مولانا الامير عبد الله كيف تراه ؟ »

قال سعيد « أراه احسنهم جميعاً . . . اني ارى التقوى ظاهرة في وجهه واظنهم لو خيروه في اللباس لاختار الجبة والعمامة الساذجة وكان في غنى عن هذه الملابس الفاخرة بما يزينه من الخلال الحميدة »

فقال الفقيه « لقد أصبت بفراستك كبد الحقيقة ان الامير عبد الله يفعل ذلك في منزله فانه من الزهد والتقوى على جانب عظيم حتى تكاد لاتجد عنده من الخصيان احداً وهو على غير رأي والده من هذا القبيل ولذلك سموه الزاهد . وله شعر حسن . . (١) »

فقطع سعيد كلامه قائلا « هذا هو الرجل المطلوب . . انه اذا تولى الخلافة أعادها الى رونقها ووقاها من الادران الخارجية »

فهمس الفقيه في أذنه « دعنا من هذا الآن »

وجاء بعد عبد الله اخوته عبد العزيز فالاصبغ فمروان . ثم أشار الخليفة الى الخصيان الاكابر الموكلين باستقبال الناس وادخالهم الى مجالسهم وفي جملتهم ياسر أن يدخلوا سائر بني مروان فدخل المنذر ثم عبد الجبار ثم سليمان فجلسوا عن يسار الخليفة . ثم دخل الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالا . وأخيراً دخل الفقهاء فاندس ابن عبد البر وسعيد في جملتهم وجلسوا في أماكنهم المعدة لهم

ودخل الشعراء فاقاموا في مصافهم . واصطف الحجاب من أهل الجندية من أبناء الوزراء والموالي والوكلاء وغيرهم وقوفاً في أطراف البهو وراء جدار قصير يفصل البهو عن شبه الرواق حوله . فكان من ذلك منظر يتهيب له الشجاع وقد زاده هيبة سكوت الناس حتى الخليفة وأولاده

وجاء ياسر بعد قليل فوقف بحيث يراه الخليفة اذا وقف منتظراً عنده أمراً يريد عرضه عليه فاستقدمه فأخبره « ان الرسل في البهو ... حتى يأمر بادخالهم » فقال « ادخلهم »

---

(١) المقري ج ٢

فعاد وقد علم الحضور أن الرسل قادمون فاتجهت الابصار نحوالباب واذا بياسر عاد ثم تنحى فتقدم الرسل خاشعين وهم بضعة رجال عليهم رئيس منهم وقد لبسوا لباس كبار الروم فتقدم الرئيس وكان عليه القلنسوة والبرنس فخلعهما قبل دخوله فتناولهما بعض الخدم . وفعل مثل ذلك رفاقه من الرسل

فمشوا أولا بين صفين من الجند في البهو الخارجي حتى انتهوا الى البهو الداخلي فحالما وقع بصرهم على سرير الخليفة خروا سجداً سويعة ثم نهضوا ومشوا بضع خطوات وعادوا الى السجود . فعلوا ذلك مراراً الا رجلا منهم كان في آخرهم يحمل جبة من الديباج على كتفيه باحترام فاكتفى باحناء رأسه ولما دنوا من سرير الخليفة تنحى الوفد الا رئيسه تقدم وهوى على يد الخليفة يقبلها فامتنع الناصر من ذلك وأشار اليه أن يجلس هو ورفاقه على وسائد من الديباج مصوغة بالذهب أعدت لهم على نحو عشرة أذرع من السرير(١) فجلسوا الا حامل الجبة

الفصل الرابع عشر

الهدية

وبعد هنيهة أذن لهم الخليفة بالكلام وكان يخاطبهم على يد التراجمة فنهض رئيس الوفد وتقدم الى السرير باحترام وقدم للخليفة تلك الجبة بعد أن تناولها من حاملها . فأشار الخليفة الى من يفتحها ففتحها أحد الخصيان فوجد داخلها درجاً من الفضة عليه غطاء من الذهب قد نقشت فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع . ففتح الدرج فوجد فيه كتاباً من ورق مصبوغ لوناً سماوياً مكتوباً بالذهب بالخط الاغريقي (اليوناني) هو كتاب صاحب القسطنطينية قسطنطين بن ليون اليه . وداخل هذا الكتاب مدرجة (رساله) مصبوغة أيضاً ومكتوبة بالفضة بالحرف اليوناني(٢)

---

(١) المقري ج ١ (٢) المقري ج ١

فتناول الخليفة الكتابين وأخذ يقلب فيهما فوجد على الكتاب الاول طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل على الوجه الواحد منه صورة المسيح وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده . وأما المدرجة ففيها وصف هدية قسطنطين للخليفة الناصر التي كان أرسلها مع الوفد وعددها (١)

وكانت أنظار الجلوس متجهة الى مايتضمنه ذلك الكتاب فاشار الخليفة إلى من يترجمه فقرأوا العنوان على ظاهره ماترجمته « قسطنطين ورومانين المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم » في سطر ثم « العظيم الاستحقاق والفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالاندلس أطال الله بقاءه » فى سطر آخر . فأمر الخليفة من يتولى الاحتفاظ بالكتاب ويستلم الهدية فاستوقف انتباهه منها اسم كتاب فرح به أكثر من سائر الهدية . وهو كتاب الحشائش تأليف دبسقوريدس العالم النباتي المشهور . فأمر الخليفة باحضار الكتاب لتقليبه والنظر فيه فاتوه به . فاذا هو مكتوب بالخط الاغريقى وقد صورت فيه الحشائش كلها بالتصوير الرومي العجيب . وجاء مع هذا الكتاب ايضاً كتاب هروشيوس صاحب القصص وهو تاريخ للروم فيه أخبار الدهور وقصص الملوك باللغة اللاتينية وكان فى جملة ما كتبه اليه [٢] « ان كتاب ديسقوريدس لاتجتنى فائدته الا برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني ويعرف أشخاص تلك الادوية فان كان في بلدك من يحسن ذلك فزت أيها الملك بفائدة الكتاب وأما كتاب هروشيوس فعندك في بلدك من اللطينيين من يقرأه باللسان اللطيني . وان كشفتهم عنه نقلوه لك من اللطيني الى اللسان العربي »

فلما اطلع الناصر على ذلك الكتاب انبسطت نفسه وسر سروراً كثيرا بتلك الهدية واعتز بسلطته وجلالة قدره . وكان سعيد فى اثناء اشتغال الخليفة بمشاهدة الهدية يحادث جاره الفقيه . ولما كاد الخليفة يفرغ

(١) المقري ج ٢ (٢) طبقات الاطباء ج ١

من مشاهدة الهدية آنس سعيد اضطراباً على وجه الفقيه فعلم انه يتهيب من الوقوف للخطابة وهم بسؤاله فسبقه الفقيه الى السؤال قائلا « ها نحن في المجلس ولا يلبث الخليفة ان يدعوني للخطابة فما رأيك هل انجح ؟ استطلع لي الطالع » فاستخرج سعيد الكتاب من جيبه خلسة وفتحه وأخذ يقلب فيه وينظر الى الحضور حوله ويعيد النظر في الكتاب وابن عبد البر ينتظر ما يقوله . ولما طال سكوته شغل باله وارتبك في امره مخافة أن يسمع ما يحزنه . وهو في ذلك الاضطراب سمع صوتاً يناديه من صدر البهو عرف أنه صوت الحكم ولي العهد يقول « يسمعنا الفقيه محمد بن عبد البر الكسيباني كلمة في وصف هذا المجلس الحافل »

وكان الخليفة هو الذي طلب الى ولي العهد أن يختار من يرى من الفقهاء أهلا للخطابة قبل ان يتقدم الشعراء للنشيد فاختار ابن عبد البر لانه كان صنيعته وكان يدعي القدرة على تأليف الكلام ماليس في وسع غيره — فلما سمع ابن عبد البر ذلك النداء اجفل وزاد ارتباكه وذهب الخطاب من خاطره لسكنه وقف وقد امتقع لونه واخذت لحيته ترقص في وجهه وشفتاه ترتجفان وزادته أبهة المقام وجلا فارتج عليه ولم يهتد الى كلمة يقولها . فغلبه الخجل والقنوط فأغمى عليه وسقط الى الارض فاشتغل سعيد بايقاظه والاهتمام بأمره حتى أفاق فأجلسه وأخذ يخفف عنه

ونهض في أثناء ذلك اسماعيل القالي صاحب الامالي وكان حاضراً فخطب وخطب أيضاً منذر بن سعيد أحد الفقهاء فأجاد كثيراً وآل ذلك الى توليه القضاء بعد حين . ثم أنشد الشعراء قصائدهم الى أن انقض الاحتفال وتفرق الناس ومضى كل منهم الى سبيله

الفصل الخامس عشر

تغيير

أما سعيد فشارك رفيقه الفقيه في أسفه الى أن قال له « والله اني كنت خائفاً هذا الفشل من قبل ولذلك رأيتني ارتبكت في الجواب لما سألتني عن الطالع »

فقال « لا أدري ما الذي أنساني الخطاب كأني لم أخط منه حرفاً ولعل ذلك من سوء الطالع ـ أظن وجود القالي أفسد على طالعي »

قال « لا بل هو منذر بن سعيد . . يالله انما الدنيا حظوظ وطوالع . أيرتج على الفقيه ابن عبد البر ويفلح المنذر بن سعيد ! . . » قال ذلك بنغمة الاسف وهز رأسه وعمد أن يتمم غرضه فأظهر أسفه الشديد على ما اتفق لابن عبدالبر وقال «والامر الذي ساءني على الخصوص .» وسكت

فا تدره الفقيه قائلا « لابد أن يكون ساءك ارتباكي مع اعتقادك الاكيد أني قادر على الكلام وقد سمعت خطابي وأعجبت به »

فقطع سعيد كلامه قائلا « ان ارتباكك ساءني طبعاً ولكن هناك أمراً آخر كدرني . . دعنا من ذلك الآن »

فازداد الرجل رغبة في الاستطلاع فقال « وما ذلك ؟ . . قل .

قال « ساءني أني سمعت ولي العهد . . . ولكن أخاف أن أكون مخطئاً . . »

فقال « لا لا . . قل ما سمعته . . »

قال « أظني سمعته يقول لما رآك وقفت منشياً عليك ووقف . . . بن سعيد وخطب ما خطبه ـ سمعت ولي العهد يقول « [illegible] لي بها ولبس الكسيباني . فلا ادري ماذا يعني »

فقال الفقيه « ألا تدري وأنت تستطلع الغيب ؟ . . أظن [illegible] تكديري . . . قل ولا تخف »

قال « اظنه يعني منصة القضاء »

قال « قد أصبت وسينال هذا المنصب المنذر بورك له فيه . . »

فقال سعيد وهو يضحك قائلا « لك أسوة بالامير عبد الله العالم الزاهد. ألم تكن الخلافة أولى به . . »

فأحس ابن عبد البر من تلك الساعة بنقمة على الحكم رغم ما كان غارقاً فيه من نعمه . فان فشله وفوز زميله منذر بن سعيد هاج حسده وأعماه عن الحقيقة وزاده اغتراراً بنفسه فنسب سقوطه الى تصادم الطوالع وكان لقول سعيد تأثير كبير على اعتقاده فتوهم أنه مظلوم وان الحكم هو السبب في ظلمه فأحس بالنقمة ضده ولم يكن سعيد غافلا عما جال فى خاطر الفقيه وهو الذي أثار كامن حقده وهاج عاطفة الحسد فيه من منذر والنقمة على الحكم . فلما لمح الى أفضلية عبد الله في نيل الخلافة على أخيه الحكم نظر الى الفقيه فرأى في ملامحه قبولا للاقتناع ولكن الخوف يمنعه من التصريح فابتدره قائلا بصوت ضعيف لئلا يسمعه أحد سواه « لعلى تطوحت فى قولى الى أبعد مما يجوز لى . . . ولكنني قلت ذلك مدفوعاً بالانتصار للحق . . . وأنا وراق أبيع الكتب وأعرف مايقتنيه ولى العهد منها لكن مالى وله » قال ذلك وأظهر أنه يريد الافتراق عنه

فتوسم ابن عبد البر من ذلك التلميح شيئاً يهمه الاطلاع عليه فعمد الى استخراج ذلك السر من سعيد ويزعم أنه يفعل ذلك بمهارة ودهاء فقال « مهما يكن من اطلاعك على ذلك فاني اعلم منك به وأنا كما تعلم قد عاشرت الحكم طويلا »

قال « مهما عاشرته فانك لاتعرف عنه ما أعرفه انا فانه يستحي ان يعرف الناس وخصوصاً الفقهاء انه يطالع الفلسفة فتقل ثقتهم بدينه »

فبغت الفقيه وقال « يطالع كتب الفلاسفة ؟ . نعوذ بالله من خليفة فيلسوف . أن الخلفاء يقاومون الفلاسفة ويضطهدونهم خوفاً على عقائد الناس فكيف يكون الخليفة نفسه من أهلها »

فتجاهل سعيد عن مقدار ما اثره من ذلك الخبر في الفقيه وأظهر انه

قد آن له ان يفارقه . وكان الفقيه أكثر رغبة في الافتراق لخاطر خطر له يريد ان يسعى فيه

وكانا قد خرجا من القصر حتى أتيا باب السطح حيث تركا البغلتين فقال الفقيه « سنفترق الآن . . . لا تزعل ياصاحبي ان الزمان يدور وسوف يعلم الحكم وأبوه . . . » وسكت وتظاهر سعيد بالتجاهل وقال « متى آتي بكتاب العقد الفريد الى الامير عبد الله ؟ »

قال « بعد يومين هل تعرف منزله ؟ »

قال « أين هو ؟ »

قال « في قصر مروان خارج قرطبة بالارباض »

قال « أعرفه . . استودعك الله . . لاتزعل يافقيه . . »

قال « سنتكلم بعدئذ . . . لاتنس أن تجاب عابدة معك لانى كلمت الامير بشأنها وهو يحب أن يراها »

قال « سمعاً وطاعة » وركب بغلته وذهب يطلب منزله

الفصل السادس عشر

الفقيه في طريقه

فارق الفقيه ابن عبد البر سعيداً وهو يتمنى لو طال الحديث بينهما في مسألة الامير عبد الله لانه رأى في الطعن على الحكم وأبيه شفاء لما تولاه من الخجل في تلك الحملة . وهو من تربيته الدينية ميال الى التعصب للتقاليد القديمة ورفض كل جديد فرأى في انتقاد الناصر لاقتنائه الخصيان والتوسع في البذخ والترف باباً للنقمة عليه . ولكنه كان غضباً على الحكم مما سمع ماقال سعيد من حبه الفلسفة حمل لنفسه العذر فيه ولم يشأ ان يثبت الخبر مخافة أن يكون كاذباً فضعف انتقاده على الطاعن وهو يبحث عما يقويه

قضى معظم الطريق [illegible] في أثناء هذه الهواجس [illegible]

للبغلة كيف تسير ولا الى رأسها أين يتجه . ولولا الخادم الذي كان يديرها أو يزجرها أو ينبه المارة لمسيرها لعثرت أو تاهت . وخصوصاً على الجسر لانه كان غاصاً بالراجعين بعد انقضاء الاحتفال. ولما قطع الجسر قل الازدحام وما زال راكباً حتى اقترب من قصر مروان وهو منزل الامير عبد الله ولم ينتبه الا وهو بالقرب منه فاستوقف الدابة وأشار الى السائس أن يحول زمامها نحو منزله لعلمه أن عبد الله لم يعد الى قصره بعد لاشتغاله بالحديث مع أبيه أو أخيه وهو مع ذلك يخجل أن يقابله

ساق البغلة الى بيته وهو على مقربة من قصر مروان فترجل ودخل غرفة نزع فيها فراجيته واتكأ للاستراحة فجاء الطاهي يدعوه الى المائدة فتذكر انه جائع فنهض فأكل وعاد الى مجلسه وأوعز الى الخادم أن لا يدخل عليه أحداً التماساً للراحة وهو بالحقيقة يطلب الانفراد خجلا من الناس بسبب فشله في الخطاب حتى تصور الناس كلهم عيوناً تتغامز عليه أوتهزأ به لتلجلجه أو تلعثم لسانه . وأصبح اذا رأى الخصي ابطأ بتنفيذ امره توهم انه يفعل ذلك احتقاراً له بسبب ذلك الفشل ـ وما ذلك الا من ضعف النفس او الجبن . ولو كان قوى النفس لم يبال بفشل قد يصيب كل انسان ولكان له من تظاهره بمواهبه الاخرى ما يذهب بدهشة ذلك الفشل . اما هو فاته اعظم ذلك عند نفسه ولو اطلع الآخرون على مافي ضميره لاستصغروه

تناول الطعام وهو منقبض النفس فعسر هضمه فزاد ذلك تابكا في افكاره وتعظيما لمصيبته . فلما خلا بنفسه اخذ يفكر في ما يشفي غليله ويبرره بين يدى الامير عبد الله وهو ما انفك منذ انضم اليه يفتخر بفصاحته وقوة عارضته فكيف يظهر منه هذا الضعف ؟ فلم يجد خيراً من ان يجعل السبب ارتباكاً طرأ عليه لشيء شاهده في تلك الجلسة ويشرك عبد الله معه في المصيبة ويجره الى مشاركته في الانتقام ولما خطر له هذا الفكر انبسطت نفسه . وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب فنهض ولبس ثيابه وصفق فجاءه الخصي . فأمره ان يسرج البغلة فأسرجها فركب وسار

يطلب قصر مروان منزل الامير عبد الله

كان هذا الامير شابا في مقتبل العمر قد تثقف كما تثقف سائر اولاد الناصر وشب على حب العلم والادب مع تقوى وتدين اصم . لم يكن حر الفكر مثل اخيه الحكم ولذلك فانه لم يكن يستدني غير الفقهاء المتعصبين الذين ينكرون النظر في غير علوم الدين ولم يكن يقتني غير كتب الادب والدين . ولو فتشت مكتبته كلها ما وجدت فيها ورقة في الفلسفة او المنطق او الطب او غيرهما من كتب الطبيعيات . واما اخوه الحكم فربما وجدت كتباً في هذه المواضيع لكنه لم يكن يظهرها محاراة للعامة في اميالهم

وكان الامير عبد الله صادق الطوية بغير دهاء او تعقل . ونظراً لتقواه وتدينه فكل من يأتيه من جهة الدين يغلبه او يتسلط على افكاره . ولذلك كان يحترم الفقهاء ويقربهم وخصوصاً ابن عبد البر لما سبق الى ذهنه من سعة علمه ومقدرته على حل المشاكل — ليس لدليل محسوس وانما اعتمد بناء على دعوى الفقيه لنفسه

الفصل السابع عشر

الامير عبد الله

ولم يكن قصر مروان بعيداً عن منزل ابن عبد البر وكان يمكنه أن يأتيه ماشياً ولكنه أحب المحافظة على مظاهر الابهة بركوب البغال لئلا يقول قائل ان فشله في ذلك اليوم حط من قدره او اذله . ولولا ذلك الفشل لذهب الى منزل الامير ماشياً ولم يبال لوثوقه باحترام الناس له . وأما فشله اليوم فقد صغر نفسه فاصبح يخاف العار من اقل الامور

وصل ابن عبد البر الى باب حديقة القصر وحالما رآه البواب نهض وفتح له الباب فدخل على بغلته الى الحديقة والسائس يمشي في أثره . حتى اذا اقترب من باب القصر تقدم الحاجب — وهو خصي جميل الصورة من خصيان الزهراء جارية الناصر اهدته الى الامير عبد الله فأعجب

به وجعله كالحاجب او المباشر . وقربه لما آنسه من لطفه وخفة روحه : واسمه (ساهر) فلما رأى ابن عبد البر مقبلا أسرع اليه وساعده في الترجل عن بغلته وهو يرحب به . فسأله عن الامير عبد الله

فقال « هو في مكتبه يطالع »

فطلب منه ان ينبئه بقدومه فقال « ليس على الفقيه حجاب »

فاستأنس ابن عبد البر ومشى في اثره حتى دخل القاعة وهي مفروشة بالطنافس والمساند فجلس وخرج ساهر ليعلم مولاه بقدوم الفقيه . ومكث هذا والهواجس تتقاذفه في ما سيراه في وجه الامير من التغير . ولم تمض لحظة حتى أقبل الامير عبد الله وبيده كتاب يظهر من نظافة أطرافه انه كتب من عهد قريب فوقف الفقيه وتأدب في السلام . فلم يجد في وجه الامير تغيراً وانبسطت نفسه وأقبل يتخير عبارات اللطف يغطي بها فشله وعبد الله يسايره حتى جلس الى جانبه والكتاب لا يزال في يده

فقال ابن عبد البر « أرى في يد الامير كتاباً جديداً »

قال « نعم هو كتاب جديد ومؤلفه حي يرزق »

فنظر الفقيه في ظاهر الكتاب وقال « لا اذكر اني رأيت هذا الكتاب بين كتب مولاي قبل الآن »

قال « لانه أتاني في هذه الساعة »

قال « في هذه الساعة من أين ؟ »

قال « بعث به الي أخي الحكم ولي العهد . وكان قد خاطبني بشأنه ونحن في البهو اليوم »

فلما سمع اسم الحكم والبهو تذكر أشياء كثيرة وكاد يظهر التأثر في وجهه لكنه تجلد وقال « يقول مولاي ان مؤلفه حي »

قال « نعم وهو الآن في قرطبة وقد شاهدته في هذا الصباح وسمعت خطابه »

فانتبه الفقيه وقال « اظنه كتاب الامالي لاسماعيل بن القاسم القالي

فقد علمت انه الف هذا الكتاب لمولانا ولي العهد وطاف البلاد في البحث والتنقيب من اجله . . كتاب نفيس »

قال « نعم هو بعينه وقد قدمه لاخي فذكره لي في صباح هذا اليوم وارسله الي لاطالعه واذا اعجبني كلفت احد الوارقين بنسخه »

فاطرق الفقيه حيناً وهو يتأمل ثم قال « ولماذا لم يقدمه القالي للامير عبد الله ؟ وهو يعرف قدر العلم »

فضحك عبد الله وقال « لا أدرى . . . وهل تزعم أن أخى لايعرف قدر العلم ؟ »

فاجاب وهو يهز كتفيه « هو يعرف كل شيء طبعاً ولولا ذلك لم يجعله أبوه ولي العهد » وظهر من ملامح وجهه انه يضمر شيئاً آخر

فقال عبد الله بسذاجة وصدق نية « ربما كان هذا من أسباب ولاية العهد . ولكن الولاية آلت اليه لانه اكبر اخوته »

فقال الفقيه « ليس الكبر شرطاً من شروط الولاية فان الخليفة يجب أن يقتنع في من يوليه بعده أن يكون أهلا للحكومة وتكون شروط الخلافة متوفرة فيه . . . ولذلك رأينا كثيرين من الخلفاء عدلوا عن اكبر أولادهم الى من هم دونهم في السن أو بايعوا غير ابنائهم رغبة في مصلحة المسلمين »

الفصل الثامن عشر

الوشاية

توسم عبد الله في ذلك الكلام خروجاً عن المألوف سماعه من هذا الفقيه . ولكنه كان حسن الظن فيه فقال « لم يعدل الخلفاء عن أكبر أولادهم الى من دونهم إلا لأسباب تخالف شروط الخلافة ؟ »

قال « هل يتذكر مولاي الامير شروط الخلافة ؟ »

قال « [illegible] »

قال « هل وجدت بينها أن يكون الخليفة اكبر اخوته ؟ »

قال « كلا . . . ولا أن يكون ابن الخليفة السابق . فاذا عملنا بذلك وجب اختيار ولي العهد من جمهور المسلمين . وانما هي قواعد اصطلح عليها الخلفاء بعد جعل الاسلام ملكا عضوداً »

قال الفقيه « مالنا وهذا دعنا منه وقل لى اذا شئت ماهى أهم شروط الخلافة وأولها »

قال « أولها حفظ الدين على اصوله المستقرة وما اجمع عليه سلف الأمة فان ظهر مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة وبين له الصواب وأخذه بما يلزم من الحقوق [1] »

قال الفقيه « يكفى هذا الشرط . . . فهل هو متوفر في مولانا ولى العهد ؟ »

فاستغرب عبد الله سؤاله وقال « كيف لا . . . دعنا من هذا البحث الآن »

قال « دعنا منه اذا شئت ولك الامر ياسيدي . ولكنني لم يعد يمكنني كتمان مافي نفسى من الغيظ . . بعد أن كتمته اعواماً . . »

فتفرس عبد الله في وجهه فرأى الجد فيه فقال « وما ذاك ؟ »

قال « أقول مافي نفسى ؟ »

قال « قل . . لابأس عليك »

قال « مابرحت منذ اسندت ولاية العهد الى مولانا الحكم وأنا أقول في سري لماذا لاتكون لسيدي الامير عبد الله لعلمى ان شروط الخلافة أوفر فيك مما فيه . . ينبغى لسيدي أن يعتقد صدق نيتى في خدمة المسلمين . ولا يخفى عليك اني صنيعة مولاي الحكم وانا أعرف الناس به . وقد خدمت مولاي الامير ايضاً واطلعت على الحقيقة في الاميرين . . . فكنت كلما خطر لى هذا الخاطر أشعر بانقباض وأنا اكتم ذلك عن مولاي . واما الآن فلا أجد بداً من التصريح بعد ان كدت

---

(١) الاحكام السلطانيه

افتضح او افتضحت في ذلك الموقف بالامس . . فلم استطع كلمة اقولها ولا اظن الامير ينسب ذلك الى جهلي فما هذه اول مرة وقفت فيها خطيبا كما تعلم . ولكنني اعترف لك انى لما شاهدت مجلس امير المؤمنين وابنائه الى جانبيه ورأيت تميز الحكم بالولاية والشارة والمجلس مع علمى بفضل الامير عبد الله وما ترجوه الامة على يده لم اتمالك عن الغضب وانقبضت نفسي وشغل خاطري حتى اضعت رشدي . فلما طلب الى الكلام لم استطعه كما رأيت » قال ذلك وقد بدا الاهتمام في محياه وعينيه وتندى جبينه بالعرق

فلما سمع عبد الله كلامه اعتقد اخلاصه لكنه لم يقتنع بانتقاده فقال « اراك تقول ما تقوله من غضبك لنفسك فلا ينبغي لك ان تجعل ذلك ذريعة للطعن على ولى العهد . ولولا اعتقادى صدق طويتك لم اصبر على سماع كلامك — ان الحكم اجدر مني بهذا المنصب من كل وجه انه اكبر مني سناً واوسع واكثر دراية »

فخاف الفقيه عاقبة تصريحه وكاد يغلب على امره بين يدى عبد الله فعمد الى التخلص فقال « قد اسأت فهم مرادي ياسيدي فما انا طاعن على ولى العهد ولكنني اقول ما اعرفه . ومع ذلك فانت صاحب الرأي وكنت أحسبك تعتبر صدق نيتى في خدمة المسلمين . . انت اعلم مني بما صارت اليه الخلافة من الانغماس بالترف والانحراف عن خطة الخلفاء الراشدين . ألم تر مايأتيه امير المؤمنين من تقديم الخصيان دون سواهم حتى كادت السلطة تؤول الى غير أهلها — لا أخاف ان يقع ذلك في زمن الناصر لتقاه وتقواه ولكنني أخاف منه في أيام الحكم وهو لا يبالي . . »

فقطع عبد الله كلامه وقال « دع هذا الحديث يا الفقيه وحدثنا عما يفيد — اني أراك قد تطاولت في طعنك الى والدنا الناصر صاحب هذه الدولة وهو الذي اتانا [illegible] وكبت [illegible] الاعداء [illegible] »

[illegible]

[illegible]

فصاح عبد الله « كتب الفلسفة . ؟ تعني ان أخي يقرأ هـذه الـكتب . . ؟ معاذ الله . . واذا فرض انه يقرأها فما علينا الا النصيحة له ان يتركها »

فابتسم ابتسامة اغتصابية وقال « ننصحه . . هل تظنه يقبل النصح ؟ فلنتركه عساه يهتدى »

وشعر الفقيه أنه فشـل بوشايته ولم يجد في نفسه قوة على الاقناع . وكانت الشمس قد توارت وراء الافق وأقبل الظلام . ولم يشعر الفقيه بذلك الا لما رأى احد الخدم دخل وبيده مسرجة أضاء مسراجها ووضعها على دكة في بعض جوانب القاعة . فتذكر الفقيه سعيداً الوراق وما سمع من تعريضـه بالامر الذى باحث الامير عبد الله به فأجل الخوض في الموضوع ريثما يأتي وكان على موعد من مجيئه في تلك الساعة

الفصل التاسع عشر

سعيد وعبد الله

وهما في ذلك جاء الحاجب يقول « ان سعيداً الوراق بالبـاب ياسيدى! »

فالتفت عبد الله الى الفقيه كأنه يستفهمه عن سبب مجيئه فقال الفقيه « أظنه قادما بالـكتاب الذى أخبرت مولانا عنه »

فقطع عبد الله كلامه قائلا « العقد الفريد . مرحبـاً بكل قادم علينا بمثل هذه التحف »

فخرج الحاجب ثم عاد ورفع الستاره عن الباب حتى دخل سعيد وقد أبرقت عيناه وبجلت الهيبة في حياه محيا ووقف فدعاه عبد الله الى الجلوس فجلس على وسادة وهو لا يحمل شيئاً

فقال عبد الله « انت سعيد الوراق . . أظنني رأيتك قبل الآن . . . مرحبا بك ومتى أين العقد الفريد »

قال « هو خارجاً يا سيدي . هل أدخل به عليك »

قال « كيف لا »

فنهض وعاد والكتاب في يده ملفوفاً بملاءة من الحرير فوضعه على وسادة بين يدي الامير عبد الله فأخذ يقلب فيه ويتأمل نظافة خطه وحسن تبويبه وضبط كتابته وسعيد صامت

ثم قال عبد الله « انه خط جميل . . »

فقال الفقيه « ألم أقل لمولاى انه خط فتاة »

فالتفت عبدالله الى سعيد كأنه يستشهده فقال « نعم ياسيدى وقدرآها الفقيه بعينه وسمع كلامها »

فقطع الفقيه كلامه وقال « ألم أقل لك أن تأتي بها معك الليلة ليراها مولانا الامير . اين هي »

قال « قد اتيت بها وهي في دار الجواري »

قال عبدالله « سنستقدمها بعد قليل ..هل جاءك كتب جديدة غير هذا »

قال « سمعت بكتاب لا يزال صاحبه يعمل في تأليفه وهو أحسن كتب الادب على الاجمال لانه يغني عنها جميعاً »

فتطاول عبد الله عند ذلك وقال « اظنك تعني كتاب الامالى للقالى » وتناوله من جانبه وقدمه اليه ليراه

فأخذه سعيد وفتح أول صفحة منه فوجد عليها علامة الحكم فقال « هذا لمولاي ولى العهد . . وقد علمت ان الامام أبا على اسماعيل القالى ألفه . . [illegible] ان مولانا الحكم يبذل الاموال في اقتناء الكتب ويرغب اهلها في التأليف »

فأحمر عبد الله [illegible] الاطراق وقال « هل هذا هو الكتاب الذي [illegible] ؟ »

قال « كلا [illegible] »

قال « وأي كتاب [illegible] »

فتظاهر سعيد بالتردد وقال كتاب آخر أهم من هذا وربمـا زاد على خمسة اضعافه . . »

قال « وما اسمه او ما اسم مؤلفه ؟ »

فنظر سعيد إلى الفقيه كأنه يوسطه في استعفاء الامير من ذكر اسم الكتاب . ولم يكن الفقيه عالماً بشيء من ذلك فظهر الاستغراب فيـه . فمل عبد الله الانتظار فقـال « ما بالك ياصاحب ؟ ألعلك ندمت على كلامك ؟ »

فاظهر التلطف والاستعطاف وقال « نعم ندمت وكان ينبغي لى ان احفظ ما اؤتمنت عليه سراً ولكن لساني سبقني »

فازداد عبد الله رغبة في معرفة ذلك السروقد بان التغير فيعينيهفسبقه الفقيه الى الكلام قائلا « تحفظ ذلك سراً عن مولانا الامير . . وممن تخاف افشاءه ؟ »

قال « اخاف ممن لايفضله في الحكم غير أمير المؤمنين »

ففهم عبد الله انه يعني أخاه ولى العهدفقال« اذا كان الامر يتعلق باخينا الحكم ماعليك اذا قلته من باب العلم بالشيء ؟ »

قال « يسمح لى مولاى الامير ان اقول كلمة »

قال « تفضل قل »

قال « ان الكتاب من كتب الادب ويليق بالامير عبد الله اكثر مما يليق باخيه ولى العهد لعلمي بأميال كل منهما الى اي صنف من الكتب . . »

فاستبشر الفقيه انه سيذكر ميله الى كتب الفلسفة فلما رآه سكت اتم كلامه فقال من عند نفسه « اظنك تعني ان الحكم يميل الى اقتناء كتب الفلسفة »

فعض سعيد على شفته السفلى واظهر أنه استاء من تصريح الفقيه وتصدى للدفاع عن الحكم فقال « من قال لك ذلك ؟ ربما اشتهى ولي العهد بعض كتب الفلسفة لكنه ارغب في كتب الادب والشعر واللغة . أليس هو الذي حمل القالي على جمع هذا الكتاب وهو من كتب اللغة . .

وهذه مكتبته وفيها الوف من هذه الكتب . . . دعنا من هذا الآن »

فقال الامير عبد الله « لم أعد اصبر على كتمان اسم ذلك الكتاب واسم مؤلفه بعد ماتقدم . . قل من هو ؟ » قال ذلك بلحن الامر فاظهر سعيد انه يقول ذلك اذعاناً لامره وقال « ان الكتاب ياسيدي في الغناء واسمه الاغانى »

فقطع الامير كلامه قائلا « الاغانى للموصلى ؟ »

قال « كلا ياسيدى ان مؤلفه ابوالفرج الاصبهانى الاديب المشهور وهو من بني امية .. إن الكتاب لم يخرج للناس بعد ولكنني سمعت عنه شيئاً كثيراً واطلعت على بعض اوراقه في بغداد . . ولكن لا فائدة لنا من القول فقد علمت ان مولانا ولى العهد بعث من يشترى الكتاب من مؤلفه واوصاه ان يبذل له ماشاء من الدنانير . . »

فالتفت الفقيه الي سعيد وقال « فاذا اراد مولانا الامير عبد الله اقتناءه من يمنعه ؟ »

قال « لا اعلم ولكنى اعلم ان ولي العهد بعث من يشتريه ثم انا عرفت ذلك سراً وانما بحت به هنا مصادفة واذعاناً للامير »

فتنحنح عبد الله ليشغل نفسه عما جال في خاطره من الغيرة على تقدم أخيه عليه حتى في الامور الادبية كاقتناء الكتب ونحوها وأخذ يقلب صفحات العقد الفريد بين يديه

فابتدره سعيد وهو يظهر أنه يستحاب استغرابه فقال « هل رأيت أجمل من هذا الخط ياسيدي » واستأذنه في تناول الكتاب ففتح الفصل الاول منه وهو يبحث في ما يصحب السلطان فوضع يده على فقرة من ذلك الفصل وقال « أظن مولاي أحب هذه القاعدة من الخط انه خط أبي علي بن مقلة الكاتب الشهير في بغداد وقد توفي من بضع سنين ٣٢٨ هـ »

فصاح عبد الله « أين هذا ؟ هذا خطه بيده ؟ »

قال « كلا يا مولاي ولكن الجارية التي نسختها من مولدات بغداد

وقد أخذت الخط عن ابن مقلة نفسه . . »

فجعل عبد الله يتفرس في الخط وسعيد يوجه نظره الى فقرة أخرى من ذلك الفصل وفيها حكاية قدوم عمر بن الخطاب الى الشام . وأخذ يظهر أنه يقرأ هذه القطعة اعجاباً بخطها فقرأ منها « إن عمر بن الخطاب لما قدم الشام . قدم على حمار ومعه عبد الرحمن بن عوف على حمار فتلقاهما معاوية في موكب ثقيل فجاوز عمر حتى اخبر فرجع اليه . فلما قرب منه نزل اليه فاعرض عنه فجعل يمشي الى جانبه راجلا فقال له عبد الرحمن بن عوف أتعبت الرجل . فأقبل عليه عمر فقال يامعاوية أنت صاحب الموكب آنفاً مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين . قال ولم ذاك . قال لانا في بلد لا نمتنع فيه من جواسيس العدو ولا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان فان أمرتني بذلك أقمت عليه وان نهيتني عنه انتهيت . فقال لئن كان الذي تقول حقا فانه رأى أريب وإن كان باطلا فانها خدعة أديب »[١]

ثم قرأ بعده ببضعة عشر سطراً حكاية قدوم أبي موسى الاشعرى على عمر بن الخطاب وفيها من المبالغة بالزهد والرغبة عن الملذات ما فيها فقرأ منها قول عمر « يا ربيع إنا لو نشاء لملأنا هذه الرحاب من صلائق وسبائك وصناب ولكني رأيت الله تعالى نعى على قوم شهواتهم فقال أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها . ثم أمر أبا موسى أن يقرني وأن تستبدل بأصحابي »

وكان سعيد يقرأ ذلك ويوقع النبرات في أماكنها بحيث يتضح المعنى المراد . وكان عبد الله يسمع ويعتبر لقرب عهده بكلام الفقيه عن بذخ بيه ولحظ الفقيه ذلك فقال « لله در ابن الخطاب وسائر الخلفاء الراشدين فقد كان أحدهم يلبس الثوب من الكرباس الغليظ وفي رجله نعلان من ليف وحمائل سيفه ليف ويمشي في الاسواق كبعض الرعية واذا كلم ادنى الرعية أسمعه أغلظ من كلامه وكانوا يعدون هذا من الدين الذي بعث

---

(١) العقد الفريد ج ١

به النبي صلوات الله عليه وسلامه[1] أين هم وأين الخلفاء بعدهم ؟ »

فقال سعيد « لقد صدق الفقيه إن الجديرين بالخلافة قليلون وقد تغير الناس وتقلبت أحوالهم بعد الراشدين فانغمسوا في الابهة والترف ولم يفعل ذلك أحد منهم إلا دل على قرب ذهاب دولته كما أصاب العباسيين في بغداد لاواخر دولتهم وأخاف أن يتطرق ذلك الى هذه الدولة . والحق يقال لا أرى بين أبناء أمير المؤمنين أقرب بأخلاقه وتدينه من الراشدين غير مولانا الامير عبد الله فهو التقي الزاهد[2] . . . لا أقول ذلك للفتنة وقانا الله منها فان الامر قد استتب الآن لمولانا الحكم ولكنني أقول مايخطر لي »

فنظر الفقيه الى عبد الله من طرف خفي وأشار بعينيه كأنه يستشهد بما قاله سعيد على صحة قوله

الفصل العشرون

عابدة

وخاف سعيد أن يقول الفقيه شيئاً يضجر منه عبد الله لانه كان لحدة ذهنه يكاد يستطلع ضمير مخاطبه فحول الحديث وقال « مالنا وهذا الآن . هل يأذن الامير بانصرافي ؟ »

فأظهر عبد الله الاستغراب وقال « انصرافك ، الى أين ؟ . أين هي الجارية التي ذكرتها ؟ هل هي جاريتك ؟ »

قال « هي جارية لي [illegible] لكنها جارية أ[illegible] وشاعرة [illegible] ولست [illegible] غير ذلك . فإنها [illegible] وحفظت الشعر وأتقنت [illegible] على الآلات . . [illegible] يأمر مولانا [illegible] ؟ »

[illegible]

[illegible]

(١) [illegible] (٢) [illegible]

لأنها هيأت نفسها لملاقاة ابن الخليفة الناصر حسب وصية سعيد أو استهوائه فلبست ثوباً لطيفاً وأصلحت شعرها ونظفت أسنانها فضلا عما في وجهها من الهيبة والذكاء

فلما وقع نظر عبد الله عليها شعر بميل اليها واستلطفها وأشار اليها أن تقعد فقعدت متأدبة وقد أطرقت حياء فابتدرها الامير قائلا « ماهو اسمك ياحسناء ؟ »

قالت « عابدة ياسيدي »

فاعجبته رخامة صوتها فقال « قد أنبأنا سعيد أنك تحفظين الشعر وأخبار العرب فاي الشعر تحفظين ؟ »

قالت « ماشئت ياسيدى . . من شعر الجاهليين أو الاسلاميين أو المحدثين كما تشاء »

قال « هل اطلعت على جمهرة أشعار العرب لابي زيد ؟ »

قالت « نعم وحفظت نوادره وديوان الحماسة للبحتري وطبقات الشعراء لابن قتيبة وقرأت أكثر دواوين المحدثين وكثيراً من كتب الادب وآخرها كتاب العقد الفريد هذا . . انه كتاب جميل »

قال « لقد زدته جمالا بخطك الانيق . . » قال ذلك وتناول كتاب الامالى بيده ولم يكد يفتحه حتى قالت « أليس هذا كتاب الامالى للقالى ؟ »

فاستغرب معرفتها إياه وهو يحسبه لم يتصل بسواه بعد أخيه الحكم فقال « وهل قرأته ؟ »

قالت « تصفحته على عجل وحفظت منه شيئا علق بذهني أتلو عليك منه اذا شئت ما يتعلق بأخبار أجدادكم بني امية في الشام »

فأبرقت أسرته أعجاباً وسرورا وقال « هات يحفظك الله »

قالت « هل أقص عليك حديث عبد الملك [illegible] حين خرج لقتال مصعب بن الزبير ؟ ان عبد الملك كان رجلا سديداً استخلص الخلافة لنفسه وطالما [illegible] كثيرون حاربهم واستقل بها — يعجبني منه

حماسته وعلو همته خروجه لمحاربة مصعب من الشام الى العراق وقد أرادت ام يزيد ابنه (امرأته) منعه عن المسير فقالت « يا أمير المؤمنين لو أقمت وبعثت اليه لكان الرأي » فقال لها « ما الى ذلك سبيل » فلم تزل تمشي معه وتكلمه حتى قرب من الباب فلما يئست منه رجعت فبكت وبكى حشمها معها . فلما علا الصوت رجع اليها عبد الملك فقال « وانت أيضاً ممن يبكي ؟ قاتل الله كثيراً كأنه يرى يومنا هذا حيث يقول :

اذا ما أراد الغزو لم تثن همه ... حصان عليها نظم در يزينها
نهته فلما لم تر النهى عاقه ... بكت فبكى مما شجاها قطينها

ثم عزم عليها بالسكوت وخرج[1] ان عبد الملك أيها الامير رجل طلاب معال ألم تره لم ينفك عن الخلافة حتى نالها فقال فيه كثير:

احاطت يداه بالخلافة بعدما ... اراد رجال آخرون اغتيالها »

وكان الامير عبد الله فى أثناء كلامها ينظر الى مايبدو في وجهها من ملامح الاعجاب بعلو همة عبد الملك وتقع كلماتها فى أذنيه وقوع النغم الشجى على قلب الصب المتيم وأحس بشيء استفزه للحماس فقال « لقد أحسنت ياعابدة وهل تحفظين لغير بني امية ؟ »

قالت يعجبني من الشعر يامولاي ما يستحث المروءة ويهيج الاريحية كقول زهير بن ابي سلمي في معلقته :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه ... يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يجعل المعروف في غير أهله ... يعد حمده ذما عليه ويندم
ومن لا يزل يستحمل الناس نفسه ... ولا يغنها يوما من الدهر يسأم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة ... وان خالها تخفى على الناس تعلم

فلما بلغت الى هذا صاح الفتى « لله در هذا الجاهلي ما ابلغ ان كلامه يحرك الهمم ؟ اراد استنهاض همة الامير حمد الله . اما عبد الله فاتخذه الضرب من حسن الدهاء عابدة وتجاهل امر الحماس . وكان شاب

[1] ... القارح

الامالي في يده فقلبه حتى اتى على ابيات اشار بأصبعه عليها وقال « ان احسن مما ذكرت قول على بن عباس هذا :

وحديثها السحر الحلال لو انه لم يجن قتل المسلم المتحرز
ان طال لم يملل وان هي اوجزت ود المحدث انها لم توجز
شرك العقول ونهزة ما مثلها للمطمئن وعقلة المستوفز

فالتفت سعيد الى عابدة وقال « قللي ياعابدة من الحماس »

فقال عبد الله « اظنك تخاف علي الخروج . والله لا مطمع لى بشيء من ذلك والفقيه يعلم رأيي »

فقال سعيد « اذا لم يكن هناك باعث فالخروج مظنة سوء »

فقالت عابدة « ويعجبنى قول عمر بن كلثوم من معلقته » :

اذا ما الملك سام الناس خسفا ابينا ان نقر الخسف فينا
الا لايجهلن احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فطرب الفقيه لهذا المعنى واستخفه السرور حتى ضحك وهو ينظر الى عبدالله . فقال عبدالله . وهويقلد انشادها « فنجهل فوقجهل الجاهلينا »

قال ذلك وقد بان الجد في عينيه فرأى سعيد الوقوف عند هذا الحد فقال « الا يأمر مولاى الامير ان تغني له شيئاً ؟ »

فقال « وهل تحسن الغناء وعلى من تعلمت ؟ »

قالت « تعلمت على مغني بغداد خلائف الموصلي وحفظت اغانيه »

قال « غن لنا ما تعرفينه »

قالت « هل اغني غناء ابراهيم بن المهدي الذى شغله الغناء عن طلب الخلافة فقضى عمره كأنه من العامة ؟ انه كان طروباً وله غناء حسن »

فقال الفقيه « غني يا عابدة انه غناء ابن خليفة يسمعه ابن خليفة ولكن شتان بينهما »

فاخذت تغني

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تدفعون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبي فقالها

الفصل الحادي والعشرون

الانصراف

فطرب عبد الله واخذت عابدة بمجامع قلبه واحس بميل نحوها غير ميل الناس الى الاماء لانه آنس فيها عزة وقوة وادباً ورقة فأحب أدبها وبلاغتها وذكاءها فامر بمائدة من الفاكهة والاطعمة والاشربة المنعشة لانه لم يكن يمس الخمر ولا النبيذ ولا يطيقها

فلما مدت المائدة وليس عليها شيء من الخمور نظر سعيد الى الفقيه كأنه يساره وقال « هذا اولى بها » واشار الى المائدة وخلوها من الخمور ففهم عبد الله انه يشير الى الخلافة . ولكنه حسب نفسه فهمها خلسة مع أنها مقصودة لكنه تجاهل واستعاد الفتاة صوتاً آخر فغنته وغنت غيره حتى طربوا فقال الامير عبد الله « الا تعرف عابدة الضرب على العود او غيره »

فالتفت سعيد اليها فمدت يدها الى جيبها فاستخرجت عيداناً واوتاراً واخذت تركبها وتشدها فصارت آله كالقانون واقبلت تضرب عليها ضرباً متقنا اسكر الامير بلا مدام فقال لسعيد « ما اسم هذه الآلة ؟ »

قال « هذه القانون ياسيدى »

قال « لا اذكر انى رأيتها من قبل »

قال « ان مخترعها لم يزل حياً وهو عالم كبير لكنه من رجال الفلسفة وقد تعمق بالحانها [illegible] فيه كتبا »

فقطع [illegible] الطاب تعنى الفارابى التركى الفا[illegible]ي الذى نشأ فى

[illegible]

[illegible]

فاستخرج آلة ضرب بها فبكى من في المجلس ثم فكها وركبها وضرب ضرباً آخر فنام من في المجلس ؟ »

قال سعيد « بلى هو نفسه وهذه هي الآلة التى ضرب عليها وقد تمكنت عابدة من أخذها عنه »

فازداد الامير عبد الله اعجاباً بالفتاة وتعلق بها فقال « ألا تبيع هذه الحسناء »

قال « أجلها عن وصمة البيع والشراء ياسيدى ولكنني أكون أنا وهي في خدمة الامير أيده الله »

قال « أما أنت فأود أن تعدل عن الوراقة للناس وتختصني بفضلك فتكون خازن كتبي فتبقى أنت وعابدة . هل تستطيع ذلك ؟ »

فأشار سعيد برأسه مطيعاً وقال « اني أعد من أسباب سعادتي أن أكون في خدمة مولاي الامير فأبذل جهدى في مصلحته . . وقد كنت أهم بأن أقول له أن عابدة لا أتخلى عنها لانها الفتني وأنا أحفظها أشياء من الادب والشعر لم تعرفها وكان على ان اتردد عليها حيناً بعد آخر . . »

فقطع عبد الله كلامه قائلا « لاحاجة الى التردد انك تقيم في هذا القصر وتتولى ترتيب الكتب في أماكنها وتسعفنى في التفتيش عن الكتب في مظانها فانى لا أريد أن تكون في قرطبة مكتبة خيراً من مكتبتى »

فأشار سعيد برأسه مطيعاً وسكت

فصفق الامير عبد الله فجاء ساهر فقال له « أعدوا داراً خاصة لنزيلنا سعيد وادخلوا عابدة دار النساء مكرمة »

فوقف سعيد يريد الانصراف فدعاه الامير عبد الله للبقاء هناك فقال « لابد لى من الانصراف لتدبير أمرى والتفرغ لخدمة مولاى »

ونهض الفقيه وهو يقول « وانا انصرف بأمر الامير الى منزلى »

أما عابدة فلما أحست ببقائها وحدها بجانب سعيد وقد توردت وجنتاها من الحياء لبقائها وحدها هناك . فتقدم سعيد اليها ووثب على

كتفها وقال « لاتخافي ياعابدة انك في حياطة الامير عبد الله وستكونين معززة مكرمة » والتفت الى الامير وقال « يأمر مولاي ان تأتي القهرمانة لمرافقتها الى دار النساء فتأنس بها »

فامر فاتت القهرمانة الى باب القاعة . فخرجت عابدة معها وهي تلتفت الى سعيد وقد شق عليها فراقه

أما سعيد والفقيه فودعا الامير عبد الله وركب كل منهما بغلته وانصرفا ولما خرجا من الحديقة قال الفقيه « لاقلبث ان نصل الى منزلى . . . ألا تتحول معي عندي هنيهة وتبيت عندي الليلة ؟ »

قال « لا بأس من ذلك » وتحولا ودخلا وقد سر الفقيه بنزوله لانه عزم على الاستعانة به في اقناع الامير عبد الله بما أراده على الحكم . ولم يعلم أن سعيداً أكثر رغبة منه فى ذلك ولكنه أكثر دهاء وأوسع صدراً

دعاه الفقيه الى غرفة واسعة فيها سراج مضيء وقد فرشت أرضها بالحصر والبسط في أبسط ما يكون . وأمر الفقيه خصيه أن يعد فراشين يفرشهما في تلك الغرفة ففعل . وأخذ الفقيه في تخفيف ثيابه ودعا لسعيد بثوب خفيف لتبديله فبدلا الثياب وجلس كل منهما على فراشه وسعيد يقرأ كل حركة من حركات الفقيه كأنه فى ضميره والفقيه يحسب نفسه يحتال في اغرائه على عبد الله

الفصل الثانى والعشرون

المؤامرة

فلما جلسا قال الفقيه « [illegible] في هذا اليوم »

قال سعيد « [illegible] ولكنه انتهى الى الخير . ان الأمير عبد الله [illegible] [illegible]

كل ما يرضيه بعد ما آنسته من لطفه وتواضعه »

فقال الفقيه « كثيراً ما دعاني للاقامة في قصره وأنا أتردد وأما الآن فاني مجيب وسأنتقل » ثم اعتدل في مجلسه والتفت الى سعيد والسراج وراء ظهره فوقع نوره على عيني سعيد فزادهما لمعاناً واشراقا وتخيل فيهما قوة كادت تغلب عليه فقال « ان من يحب الامير عبد الله يجب أن يعرفه حقيقة مركزه »

فقال سعيد « ظهر لى أنه كثير التواضع راغب في العزلة والتقاعد عن السياسة ولولا ذلك ما ظننت أخاه الحكم ينال الخلافة دونه »

فأشرقت أسارير الفقيه فرحاً بهذا التصريح وقال « وقد تعبت وأنا اشرح له ذلك وهو ينكره علي فاذا ساعدتني أقنعناه فاني أرى في عينيك الاقناع »

قال « أنا لا ألتمس إقناعه بالقوة ولا أظنه يحتاج الى اقناع في أفضليته على أخيه ولكنه يخاف الظهور بذلك فاذا تحقق ووثق بمخاطبه صرح بما يدور في خلده . ثم هو لا يكفيه أن يفضل نفسه على أخيه بالقول ولا بد من عمل »

قال « نبدأ أولا بالقول . . هل تقنعه أنه أولى بالخلافة من أخيه ؟ »

قال « يجب أن تبدأ أنت بذلك . . اقنعه أولا أن أخاه الحكم متكبر يطل نفسه فوق أخوته وسائر اهله وبين له ان في قرطبة وسائر الاندلس احزابا كبيرة غير راضين عن بذخ الناصر واسرافه في البناء وغيره وانهم ناقمون على الحالة الحاضرة وربما بايعوا واحداً من غير ابناء الناصر فهو اولى بهذه المبايعة . فهذا يهون عليه القبول . . . »

وكان الفقيه مصغياً بكليته الى ما يقوله سعيد وقد أدهشه دهاؤه وشعر بفرق عظيم بين رأييهما وتحقق انه اذا أتى الامير من هذه الوجهة اقنعه ولكن كبرياءه منعته من التصريح بعجزه عن مثل هذا الرأى فقال « بورك [illegible] رجل عاقل وهذا ما خطر لى ان أقوله للامير ولكنني اخاف اذا [illegible] أن هذه الاحزاب ان أعجز عن الجواب »

فأشار سعيد بسبابته الى صدره وقال « اسألني عند الحاجة فأدلك . واحذر اذا ذكرت ماتقدم للامير ان تشير الي وتذكر اسمي الا اذا سألك عن الاحزاب قل له سنسأل سعيداً الوراق لعله يعرف لانه كان كثير الاختلاط بالناس . فهمت ؟ »

فسره طلب سعيد ان لا يذكر اسمه في ذلك فيحسبه عبدالله هو صاحب تلك الآراء فيعلو في عينيه فقال « فهمت . . انت لاتريد ان اروي شيئاً من ذلك عنك »

قال « نعم . لان الغرض تقديم النصيحة للامير ولا عبرة في من يقدمها »

ففرح الفقيه بذلك واراد ختام الحديث فقال « سأفعل كما امرت . . اظنك في حاجة الى الرقاد الآن . . استودعك الله الى صباح الغد »

وصفق فجاء الخصي فقال له « اخرج هذا السراج من هذه القاعة » فأخرجه وتوسد للرقاد

فنام كلاهما ملء عينيه والآمال ملء صدره واكثرهما رجاء الفقيه فانه تصور الفوز طوع ارادته وانه متى هاج عبد الله على أخيه ملك ناصية الدولة ولم يقدر ما يعترض ذلك العوائق وما يقتضي تغلب عبد الله من المشقة ولكنه كان من اصحاب الاوهام يقنعهم الخيال ويكتفون بالقواعد النظرية او التمنيات القلبية وقلما ينظرون في ذلك من الوجهة العلمية فيغلب الفشل على مشاريعهم

الفصل الثالث والعشرون

عبد الله بنفسه

اما الامير عبد الله فلما خلا بنفسه بعد ذهاب سعيد والفقيه مكث برهة وأفكاره تائهة والكتاب في يده يقلبه كأنه يتصفحه ولكنه لم يكن يرى شيئاً لاستغراقه في افكاره وقد جاش في صدره أمر لم يخطر بباله

من قبل ـ لم يخطر له منذ أسندت ولاية العهد لاخيه ان في الناس من يراه أولى بها منه ولا هو خطر له شيء من ذلك . ولكن الانسان لا يبرح ضعيفاً متقلباً مادام محباً لنفسه يؤثرها على غيرها ويرى فيها من الفضائل ماليس في سواها . فهو ضعيف من هذا القبيل فاذا اردت اغراءه أو تحريضه على أمر لاتجده راغباً فيه بين له علاقته به وعائدته عليه فلا تلبث ان تراه يهتم به

وعبد الله لم يكن يخطر له مناظرة أخيه بالحكم على الخلافة ولذلك فانه استغرب تعريض الفقيه بشيء من هذا الشأن وانتهره . لكنه ما لبث ان اختلى حتى اخذ يناجي نفسه ويحدثها بما لا يمكن ان يكاشف به احداً ـ وافكار الانسان من حيث مكاشفة الآخرين بها ثلاث طبقات : الاولى اسرار يطلع عليها اصدقاؤه ومعارفه والثانية اسرار لا يطلع عليها الا أخص اصدقائه او امرأته ولا يتجاوز بها غيرهم وهو حريص على كتمانها عن سواهم . وهناك خواطر لايطلع عليها احداً ولو علم أنها تتصل بسوء لتنغص عيشه وافتضح أمره . وفي هذه الخواطر حقيقة ضمير الرجل وكنه طبيعته وقد يكون الفرق بينها وبين ما يظهر للناس من افكاره تناقض عجيب . وقد تتقاربان ولا تختلفان الا قليلا واكثر الناس دهاء ابعد ما بين ظاهرهم وباطنهم

ولم يكن عبد الله من اهل الدهاء ولكن ماسمعه تلك الليلة هاج في قلبه حسد أخيه على ولاية العهد وبالغ في كتمان ذلك حتى ود لو يكتمه عن نفسه . وفكر في حاله وعجزه عن مناوأة اخيه فاخذ يتعالى بما يغنيه عن ابهة الدولة ويفضل على متاعب الملك فقال في نفسه «ان متاعب الحكومة كثيرة وما الذي يرجوه الانسان من دنياه غير التمتع بالحياة على ألذ الطرق وانفعها وانا لا ينقصني شيء من لوازم الحياة وتوابعها وليس علي من واجبات الخليفة ما يشغلني عن مطالعة الكتب والتبحر في العلم ولا ينقصني شيء من الوسائل التي للخلفاء لاقتناء اسباب الراحة والنعم » وخطر بباله حالا ما سمعه تلك الليلة من عابدة فاحس براحة ولذة وقال في نفسه « ان

جلوسي مع هذه الجارية أطارحها الاشعار وأحادثها واسمع غناءها خير من الامر والنهى وما يشوبهما من تعب القلب وخوف الفتنة أو الحذر من اهل الدسائس وغيرهم »

وكان يفكر في ذلك وهو واقف أمام منضدة عليها كتاب العقد الفريد واخذ يقلب صفحاته والحاجب واقف بالباب ينتظر أمره في ما يريد من امر الرقاد . ثم انتبه عبد الله لنفسه فالتفت فرأى المائدة لا تزال هناك وعليها الفاكهة فتناول تفاحة وقطعها والتقم بعضها وهو غارق في بحار الهواجس ولم يشرح خاطره لانه لم يستقر على رأي يعول عليه فاخذت الخواطر تتقاذفه بين ان يصغي لقول الطاعنين على اخيه او يبقى على ما كان عليه من حسن الظن فيه

وأخيراً رأى حسن الظن أدعى الى السلامة والوفاق فطرد تلك الخواطر من باله وصفى نيته من جهة أخيه وذهب الى فراشه . فعادت الى ذهنه صورة عابدة وتذكر ما سمعه من حديثها فأحس بلذة وأصبحت بعد وجودها في منزله من اكبر اسباب التعزية ووعد نفسه بمجالستها والتمتع بأدبها

بات تلك الليلة على عزم الاخلاص لاخيه الحكم والتسليم له بحق ولاية العهد. فلما اصبح دخل مكتبته وهي عبارة عن قاعة كبيرة في جدرانها رفوف فيها الكتب على غير نظام فوضع كتاب العقد الفريد في صدر كتب الادب بحيث يقرب تناوله عند الحاجة وأخذ يقلب مابين يديه من كتب الفقه والحديث ويعود الى الادب والشعر فكان يرى مشقة في الوصول الى الكتب فاخذ يعلل نفسه بترتيبها متى عاد سعيد

الفصل الرابع والعشرون

رسول ولي العهد

مضى معظم النهار ولم يعد سعيد ولا الفقيه فلما كان الاصيل مل الانتظار فتذكر عابدة فامر حاجبه ساهراً ان يأمر القهرمانة بارسالها اليه في القاعة للتمتع بحديثها ريثما يأتي الرجلان او احدهما وقد احس باشتياق الى لقياها ليرجع الى حديث الامس ويظهر لها ماعول عليه من اغفال أمر ولاية العهد ويتوقع ان يوافقاه على رأيه فيزداد رسوخاً في الامر

وعاد الحاجب وقال « ان جاريتك عابدة آتية » فامره ان يعد مائدة من الفاكهة والحلوى وبعض الاشربة المنعشة فاعدها في غرفة الامس وجلس عبد الله وبيده كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة يقلب فيه

وبعد قليل جاءت عابدة وهي في أجمل مما كانت بالامس فتلقاها بالترحاب وأمرها بالجلوس وسألها اذا كانت تحسن الضرب على العود

فاجابت « نعم »

فامر باحضاره فتناولته ولحظ فيها خجلا او انقباضاً فظن ذلك ناتجاً عن استيحاشها لغياب سعيد فابتدرها قائلا « كيف وجدت نفسك عندنا ياعابدة »

قالت « بخير ياسيدي وكيف لا أكون سعيدة وأنا في ظلك »

قال « لكن يظهر انك استبطأت سعيداً كما استبطأته أنا ولكنه لا يلبث أن يأتي ولا يعود الى الغياب »

فلما سمعت ذكره توارد الدم الى وجهها فظن عبد الله ذلك ناتجاً من الخجل وما درى مايختلج فى قلبها من الهيام بسعيد فقال لايلبث سعيد أن يأتينا وقد شعرت بالحاجة اليه في هذه الساعة لما دخلت مكتبتي فوجدت الكتب فيها مبعثرة وسيتولى ترتيبها . . انه رجل حكيم وقد وقع من نفسي موقعاً حسناً . ويكفى من فضله أنه كان وسيلة في قربك »

فازداد تورد وجنتيها وعمدت الى التخلص فقالت « لعل هذا السبب الاخير أقل حسناته بالنظر الى مولاى الامير وأما بالنظر الى هذه الجارية فهو فضل كبير »

ففرح عبد الله بلطف أسلوبها وتحقق أنها راضية بالمقام عنده فقال « لا بل الفضل له علي بذلك وأرجو ان نستطيع مكافأته على هذا الصنيع . . »

فتنهدت وقالت وهي تصلح العود في حجرها « ان سعيداً يستحق ثقة مولاى الامير واذا جربه وجده حكيماً عاقلا صاحب رأي وهمة يتفانى في خدمته . . . »

فقطع عبد الله كلامها بلطف وقال « لا نريده الا سالما معافى ولنا بخبرته خير مساعد يرتب مكتبتنا ويهدينا الى مظان الكتب النفيسة »

قالت « نعم ولكنه يفيد في كل امر يقترح عليه » قالت ذلك وهي تتشاغل باصلاح وتر مشوش واظهرت عند الفراغ من هذه الجملة أن العود قد تم اصلاحه وضربت عليه صوتاً من الاصوات المطربة وغنت فطرب عبد الله . وتقدم اليها ببعض الفاكهة والحلوى وأخذ في تقريظ الصوت الذي سمعه واطراء صناعتها فيه وهى تتواضع وتجيد في الضرب والغناء وعبد الله متكيء على وسادة لا يزداد في الفتاة الا اعجاباً وطرباً وقد صوب رأيه بالاكتفاء بها عن سائر مطامع الخلافة

وهما في ذلك دخل الحاجب ووقف بحيث يعلم عبد الله انه يريد ان يخاطبه فالتفت اليه واشار بيده يستفهمه عن غرضه فقال « ان في الباب رسولا من مولانا ولي العهد يحمل كتاباً الى مولاي الامير »

قال « ولي العهد . . قد ساءه الرجوع الى شيء من امره

فقال « نعم يا سيدى »

فقال « أين الكتاب ؟ »

فخرج وعاد والكتاب بيده فسلمه الى الامير فتناوله وهو يجلس متجهاً نحو نافذة يدخل منها النور وأخذ يقرأه وقد توقفت عابدة

عن الغناء واخذت تراعيه فرأت في وجهه تغيراً وهو يتفرس فى الكتاب ويعيد قراءته ثم اعتدل في مجلسه وطوى الكتاب وجعله تحت الوسادة واراد التظاهر بعدم الاكتراث ولم يخف على عابدة ماتولاه من الاضطراب ولكنها لم تعرف السبب فرأت من الادب ان تبقى صامتة تنتظر امره

اما هو فبعد الاطراق هنيهة وقف وتظاهر انه يطلب حاجة في الغرفة الاخرى فمشى الى الباب ثم رجع كأنه تذكر شيئاً يستدعي رجوعه وقعد في مكانه وعاد فاستخرج الكتاب من تحت الوسادة واعاد قراءته ثم شعر بما ظهر من قلقه بين يدي عابدة فاراد أن يوهمها غير الواقع فقال « ما بالك لاتغنين ياعابدة ؟ »

فتناولت العود وقالت « خفت ان اشغل مولاي عن قراءة الكتاب ولعل فيه ما يهمه او يدعو الى اعمال الفكرة فيشوش عليه عودي »

قال « ليس فيه شيء » وبدأ الانقباض فى وجهه ثم قال « غني ياعابدة . . غني ما شئت »

فاخذت العود وغنت صوتاً آخر فأوقفها وقال « غني قول عمرو بن كلثوم الذي ذكرته بالامس :

اذا ما الملك سام الناس خسفا   أبينا ان نقر الخسف فينا
ألا لا يجهلن احد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا »

فادركت من طلبه ان في الامر سراً غاظه وكانت قد علمت ان الكتاب جاءه من اخيه ففهمت بعض الشيء فاخذت تغني وتجود وهو يترنح لها والغضب باد في محياه

الفصل الخامس والعشرون

الجواب

ثم جاء الحاجب ووقف بجانب الستر فتذكر عبد الله انه ينبغي له ان يجيب الرسول على كتابه فقال « ألعل الرسول يتوقع مني جواباً ؟ »

فأشار ساهر برأسه ان « نعم »

فقال « قل له ليس عندي جواب » قال ذلك بلحن التهديد

فخرج ساهر وفعل ما أمر به عبد الله لكنه لطف الاسلوب فبدلا من ان يقول « ليس عند الامير جواب » قال « سيجيب على الكتاب بعد الآن »

فقال الرسول « أمرت ان ارجع بالجواب الساعة »

فاكبر ساهر ان يبلغ الامير كلامه على هذه الصورة فاستمهله وهم بالرجوع وكانت الشمس قد قاربت الغروب فسمع وقع حوافر بغلة في الحديقة ثم رأى الفقيه قادماً على بغلته حتى اذا وصل ترجل وهم بالدخول فرأى رسول الحكم بالباب فعرفه فتقدم الرسول وسلم على الفقيه فسأله عن سبب وجوده هناك فقال « جئت برسالة من مولانا ولى العهد وأنا واقف التمس الجواب »

فدخل الفقيه وهو يقول في نفسه « ماذا عسى ان تكون تلك الرسالة » حتى اقبل على مجلس الامير وعابدة فاستأذن ودخل فدعاه الامير الى الجلوس والغضب باد في محياه فعلم الفقيه ان سبب غضبه متعلق برسالة الحكم فسره ذلك لانه يساعده على مرامه فقال « مالي أرى مولاي غضباً ؟ »

قال « لا شيء » واحب التظاهر بعدم الاكتراث

فقال الفقيه « رأيت رسول ولى العهد بالباب . هل علمت سبب قدومه ؟ »

قال « نعم وقد صرفناه . . ألم يذهب ؟ »

قال « رأيته لا يزال واقفاً »

فصفق عبد الله فدخل ساهر فابتدره قائلا ألم تصرف الرسول

قال « يا سيدي ان مولاي فقال انه يريد الجواب الآن »

فلم يتمالك عبد الله عن التحفز للوثوب ثم تراجع وقال « [illegible] [illegible]دى جواب بالبعض »

قال « قلت له يا مولاى ولم يمض »

فأظهر الفقيه اشتراكه بغضب الامير فقال « عجباً من هؤلاء . . . أيقول له الامير امض ولا يمضي ؟ وهل هو الا رسول مأمور ! » والتفت الى الامير وقال « هل يأذن مولاي ان اعلم رسالته وأنا اصرفه حالا »

فمد الامير عبد الله يده الى الكتاب واستخرجه من تحت الوسادة ودفعه الى الفقيه وقال « هذا هو الكتاب . . اقرأه لنفسك »

فتناوله وقرأه واذا هو

« من الحكم ولى العهد الى اخيه الامير عبد الله

« اما بعد فقد بلغنا ان جارية اديبة تحفظ الشعر وتحسن الغناء جاءتك فاحببنا ان نراها فاذا جاءك كتابي انفذها الى مع رسولى وانت في خير وعافية »

ثم رفع الفقيه بصره الى الامير فرآه ينظر اليه ويتوقع رأيه فقال « قد قرأته يا سيدي فما ترى ؟ »

قال « قد علمت رأيي وهل ترى ان اجيبه الى طلبه ؟ »

فرأى الفقيه ان يغتنم تلك الفرصة لاثارة نقمة الامير على أخيه فقال « قد رأيت صواباً . . ولا اظن الحكم يعني بطلبه هذا الا الاستئثار لنفسه كأنه يرى ذلك من حقوق ولاية العهد »

فاغتصب الامير عبد الله ضحكة وقال « نعم من حقوق ولاية العهد أم تكرمه سكوتي عن تلك الولاية حتى تعدى الى هذا »

فقال الفقيه « ومع ذلك فان هذا الامر يتعلق بسعيد وله فيه الرأي الاول بعد أمر مولاي »

قال « مهما يكن من ذلك فليس لرسالة أخي جواب »

قال « لا ارى بأساً من أن تجيبه على كتابه بما تراه .

قال « ماذا كتب اليه ؟ »

قال « اكتب ما شئت . . اعتذر له انك لا تقدر أن تجيبه على طلبه لاسباب عندك لا تستطيع بيانها »

فنادى الامير عبد الله « ساهر »

فدخل الحاجب فقال « الى بدواة وقرطاس »

فجاءه بهما فتناول القلم وكتب :

« الى الحكم ولى العهد من أخيه عبد الله

« أما بعد فقد جاءني كتابك فتأملته ملياً فلم أجدني قادراً على اجابة طلبك فيه فاعذرني والسلام »

وختم الكتاب ودفعه الى ساهر وقال له « سلمه الى الرسول »

فخرج وسلمه اليه

وعاد الامير عبد الله الى ما كان فيه وأشار الى عابدة أن تغنى وكانت قد لحظت شيئاً يهمها لما سمعته من ذكر سعيد في أثناء الحديث فطفقت تغني:

ستعلم في الحساب اذا التقينا غداً يوم القيام من الظلوم

وينقطع التلذذ عن اناس من الدنيا وتنقطع الهموم

الى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

فكانت تغني وعبد الله مطرق يهز رأسه وقد جاشت به عاطفة الاعتبار ولما فرغت من البيت الاخير ردد قولها « وعند الله تجتمع الخصوم » ثم قال « رحم الله أبا العتاهية »

واغتنم الفقيه تلك الفرصة وجعل يطري عابدة وصوتها وهي تجود في الغناء وأحس عبد الله بحاجة الى سعيد فقال « ألا تظن سعيداً يأتى الليلة ؟ »

ثم صاح « ساهر »

فتقدم الحاجب فقال « أنيروا السراج »

فخرج ثم جاء بعض الخدم بالسراج وفي أثناء ذلك أجاب الفقيه على سؤال الامير قائلا « أظن سعيداً لا يلبث أن يأتى وقد أصبح مجيئه ضرورياً الآن على ما أظن »

قال « لا بد من حضوره فأنا صاحب رأي

الفصل السادس والعشرون

المـــــائدة

وهم في ذلك جاء الحاجب يقول « ان سعيداً الوراق بالباب »
قال الامير « يدخل »
فدخل سعيد ووجهه يتدفق هيبة وذكاء فتلقاه الامير مرحباً
وكان اكثرهم سروراً عابدة فانها لم تمالك عند دخوله عن الابتسام ونظرت اليه وهي تزعم أنها تغازله فابتسم لها وجلس وهو يحي الامير ثم الفقيه

فقال الامير « مرحباً بصاحبنا سعيد لقد ابطأت علينا »
قال « لقد كنت مشتغلا بتدبير شؤون منزلى حتى أتفرغ بخدمة مولاى » ثم اشار الى عابدة وقال « كيف رأيت عابدة اليوم ؟ »
قال « انها تأتينا كل يوم بطرب جديد بارك الله فيها » ثم نادى ساهراً وامره ان يهتم بتهيئة الطعام

وبعد هنيهة حضرت المائدة فقاموا اليها واغتنم الفقيه غفلة من عبد الله وقص على سعيد أمر الكتاب الذي جاءه من الحكم وما اجاب عليه . فلما جلسوا الى المائدة قال سعيد « هذه اول مرة اتناول بها الطعام مع الامير عبد الله بن امير المؤمنين الناصر وهو شرف عظيم لى والفضل في وصولى اليه يرجع الى هذه الفتاة الاديبة » واشار الى عابدة

فأجابت عابدة وعيناها تلمعان وقالت « بل الفضل لك يا مولاي في وجودي هنا فلولاك لم أنل هذه النعمة بخادمة الامير »
فقطع الامير كلامها قائلا « والحق يقال انكما صاحبا فضل علي فاني أعد هذا الاجتماع طالع عيش جديد لم أذق مثله من قبل »
وكان الفقيه ساكتاً فالتفت الى الامير وبيده صدر دجاجة يهيئه لقمة

لنفسه وقال « كلكم اصحاب فضل الا ابن عبد البر المسكين وهو اون من فتح باب التعارف » قال ذلك ووضع اللقمة في فيه ونظر الى سعيد من طرف خفي وغمزه فاجابه بأشارة لطيفة

فضحك عبد الله وقد سري عنه وقال مازحاً « ليس الفضل لاحد منا وانما الفضل لابن عبد ربه صاحب العقد الفريد فان كتابه دلنا على هذا الكنز الثمين » وأومأ إلى عابدة بيد وسعيد بيد اخرى

فتناول سعيد سكباجة بين يديه وناولها الى عابدة وهو يقول « ما بالك لاتأكلين يا عابدة خذى كلى من طعام الامير واشكرى الله على نعمه . . . انك لاترجين نعمة فوق هذه . . . »

فمدت يدها لتتناولها

وقطع الفقيه كلامه وهو يمد يده لتناول قدح الماء من الخادم الواقف في خدمتهم وقال « ولو كانت عند ولي العهد ؟ » جعل هذه الفقرة تتمة لما قاله سعيد

فأجابه سعيد « ما اظن ولي العهد اذا بلغه خبر عابدة ولو في العراق انه يتركها تفلت من يديه . لكننا لانرضى عن مولانا الامير بدلا »

فلما سمع الاميرعبد الله ذلك الحديث انشرح صدره لانه توسم في سعيد مساعداً له على رد طلب الحكم وهو يظنه يقول ذلك ولا علم له بكتاب الحكم فنظر اليه وقال « ما قولك اذا جاءنا كتاب أخى ولي العهد الآن يطلب عابدة ؟ »

قال « لا اظنه يفعل بعد ان علم بدخولها منزلك فان مانا له من شرف ولاية العهد يشغله عن ان يسلبك جارية تستمتع بحديثها . . انى اجل حنكة ولي العهد عن ان يبلغ به الطمع الى هذا الحد. فهو جدير [illegible] بولاية العهد حسبه من زيادة أفلا يترك لاخيه فتاة يسر بحديثها ؟ »

فنظر عبد الله الى الفقيه وقد تم نزعه [illegible] جعل [illegible] سعيد يتذكره بما اطلعا عليه من كتاب الحكم في ذلك المساء فتجاهل سعيد [illegible] [illegible] » وقد جرت عادة الخلفاء وولاة العهد في الاسلام [illegible]

يوسعوا لاخوتهم واعمامهم ابواب الرزق ويهدوهم الجوارى والسراري ويقطعوهم الاقطاعات الواسعة ويفرضوا لهم الرواتب الباهظة ويهدوا اليهم الهدايا الثمينة تعويضاً لهم عما خسروه من حق الملك وخوفاً من نقمتهم ومولانا ولي العهد يعلم ذلك فكيف يعقل انه بدلا من ان يهدي اخاه عشرات من امثال هذه الجارية يطمع في ان يسلبه اياها ! »

وكان سعيد يتكلم والفقيه يعجب بدهائه وحسن اسلوبه في تمكين عبدالله من حقه في رفض طلب أخيه وعبدالله يعتقد ان سعيداً يقول مايقوله وهو لا يعلم بما جرى وكان يشعر عند سماع كلام سعيد ان الحق مجسم في كل كلمة من كلامه واقتنع بأقواله اقتناعا تاما فاصبح يعد طلب اخيه تعدياً تجاوز الحد وسره انه رفض الطلب وتأسف لانه لم يغلظ لاخيه بالعتاب

الفصل السابع والعشرون

كتاب آخر

ولما فرغوا من الطعام قاموا الى قاعة الاستراحة وعادوا الى السماع وسعيد يبالغ في اطراء عابدة . وعبد الله يزداد طرباً بصوتها واعجاباً بأدبها وجمالها حتى انتصف الليل وكادوا ينصرفون واذا بساهر دخل وبيده كتاب فوقف حيث يعلم الامير انه يريد مخاطبته فناداه وقال « وما ذاك ؟ »

قال « كتاب يا سيدي »

قال « ممن ؟ »

فتقدم به اليه وهو يقول « من مولانا ولي العهد »

فمد عبد الله يده وتناول الكتاب فعلم من عنوانه انه من أخيه الحكم فخفق قلبه في صدره خفقاناً لما عساه ان يكون فيه وقد حمل اليه في تلك الساعة وأخذت يداه ترتعشان وهو يفضه . وتطاول الجميع بأعناقهم وهم

يتكهنون في ما يحويه الا سعيداً فانه كان عالماً بما هنالك ولم يفته خبر الكتاب الاول لانه هو الذى بعث ولى العهد على كتابته بغير ان يشاهده ولكنه استخدم في الوصول الى ذلك دهاءه وحسن تدبيره

ففض عبد الله الكتاب وقرأه ولم يتمالك ان رمى به الى سعيد وقال له « ما اسرع ما صدق ظنك بولى العهد .. هذا هو كتابه اقرأه »

فتناوله سعيد وهو يقول « هل اقرأه جهاراً ؟ »

قال « اقرأ وليس فينا من يحسن الاحتراس منه »

فأخذ يقرأ والجميع منصتون .

« من الحكم ولى العهد الى اخيه الامير عبد الله

« اما بعد فاني استبعدت ان تكتب الي بما كتبت وكدت انكره لو لم يكن بخطك وعليه خاتمك . . اطلب منك جارية فتضن بها علي وانت رعاك الله لا تجهل منزلة ولى العهد لدى امير المؤمنين فاذا قرأت كتابي هذا ارسل الجارية مع رسولى الليلة وعهدي بفطنتك وحسن نظرك انك فاعل ان شاء الله »

وكان سعيد يقرأ ويقف عند كل فقرة ويهز رأسه استغراباً حتى اتى على آخر الكتاب فدفعه الى الامير عبد الله وأطرق . وكان الامير وهو يسمع الكتاب ينظر إلى عابدة فرآها قد تركت العود من يدها وبدت الدهشة في محياها وتململت كأنها تتحفز للنهوض فعظم ذلك على الامير . فلما اعاد سعيد الكتاب اليه تناوله وقال « أرأيت ما بلغ من طمع أخي بي ؟ اصانعه واجامله والتمس رضاه وهو يهددني ويلح في طلبه ؟ »

فقال سعيد وهو يظهر الاستغراب « لم يكن ذلك ليخطر ببالي او اصدقه لو لم اقرأ هذا الكتاب بنفسي »

فقال العميد بلحن الفائز الظافر « اما انا فلم اكن استبعده وقد اسررت الى مولانا بمثل ذلك لاني كنت اتوقعه . وهو حفظه الله يحسن الظن بأخيه وقد اساء الظن في وحسبني اقول ما قلته لغرض لي فهذا كتابه جاء شاهداً

يؤيد قولي . فما عليك ياMولاى الا الطاعة او الخروج . . . فان الرفض يجر الى البلاء »

فاكبر عبد الله تهديد الفقيه واستخفافه بعزمه بين يدي الفتاة فقال « الطاعة ؟ وهل لولي العهد طاعة علي في مثل ذلك ؟ . لم يبق الا ان يطلب نسائي واولادي اليه او لعله يريد ان أقوم في خدمته أيضاً » قال ذلك وهو يهز رأسه

فقطعت عابدة كلامه وهي تهم بالنهوض قائلة « لا احب ان اكون سبباً للخلاف بين الامير واخيه فالاولى ان اخرج انا من هذه الدار واعود الى خبائي او ارجع الى بلدى . وما انا مما يستحق التنازع عليه — عهدنا ابناء الخلفاء يتنازعون على الخلافة ويتهادون الجواري والمغنيات والمقاطعات »

فمد عبد الله يده اليها وأمسكها بثوبها واجلسها وقدهاجت فيه الاريحية وقال « ألا تعلمين ان خروجك من منزلى اهانة لي كأني عاجز عن صيانتك فيه . . . متى بلغ من اخى ان يأخذك منى قسراً وان تأتى له ذلك فأنا اخرج من هذا المنزل قبلك » قال ذلك وبان الغضب في عينيه وقد نسي موقفه

فجلست وهي تظهر الانكسار والاذعان وتنظر الى سعيد كأنها تستنجده

فنظر سعيد الى الامير عبد الله وقال « تمهل يامولاى . اعرني سمعك لحظة »

فسكت الامير وقال « قل اني سامع »

فتلفت سعيد فى اطراف القاعة كأنه يحاذر ان يسمعه أحد وقال « هل نحن في مكان مصون لا بأس علينا اذا تكلمنا من واش او رقيب ؟ »

قال عبد الله « تمهل » وصفق فجاء الحاجب فقال له « لا نحب ان يدنو من مجلسنا احد »

قال « سمعاً وطاعة يا سيدى » وخرج وأغلق الباب وراءه

فقال عبد الله لسعيد « تكلم »

فارسل سعيد نظرة في عيني عبد الله خرقتهما الى داخل احشائه فأحس انه طوع ارادته فقال سعيد « لا ينبغى للامير عبد الله ان يخرج عن رشده ويطعن على أخيه ولي العهد ويرد طلبه الا وهو على يقين مما يجر اليه ذلك من العواقب الخطرة . . فعليك ان تتبصر في العواقب ثم تفعل ما تريد . وقد ظهر لي من تلاوة هذا الكتاب ان ولي العهد كتب اليك كتاباً مثله يطلب فيه عابدة فرددت طلبه فاعاد الطلب مشفوعاً بالتهديد والوعيد فعليك اذا ازمعت الرفض ان تثبت فيه ولو مهما كلفك ذلك من الامور . والا فاذعن وأطع واجعل انك لم تر عابدة ولا اتت منزلك . . . »

فقطعت عابدة كلامه قائلة « اسمح لي يا سيدى ان انبهك الى امر لعله لم يعزب عن فطنتك . . اني لا ارى من الحكمة ان تحمل الامير على معاصية اخيه وهو صاحب القول اليوم ولا اراه قادراً على رد طلبه ولا احب ان اكون وسيلة لهذا التغاضب فالاولى ان اخرج انا من هذا المكان قبلا فيكون عذره انى غير موجودة هنا . واخاف اذا رد مولانا الامير طلبه وانا باقية هنا ان يعمد ولي العهد الى أخذي بالقوة وانا اعترف لك اني لا اريد بدلا من سيدي الامير عبد الله فلا ابرح هذا المكان الا قتيلة »

فأعظم الامير عبد الله تعلق عابدة به مع ما يتخلل قولها من التوبيخ اللطيف وأخذته الحمية وقال « انت لك يا عابدة انك في جوارى ولا يستطيع احد ان يأخذك قهراً »

فقال سعيد « اذا كان مولاى الامير مصمما على الرفض [illegible] ولده اذا نظر في عاقبة ذلك يكون [illegible] مصلحة ومصلحة [illegible] »

فأطرق عبد الله برهة يفكر في رد كلام سعيد

فتصدى الفقيه للكلام قائلا « ارجو ان يكون سيدي الامير قدفهم مغزى هذا القول.. وانا ازيده بياناً » قال ذلك وزحف حتى لاصقت ركبته ركبة الامير وقال بصوت منخفض « اتذكر ياسيدى ماقلته لك بالامس عن ولاية العهد وما يقوله الناس عن امير المؤمنين واسناده اياها الى الحكم دون سواه ؟. قلت لك يامولاي ان الحكم لايرى الناس كفاءته لهذا المنصب لاسباب ذكرتها لك. وهم غير راضين عنه لكنهم لا يجسرون على الكلام ان لم يجدوا من يطالب بها سواه وهم يرون الامير عبد الله اولى بها من الجميع. فاذا طلبها وجد انصاراً كثاراً فاذا وافقتني وقمت بهذا الامر فما عليك الا ان تقول »

الفصل الثامن والعشرون

الجواب

وكان عبد الله في أثناء ذلك مطرقاً يفكر وقد رجع اليه صوابه وأحس بثقل الامر الذى يحرضونه عليه وندم على مافرط منه لعله يحجره عن القيام به لكنه استثقل الرجوع عن كلامه حالا فرأى ان يحتال في التخلص فقال « أرى كلام صاحبنا سعيد أقرب الى الصواب فانا ينبغى لنا قبل الاقدام على هذا الامر ان تتدبر وننظر فيه قبل ان نشعل ناراً لا نقوى على اطفائها . لاسيما وان امير المؤمنين هو صاحب الدولة اليوم فقيامي بما تدعوني اليه يعد خروجاً عليه وهو لم يتعرض لى في شيء ولا أرى عمل اخي الحكم الا من عند نفسه قد ارتكبه عن طيش واهل والدى امير المؤمنين اذا عرف به أرجعه عنه »

فقال سعيد « لقد نطقت بالصواب ورأيت رأي أهل الحزم والدهاء فما الذى تنويه هل تطيع أخاك في ما طلبه »

قال « كلا بل أرده فاذا أصر نرفع الامر الى امير المؤمنين »

فقال الفقيه « لا أرى [illegible] سيدى الامير [illegible] هذه العرضة التي [illegible]

[illegible] . انما [illegible] يا سيدي ولا تخف . ان في [illegible] ألوفاً

ينتظرون كلمة من الامير عبد الله ليبايعوه . . واذا أطعتني وعملت برأيي أدلك على الطريق .. والا فافعل مابدا لك »

فنظر عبد الله الى سعيد كأنه يستشيره فقال سعيد « ان ما يقوله الفقيه قرين الصواب وأنا أعلم الناس بدخائل هذا الامر وأزيد على ما قاله ان في قرطبة عصابات قوية تجتمع سراً وهي ناقمة على امير المؤمنين نفسه لخروجه في سيرته عن مثال الخلفاء الراشدين وتقريبه الخصيان والصقالبة والعبيد دون اصحاب هذه الدولة ورافعي علم الدين الحنيف وهم يرون الدولة صائرة بذلك الى غير اهلها . وكانت الآمال عالقة بمن سيخلفه لعله ينهج طريقاً غير طريقه ويرجع الى الصواب وكانت افكارهم متجهة الى مولاى الامير يظنون الخلافة تصير اليه فلما رأوا اباه بايع الحكم ولم يلتفت الى الامير عبدالله قطع حبل آمالهم ويئسوا من الاصلاح فاذا طلبها مولانا الامير رأى من يشد ازره والا فاذا ظللت على بيعة الحكم فانا مبايعه معك وليس من الحكمة التسرع في نقض البيعة فانا لا أشير عليك بان تفعل اولا تفعل ولكنني اقول ما أعلمه وأنت صاحب الرأى »

فأعجب عبد الله بما في كلام سعيد من النزاهة والحزم وصدق النصيحة لانه ما زال يعد نصيحة ابن عبد البر مشوبة بالغرض لانه ناقم على الحكم وهو الذي حرمه من القضاء فقال « لله درك من حكيم عاقل وقد فهمت مقالك فهل ترى سرعة النهوض ؟ »

فأجاب وهو يظهر الجد « لا . . . بل انما ادعوك الى التبصر في العواقب فان ظهورك بمنازعة اخيك على ولاية العهد امر عظيم يجر الى فتن وحروب اذ لا يسهل [illegible] الحكم النازل عن شرف قلده اياه ابوه بل لا يصح للامير عبد الله بعد ان يطلب ذلك المنصب ان يرجع عنه صاغراً . واذا رجع هو [illegible] انصاره الذين [illegible] لا يرجعون حتى يسندوا الخلافة الى [illegible] بشروطنا لان قيام [illegible] [illegible] الامير عبد الله [illegible] واتباعه الان الخلافة رغبة في [illegible] [illegible] طلبوها [illegible] . . . أرانا قد

خرجنا عن الموضوع ونحن في مسألة طمع ولي العهد بعابدة فاذا رجع عن طلبه لم يبق داع مستعجل لمناوأته والا فنرى ما يكون »

وكان عبد الله والفقيه وعابدة شاخصين الى سعيد يسمعون كلامه ويعجبون لما فيه من الحماس ولا سيما عبد الله فانه فهم اشياء لم تكن تخطر بباله . فهم وجود عصابات واحزاب تنكر مبايعة اخيه وتحب مبايعته . ولو كان من أهل المطامع لاتخذ طلب اخيه ذريعة للنهوض عليه لكنه كان ضعيف العزيمة وانما سيق الى الامر بالاغراء وظل مع ذلك يخشى مناهضة اخيه ويخاف سطوة ابيه فعمد الى المسالمة وساعده على ذلك ما سمعه من سعيد فقال « قد علمت اشياء لم اكن اعلمها . . . »

فقطع الفقيه كلامه قائلا « والذي علمته اقل من الواقع وستكشف لك الايام قدر نفسك وتعلم انك رجاء الالوف وألوف الالوف »

فأومأ سعيد بيده الى الفقيه وقال « لا ينبغي ان تحرض مولانا الامير تحريضاً فان الصبر اولى والتأني لا بد منه . . قال الآن ما الذي يراه مولانا ؟ »

قال الامير « اني أرى الفقيه متسرعاً وأوافقك على التأني وطول الاناة ولذلك فأنا مرجيء هذا الامر الى فرصة أخرى لاني لا ازال أرى امير المؤمنين ينصرني ويقف في طريق اخي فيرده عن هذا التعدي فاذا لم يفعل ذلك فالايام بيننا »

فقطع سعيد كلامه قائلا « نعم الرأي رأيك وربما ادرك امير المؤمنين عند اطلاعه على عمل ولي العهد انه أساء الاختيار في ما عهده اليه فيرجع الى الصواب وينقل ولاية العهد اليك . . . »

فزاد عبد الله تمكناً من رأيه فقال « فاذاً نؤجل ذلك الى فرصة أخرى ونبحث الآن في طلب اخي »

فقالت عابدة « مهما يكن من رأي الامير في طلب اخيه فانا خارجة بأمر من هذا القصر » قالت ذلك ونهضت تمشي تجر جمارها الى مقصورتها وقد القت [illegible]

فأمسك عبد الله بطرف ثوبها وأقعدها وقال « كيف تخرجين ؟ »
قالت « اخرج بأمر مولاي لاني رأيتني سبباً للنزاع مع أخيه و . . . و . . . »

فقطع الامير كلامها قائلا « اما بأمري فلا تخرجين. وقد قلت لك انه لن ينال قلامة من ظفرك وها انا كاتب اليه الجواب الساعة » والتفت الى سعيد كأنه يستشيره في ما يكتب

فقال سعيد « اكتب اليه بما أرى ولا تشدد الوطأة فان الحكمة تقضي حسن الاسلوب لئلا تتغير القلوب . واذا أذنت انا كتبت عنك كتبت فاذا استحسنت ما اكتبه وقعت عليه والا رددته »

قال « افعل »

وكانت الدواة والقرطاس لا يزالان هناك فتناول سعيد القلم وكتب :
« الى الحكم ولي العهد من اخيه عبد الله

« اما بعد فقد اخذت كتابك وعجبت لالحاحك فى طلب تلك الجارية بعد ان اعتذرت اليك عن نوالها وأنت مع ذلك تهددني وتعرض بمالك من المنزلة عند امير المؤمنين حفظه الله ولأمير المؤمنين اجل من ان يجاريك في طلبك او لعلك تحسب ذلك من حقوق ولاية العهد — على رسلك، ليس هذا من الصواب في شيء وقد رأينا الخلفاء في الدولتين الاموية بالشام والعباسية في العراق وفى دولة آل مروان هنا اذا اكرموا أحد ابنائهم بولاية العهد عوضوا على سائر الابناء والاعمام بالاعطية الجزيلة ووسعوا لهم في ارزاقهم ووالوهم بالهدايا من الجواري والسراري والقصور والاقطاعات . فاذا علمت ذلك رجوت ان تعدل عن رأيك الى ما هو جدير بك في مراعاة حرمة أخيك بعد ان هنأك بما [illegible] من حق الخلافة . وأنت اعقل من ان [illegible] — ونحن نخرج الى [illegible] على عدونا [illegible] والسلام [illegible] »

[illegible]

اسلوبه ولم يدرك مافيه من التهديدفوقع عليه وختمه ونادى الحاجب وامره ان يدفعه للرسول ففعل

الفصل التاسع والعشرون

ختام الجلسة

أما سعيد فأراد أن يشغل الامير عبد الله عن ذلك الشأن فقال « هل يأمر مولانا أن يسمع صوتاً من عابدة قبل الذهاب الى الرقاد أم يفضل سماع الاحاديث والاشعار ؟ »

قال « نسمع شيئاً من أخبار العرب »

فالتفت الى عابدة وقال « قصى علينا ما تعرفينه يا عابدة »

قالت « وما عساي أن أقول بعد ماسببته من الخلاف بين الاميروأخيه أود لو أني لم أخلق أواني لم أخرج من بغداد ولا أكون سبباً لهذا الخلاف »

فقطع الامير كلامها قائلا « انت تنقمين على وجودك ونحن شاكرون له لانك ريحانة مجلسنا واذا وقع خلاف بيني وبين أخي ألعله أول خلاف وقع بين أخوين ولو استطعت الصبر على الضيم لم أرض بالخلاف . . . ولكن أخى تجاوزحده .مالناولذلك قصى علينا ما يسلينا ساعة ثم تنصرف »

فقصت بعض الاخبار وأنشدت بعض الاشعار بعبارة فصيحة معربة زادت الامير تعلقاً بهاوأخيراً ذهب كل منهم الى فراشه ولكل منهم هاجس وأشد تلك الهواجس عند الامير عبد الله

فانه لما توسد الفراش أخذ يراجع عبارة كتابه الى أخيه فتذكر عبارات لا تخلو من الشدة ولكنه استسلم للقضاء وقال في نفسه « لعلها فرصة يعود خيرها علي » واستسهل العمل بمشورة الفقيه في المطالبة بولاية العهد وعلل نفسه أن أباه لا يدع الخلاف يتمكن بين الاخوين الى هذا الحد

بات تلك الليلة قلقاً تقلب في أثنائها كثيرا وما صدق أن طلع الفجر حتى بكر الى المكتبة وبعث الى سعيد فجاء وقد تأهب لترتيب الكتب فطلب الى الامير أن يسعفه ببعض الخدم يساعدونه في حمل الكتب من أماكنها الى مكان يفرق فيه بينها حسب المواضيع . فجمع كتب الادب على حدة وكتب الفقه وحدها وكذلك فعل بكتب الحديث والتفسير والشعر ولم يجد بينها كتاباً في الفلسفة أو الطبيعيات أو نحوها من الكتب المترجمة عن اليونانية لانهم كانوا يعدون اقتناءها من قبيل الزندقة وكان الامير عبدالله مشهوراً بالتقوى والزهد حتى سموه الزاهد (١) وقد رأيت في ما تقدم انكاره امر هذه الكتب على أخيه لما قيل له أن أخاه يقتنيها ـ وكان ذلك الاعتقاد شائعاً في العالم الاسلامى عملا بما يريده الخلفاء وهؤلاء كانوا ينكرون أمر هذه الكتب مراعاة للدين على ما يفسره الفقهاء في ذلك العهد . وكان رجال السلطة يراعون أقوال الفقهاء احتفاظا بنفوذهم لدى العامة لان هؤلاء لم يكونوا يحكمون بغير الدين على ما يفسره رجاله

فكان للفقهاء في الدول الاسلامية يومئذ نفوذ عظيم وقد يكون الخليفة أو السلطان المسلم لا ينكر الفلسفة ولا يعتقد مخالفتها للدين ولكنه يضطهد أصحابها مراعاة لشعور العامة

على أن الفلسفة لم يكن لها وجود في الاندلس الا بعد زمن الناصر أي بعد أن دخلتها رسائل اخوان الصفا في أواسط القرن الرابع فنبغ فيها ابن باجة وابن رشد وابن الطفيل في القرن السادس للهجرة . اما أيام الناصر التي نحن في أثنائها فكان قراء الفلسفة فيها قليلين وكان قد دخل بعض كتبها في أيام عبد الرحمن الاوسط فأخذ بعضهم بشيء منها ومن علم النجوم والرياضيات ولم ينبغ من العلماء في هذه الفنون الا بضعة قليلة . ولما كان رجال الدين يحرمون [illegible] [illegible] اقتدوا بالدولة العباسية [illegible] [illegible] رجال الفلسفة [illegible] لكثير من عوامل التمدن الاسلامي

---

(١) المقري ج ٢

الفصل الثلاثون

الحمى الغضبية

كان عبد الله يراقب حركات سعيد في انتقاء الكتب حسب المواضيع وربما ساعده في فرزها وهو في شاغل من نفسه بامر أخيه وعابدة . ونحو الظهيرة أحس بانحراف في صحته وتعب فأخبر سعيداً أنه ذاهب للراحة . وبقي سعيد ثم جاء الفقيه فلما قيل له أن عبد الله في فراشه أتى سعيداً وأخذ يساعده ويحادثه ويتكهن كل منهما بما عساه أن يكون جواب الحكم على كتاب عبد الله الاخير مع مافيه من المغامز . فكان الفقيه يزعم أنه يتنبأ بما سيكون حتى قال « كأني ارى جند الحكم وأعوانه قادمين للقبض علينا وعلى عابدة »

فهز سعيد كتفيه كأنه يقول « لا أعلم » ثم قال « لا أحسب ولي العهد يفعل ذلك . . . مالنا وله فليفعل ماشاء ان عابدة لاتذهب اليه ولو رضي الامير عبد الله »

فضحك الفقيه واقترب من سعيد وفي يده كتاب ينفض عنه الغبار ويقدمه اليه ليضعه في مكانه وقال « وزبدة القول أن النفور قد وقع بين الاخوين ولايلبث اميرنا أن يوافقنا على القيام وأنت ترشدنا الى الاحزاب فلا يمضي العام الا وقد انتقلت ولاية العهد أو الخلافة الى صاحبنا »

فنظر سعيد في عيني الفقيه وقد استغرب تسرعه في الحكم كيف أنه تصور بلوغه الى أقصى المراد وهم لا يزالون في اول الطريق بل هم لم يخطوا خطوة واحدة بعد — ومن الناس من تراه سريع الحكم يجل الامل حسن الظن بالدهر اذا تصور عملا يعود عليه بالنفع فبمجرد التصور أو الظن يحسب الامر قضي وانه نال مايريد . فهذا وأمثاله لا يرون الدنيا إلا من وجهها الابيض ويعبر عنهم بالمتفائلين لانهم لايتوقعون دائما إلا الخير

وكان الفقيه منهم . خلافاً للفئة الاخرى التى لايتوقع أصحابها في أعمالهم إلا الفشل وهم المتشائمون

وكان سعيد لامن هؤلاء ولا من هؤلاء وإنما كان يقيس المستقبل على ما يراه في الحاضر . فكان رأيه في عاقبة تلك المخابرة يختلف عن رأي الفقيه ولكنه كان لدهائه يتظاهر بالجهل والسذاجة حتى يدس مايريد دسه من الاغراض . وكان ينظر الى الفقيه نظره الى طفل لايعرف من أحوال الدنيا شيئاً فيديره كما يشاء

قضوا ذلك النهار في المكتبة والامير عبد الله لم يخرج من فراشه . ولما أمسى المساء ذهب الفقيه للسؤال عن الامير فقيل له أنه محموم وعنده ساهر الحاجب فاستأذن في الدخول عليه فأذن له وسأله عن حاله فرأى الحمى قد اخذته فقال له « ألا تأمر بالطبيب يراك ؟ »

قال « وأي طبيب ؟ »

قال « الاطباء كثيرون في قصر أمير المؤمنين واذا شئت استحضرنا لك سلمان بن تاج طبيب أمير المؤمنين نفسه او احمد بن جابر طبيب ولي العهد[1] أو غيرهما ان الاطباء كثيرون »

فهز رأسه وقال « لاهذا ولا ذاك . . »

فقال الفقيه « أو اذا شئت استشرت سعيداً صاحبنا فانه عالم بفن العلاج مثل علمه بسائر العلوم . . انه رجل عجيب »

فلما ذكر سعيداً أحس الامير عبد الله بارتياح وقال « ان هذا الرجل من نوادر الزمان . واشكر الله لانى وفقت للوصول اليه . ولك فضل في ذلك »

فأطرق الفقيه تأدباً وقال « بالحقيقة ان سعيداً نادر المثال . . »

فقال الامير « وعابدة ؟ أليست نادرة المثال أيضاً ؟ . . . هل رأيت مثالها فتاة أديبة تعرف الشعر والغناء ؟ » وكأنه تذكر حديث الامس

(١) طبقات الاطباء ٤٦ ج ٢

فانقبضت نفسه فابتدره الفقيه قائلا « هل يأذن سيدي في استقدام سعيد لعله يصف لك علاجاً ؟ »

قال « ادعه ان لم يكن للعلاج بدوائه فالانس برؤيته »

فأشار الى ساهر فخرج وعاد وسعيد معه وكان الليل قد ضرب سرادقه وانيرت المصابيح ولحظ سعيد من احمرار عيني الامير ان الحمى شديدة عليه فأخذ يده فجس نبضه وأطرق كأنه يتأمل حركة النبض ثم قال « ألم يجمع مولانا الامير ماءه (البول)[1] »

قال « قد جمعته في هذه القارورة » واشار الى الغلام فاتاه بقارورة قد جمع فيها البول . فتناولها سعيد ونظر في الماء هنيهة ثم قال « ان مولانا مصاب بحمى غضبية وهذا النوع من الحمى لاخوف منه وان اشتد »

فاعجب عبد الله بسرعة حكمه ووافق ذلك ما في نفسه لانه يعتقد ذلك . وكانت هذه الحمى معروفة عندهم بهذا الاسم يومئذ في اصطلاحهم فقال « اظنك عرفت الحقيقة لاني اصبت بها مرة قبل هذه وشفيت منها . يظهر انك طبيب ماهر »

قال « ان معرفة هذه الحمى سهلة »

قال « كيف عرفتها . وعلى من قرأت الطب »

قال « تعلمته بالمزاولة بعشرة امام الاطباء الشيخ محمد بن زكريا الرازى رئيس بيت الشفاء في بغداد وهو الذي دبر مارستان الري والف كتاب الحاوى الذي عليه معول الاطباء اليوم في دار السلام »

قال « صدقت ان الرازي امام اهل الطب ولكنني أحسبه مات »

قال « نعم أنه مات منذ بضع عشرة سنة وقد جاء فى كتابه المشار اليه وصف كاف عن هذه الحمى »

---

(١) كانت العادة في ذلك العصر ان الانسان حالما يشعر بانحراف في صحته يبادر الى جمع البول في قارورة يحملها الى طبيبه يتساعد بها على تشخيص المرض وقد يكتفي بارسال القارورة

قال « ماهو العلاج ؟ »

قال « انه يعالجها بالمفرحات من الحكايات وبسماع الطيب واللعب ودخول الحمام بالماء الفاتر والتمرخ بدهن كثير والتغذية بما يبرد ويرطب(١) »

فقال الفقيه « لله درك من طبيب نطاسي . . . ان العلاج سهل . اما المفرحات فهذه عابدة قريبة وعودها رخيم والحمام الفاتر سهل المنال »

فأشار عبد الله الى الغلام ان يعد له حماما فاتراً والتفت الى سعيد وقال « سأدخل الحمام بعد قليل ومتى خرجت منه تأمر عابدة ان تغنينا صوتاً مفرحاً »

فنهض سعيد وهو يقول « سأعود الى الامير بعد قليل ومعي عابدة . . رعياً لها من فتاة لها نفع كثير »

وخرج ومعه الفقيه ثم احضر له المروخ ليتمرخ به عند الخروج من الحمام . وبعد ساعة بعث الامير اليه انه خرج وتمرخ فجاء سعيد ومعه عابدة تحمل عودها وجاء الفقيه ودخلوا على الامير في غرفته واخذت عابدة تضرب على عودها وتغني وكان الامير قد احس براحة منذ خرج من الحمام فانشرح صدره لسماع الغناء واستأنس بالفتاة وزاد تمسكا بها وشعر براحة تامة كأنه لم يكن به بأس . فلما انقضى بعض الليل اشار سعيد عابه بالرقاد باكراً التماساً للراحة فاطاعه وخرجوا على ان يبكروا في الغد وذهب كل الى منزله في قصر مروان

وفي صباح اليوم التالي خلا سعيد بعابدة يعلمها شيئاً من الشعر . وهي انما كانت تقبل مجالسته شغفاً بحديثه ورغبة في رؤيته لما داخلها من [illegible] به فانها انما كانت تحبه وتتفانى في حبه لاتبالي بما [illegible] في سبيل طاعته

---

(١) القانون

الفصل الحادى والثلاثون

طارق

وهو في ذلك جاءه رسول الامير يستقدمه اليه فاسرع وقبل وصوله الى باب القصر لحظ ان بالباب رسولا صقلبياً من صقالبة الناصر وتأكد ذلك لما أقبل على الباب فرأى الرسول واقفاً هناك وقد ترجل عن جواده وبجانب الجواد هودج عليه الاستار مرخية كأن فيه امرأة

فلما أقبل على الباب تقدم الحاجب ساهر واستقبله وأشار اليه ان يدخل على الامير فدخل توا فرآه لا يزال في فراشه وقد نزع عمامته ولبس قبعة النوم . ورأى الفقيه بين يديه وكلاهما ساكت وفي يد الامير رق عرف من العلامة التي على ظهره انه كتاب من أمير المؤمنين . فتجاهل وحيا وهو يبتسم وينظر الى الامير نظرة مستفهم عما هو فيه وابتدره قائلا « كيف أصبح مولانا ؟ »

قال « اصبحت بخير من فضل الله وقد فارقتني الحمى لكنني لا أظنها الا عائدة الى قريباً »

قال « لا تخف ياسيدى . . انها لا تعود بعد ذهابها . وماذا أرى ؟ » وأشار الى الرق

فاشار عبد الله الى الفقيه ان يغلق الباب ومد يده وناول الرق الى سعيد

فناوله وقرأه وأعاد قراءته ثم نظر الى الفقيه فرآه ينظر اليه وينتظر مايبدو منه فتألفت سعيد حوله ثم وجه كلامه الى الامير عبد الله وقال « هذا شأن آخر ؟ لم يخطر لى حديثه . . »

قال الفقيه « لم يخطر الى مولاي ولكنه خطر لى . . ولله لو تصدقوني »

قال سعيد « لم يخطر لى ان امير المؤمنين يعالىء ولي العهد على طلبه »

فقال الفقيه « استغرب كيف لم يخطر لك ذلك وأنت الحكيم العاقل الذي لا يفوته شيء . . ألا تعلم ان الرجل اذا انغمس في الترف والقصف طلب الزيادة منهما ؟ واذا تعود الاستبداد هان عليه الظلم ؟ »

وكان عبد الله مطرقاً يفكر فرفع رأسه وقال « يهون عليه ان يظلم ابنه ايضاً ؟ »

فقال الفقيه « هو لم يظلم ابنه ولكنه ظلم الامير عبد الله التقي الزاهد انتصاراً لابنه العامل على رأيه في كل شيء . . انتصر لولي عهده »

فقطع سعيد كلامه قائلا « انه لم ينتصر ولي العهد وانما يطلب عابدة الى قصره »

قال عبد الله « يطلبها اليه ليعطيها لولي عهده . . » قال ذلك وحرق اسنانه واستلقى على الفراش وتنهد

فقال سعيد « لا تغضب ياسيدي كن على يقين ان ولي العهد لا ينالها وقد سمعت من عابدة نفسها في الامس انها لا تذهب اليه ولو قطعوها ارباً »

قال « ولكن هل نعصى امر والدي في ارسالها ؟ ألا ترى انه يطلب انفاذها اليه في هودج القصر ؟ ألم تر الهودج في الحديقة ؟ »

قال « نعم رأيته واذا ذهبت الى القصر فهو قصر الزهراء لا يقيم فيه ولي العهد كما تعلم »

قال الفقيه « ولكنه يحتال هذه الحيلة علينا لعلمه ان الامير عبدالله لا يمكن ان يعصى أمر والده فيرسل الفتاة حالا ومتى صارت في قصر الخليفة سلمها الخليفة الى ولي عهده »

فأطرق سعيد هنيهة وهو يعمل فكرته ثم أعاد النظر الى الرق وقرأه ثانية وقال « لا يمكن ان يفعل ما تقول فانه يطلب ارسال عابدة ليراها بعد ان سمع بأدبها ورخامة صوتها . نعم هو يقول انه سمع ذلك من ولي العهد ولكنه اذا رآها لا يعطيه اياها »

قال الفقيه « وهل تظن ولي العهد يسكت عنها ولا يطلبها من أبيه ؟ واذا طلبها منه هل تظن أمير المؤمنين يغضبه ويمنعها عنه ؟ »

قال سعيد « أظنه يغضبه ولا يعطيه إياها »

فقال الفقيه « وهل يرضى الحكم بذلك ؟ ويرضخ كما يرضخ مولانا الامير ؟ »

فقطع الامير كلامه قائلا « ان طاعة والدي فرض علي وعليه فاذا لم يرض أو اذا آثره والدي علي بهذه الجارية . . . » ولما وصل الى هنا اعتدل في مجلسه وقد أخذه الغضب وجعل يحك عثنونه ويهز رأسه يتشاغل عما جال في خاطره

فقال الفقيه « اسمع يامولاى . . اذا امتنع أمير المؤمنين عن تسليمها لاخيك وغضب هذا وتنافرا كان ذلك غاية مانرجوه لان الخليفة يرجع عند ذلك الى حسن النظر ويجعل ولاية العهد اليك . ولكن ما قولك اذا لم يتغاضبا عليها ؟ »

وكان الامير عبد الله قد اشتد حنقه حتى عجز عن الكظم وخصوصاً في انحراف مزاجه — والرجل في حال مرضه تظهر له الامور غير ما تظهر في حال صحته . فربما هان عليه وهو في اعتدال مزاجه وتمام صحته أمور لاتهون عليه وهو مريض وذلك أمر مشاهد لا ريب فيه . حتى التوعك البسيط فانه يبعث صاحبه على حدة الطبع والخروج عن الاعتدال فيخونه الصبر ويعصاه الكظم فيقول مالا يرضاه لنفسه وهو في صحته — فالامير عبد الله كان يحمل نفسه مضض الكظم خوفاً من الفشل وكان يرجو نصرة أبيه فلما رأى أباه يطلب نفس ماطلبه أخوه غضب وهان عليه الخروج . فلما سمع سؤال الفقيه « واذا لم يتغاضبا » صاح « اذا لم يتغاضبا فاغضب أنا »

فقال الفقيه « وهل تعرف الغضب ياسيدى ! »

فنظر سعيد الى الفقيه شزراً وقال « أراك لا تحسن التعبير يافقيه — ان العاقل لا يغضب الا قليلا واذا غضب كان غضب عظيماً . ألا تذكر ما كان من صبر مولانا وطول أناته وكم أردت اغضابه ولم يغضب لانه كان يتوسم باباً للفرج محافظة على كرامة أمير المؤمنين ومراعاة لحقوق أخيه

فلما لم يجده الصبر غضب وليس غضب مثله يجوز في كل حال لانه لا يغضب ويرضى في كل ساعة كالاطفال وانما يصبر ويكظم حتى اذا يئس من المسالمة غضب فتغضب لغضبه الامة برمتها ولا يرضيه عند ذلك كلمة لطيفـة . وانما يرضيه حقه أن يعود اليه بعد ضياعه » وكان يتكلم بلهجة الجد فلما وصل الى هنا تراجع وأظهر أنه صرح بما لم يكن يريد التصريح به

الفصل الثانى والثلاثون

الى امير المؤمنين

فأثر قوله في الامير عبد الله ورأى الحق في جانبه وحاول مع ذلك أن يمسك نفسه فلم يجد له مسوغا بعد أن رأى أباه ضافر أخاه على سلبه تلك الجارية فلاح له عند ذلك أن يتثبت من المساعدة التى يرجو أن ينالهـا اذا ناهض أباه لـكنه تهيب أن يطلب ذلك من تلقاء نفسه . ونظر سـعيد في عينيه نظرة اكتشف بها مكنونات قلبه وأدرك ما يجول في خاطره فعلم أن الطبخة أوشكت أن تنضج فاراد أن يتعجل نضـجها فدنا من مجلس الامير ونظر اليه نظرة الجد والاهـتمام وقال « اعلم يامولاي أنك لم تدخر وسعاً في مجاملة أخيك وأنت الآن ينبغى لك أن تجامل أباك على شرط أن لا يقلل من منزلتك ولا يعز أخاك عنك فاذا أنصفك فهو أمير المؤمنـين . والا . . فلا يـدم الحق انصاراً »

قال الامير « ترى اذن أن أرسل اليه [illegible] ؟ »

قال « لا يقول في كتابه انه يحب أن يراها ثم يعيدها . . . وأنا [illegible] [illegible] أنها [illegible] لاعادتها وأنها [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] »

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] عابدة قصر الزهراء [illegible] .

[illegible] [illegible] الآن .

[illegible] [illegible] « [illegible] [illegible] من منزلى إلا بالقوة »

فقال سعيد « ليس هذا من حسن السياسة في شيء . . سنذهب الآن وإذا مضى يومان ولم يؤذن برجوعنا حق لك كل ما تريد »

وكان الفقيه يفكر في الامر ولا يرى هذه الطريقة تنيله مطلوبه فربما حبس سعيد هناك ولا يبقى له من يعول عليه في نصرة الامير للقيام على أبيه فقال « لا نأمن اذا دخلت قصر الزهراء أن يحجر عليك »

فقطع كلامه قائلا « لا تخف »

وهم في ذلك جاء ساهر وقال « ان الرسول يطلب الجواب حالا »

فالتفت سعيد الى الامير فرآه ينظر اليه فقال ؟ اكتب الى أبيك أنك أطعت أمره وأرسلت الجارية مع استاذها واطلب اليه أن يعيدها اليك بعد يومين ... هل أكتب عنك لانك تعب من الحمى ؟ »

قال « افعل »

فتناول قرطاساً وقلماً وكتب :

« الى أمير المؤمنين الناصر من ولده عبد الله

« أما بعد فقد أخذت كتاب سيدى الوالد يطلب به الجارية الاديبة التي كان أخي الحكم طلبها لنفسه فدفعته بالحسنى على أن يكتفي بما منح من نعم الله وفضل أمير المؤمنين ويترك لى هذه الجارية أتمتع بأدبها وغنائها في وحدتي وانقطاعى . ثم جاءنى كتاب مولاي بتوجيهها اليه ليراها ثم يعيدها فأطعت وقمت وقد أنفذتها مع أستاذها سعيد الوراق . وهو الذي جاءني بها واشترط أن يكون في صحبتها ليقرئها الآداب ويحفظها الشعر وهو أهل لثقة أمير المؤمنين وعهدي بالمولى حفظه الله أن يعمل بما قال وعنده الوف من الجواري الحسان على اختلاف الاصناف فلا يبخل على بهذه وقد استأنست بأدبها . . . . . وهو فاعل إن شاء الله »

ودفع الكتاب الى الامير عبد الله وقرأه ووقع عليه اسمه ودفعه الى ساهر ليعطيه الى الرسول واستأذن سعيد بالذهاب الى عابدة وكانت في غرفتها

تنتظر أمر عبد الله في الخروج اليه . فلما رأت سعيداً قادما عليها خفق قلبها فرحا برؤيته فهش لها وسلم عليها ومد يده لمصافحتها فصافحته وقلبها يرقص فرحاً ولبثت تنتظر مايقوله

فأجلسها وجلس الى جانبها وهو ينظر في عينيها فلم تمالك عن الاطراق فقال « قد وفقت الى ما يسرك »

فأجفلت وقالت « هل آن لنا أن نجتمع ؟ »

قال « نعم »

فضحكت فرحاً وقالت « اين ؟ »

قال « في قصر الزهراء »

فدهشت ولم تفهم مراده وبان الاستغراب في وجهها وقالت « مالى ولذلك القصر ؟ »

قال « ان المهمة التي جئت من أجلها لا تتم إلا هناك »

قالت « انى لا أطلب القصور »

فقال « ألا يسرك أن نكون معاً هناك »

قالت « كلا . لاني لا أكون لك »

قال « لايتم لنا ما نريده إلا بعد الذهاب الى ذلك القصر وستكونين هناك جارية منادمة وادب الى اجل مسمي . . »

فقطعت كلامه قائلة « لا . لا أريد القصور . أفضل أن أكون معك في كوخ حقير على ان اكون . . »

فقطع كلامها وقال وهو قابض على يدها ينظر في عينيها « اريد ان نكون معاً هناك وقد وعدت أن تساعديني على الغرض الذى قمنا من اجله »

فأحست بقشعريرة ذهبت بارادتها وشعرت انها طوع ارادته ولم تمالك ان قالت « افعل ما تريد اذا كان ذلك يسرك »

قال « لا يسرني فقط ولكنه واجب لا بد من قضائه ، فاذا فرغنا [illegible] [illegible] . . . . هل انت على وعدك [illegible] يسرك به »

قالت « نعم »

فمد يده الى جيبه واستخرج حقاً فيه مسحوق وقال « احتفظى بهذا العقار لابنك بما يلزم أن تعملى به »

فتناولت الحق وجعلت تنظر فيه فقال « لا تنظري فيه طويلا سوف تعلمين ماذا تفعلين به . خبئيه بين اثوابك وانهضى لنذهب معاً ان الهودج في انتظارك خارجاً »

فنهضت واصلحت من شأنها وهى مسرورة بانها تفعل ما امرت به ونسيت ارادتها وتغاضت عن امنيتها كانها اخذت بالاستهواء

خرجت وركبت في الهودج وتوجه هو الى الامير عبد الله فودعه وودع الفقيه وطمأنهما وركب بغلته وسار في اثر الهودج يطلبون قصر الزهراء

ولم يكن لهم بد من المرور على القنطرة فوق الوادى الكبير فتجاوزوها والرسول يتقدمهم وهم يسيرون في اثره وسعيد يهيء ما يقوله وعابدة داخل الهودج تسترق النظر اليه من خلال السجف كلما سنحت لها الفرصة وكلما رأته تتنهد وتقول كانها تخاطبه « مالنا وللملوك والدول دعنا من هذه المطامع ولنعش معاً في رغد وهناء . ليس في صحبة الملوك غير العناء . ولكن ابت مطامعك إلا أن تشقى واشقى انا معك ولا ندري مصيرنا اين يكون »

الفصل الثالث والثلاثون

قصر الزهراء

وبعد أن قطعوا الجسر عرجوا غرباً بجوار القصر الكبير ثم ساروا شمالا يطلبون الزهراء وهي سفح جبل أسود على أربعة أميال من قرطبة والطريق بينهما ، بين قرطبة صحراء رملية

أقبلوا على الزهراء عند قبيل الظهر وكان يوماً صاحياً صواً جوه فبانت

أبنية الزهراء كالجبال الراسخة تتخللها الاغراس من الشجر والرياحين وتنعكس الاشعة عن جدرانها الملونة بأنواع الرخام أو الاصباغ وبينها القباب والمآذن والقناطر والعقود والاساطين وعليها النقوش والتصاوير. غير الاحواض فوقها التماثيل من المرمر المصفح بالذهب. فدهش سعيد لتلك المناظر ولم تكن أول مرة رأى بها الزهراء ولكنه لم يكن تبين تفاصيلها فرأى أن يلهو بقية الطريق بالاستفهام عنها فنادى الرسول الصقلي فوقف ولباه فقال سعيد « اني أرى الزهراء أعجب ماصنعه الآدميون »

قال « نعم ياسيدي . قد أجمع الذين شاهدوها أنها أعظم ماصنعه الانس وقد دخل فيها من النفقة الطائلة مالا يقدر — فان أمير المؤمنين أخذ في بنائها منذ بضع عشرة سنة ولا يزال العمل جارياً ولا أظنه يفرغ قبل مرور عدة سنين »

قال سعيد « أتعرف كم بلغ مقدار النفقة ؟ »

قال « لا أعرف مقدارها تماماً ولكنني أعلم أن عدد العملة فيها ١٠٠٠٠ عامل وعدد الدواب ١٥٠٠ دابة . وقدروا ماينفق فيها من الصخور المنحوتة كل يوم بستة آلاف صخرة سوى الاجر . وأما الرخام فهو كثير في هذا القصر كما ترى ومع ذلك فان أمير المؤمنين يثيب عن كل رخامة صغيرة أو كبيرة عشرة دنانير ولم يدع بلداً فيه رخام الا بعث في اشتراء رخامه حسب الاجناس . فجاب اليها الرخام الابيض من المرية والمجزع من رية والوردي والاخضر من أسفاقس وقرطاجنة . وفي بعض هذه القصور حوض من الرخام منقوش بالذهب قد استجلبه من القسطنطينية فانظر الى هذه الهمة العالية هل سمعت بمثلها في الملوك ؟ »

فأحب سعيد أن يستزيده شرحاً عما في تلك القصور من أدلة البذخ والاسراف فقال « لا أعرف مثله ولكنني سمعت بعض الملوك لا يكتفون بالرخام بل يبنون أبنيتهم ويحلونها بالذهب والفضة . »

فتبسم الصقلي لكلامه وقال وهو يضحك ويشير بيده الى قصر نحو

الشرق « أرأيت هذا القصر الشاهق هناك ؟ انك لاترى منـه الا ما يكاد يخطف البصر من الاشعة اللامعة المنعكسة عن الجدران والنوافذ . ولو اقتربت منه لرأيت عجباً . ان هذا القصر يعرف بالمؤنس ويسمى أيضـاً المجلس الشرقي وفيه بيت المنام . وفي هذا البيت ١٢ تمثالا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس من صنع دار الصناعة في هذه المدينة بينها صورة أسد الى جانبه غزال فتمساح وغيرها من أصناف الحيوان مصنوعة من الذهب المرصع . ويخرج الماء من أفواهها الى حوض كبير — ان بناء هذا القصر كلف أمير المؤمنين مالا يقدر . ولم يعول في مناظرة بنائه على غير ابنه ولي العهد ولا يزال العمل جارياً فيه . فاذا اعتبرت مايقتضيه ذلك من الاموال علمت مقدار ما دخل فيه من الدنانير على اني سمعت صديقاً لي من خصيان هذا القصر يقول إن أمير المؤمنين ينفق ثلث جباية المملكة في بناء هذه القصور »

فصاح سعيد « ثلث الجباية ! إن ذلك كثير . . . أتعرف مقدار الجباية ياصاحب »

قال « أعرف انهـا نحو ستة آلاف الف الف دينـار هكذا يقولون (١) »

فقال سعيد « فاعتبركم هو ثلثها واجمع ذلك مراراً . . . لايخلو هذا القول من مبالغة »

قال الخصي « لا . لا أظنك تجد فيه مبالغة اذا عرفت كيف بنى قصر الخلافة ايضاً وهو البناء الذي تراه في أواسط هذه القصور . ان قصر الخلافة هذا سمكه من الذهب والرخام الغليظ وفي وسطه اليتيمة التي جاءتنا هدية من اليون ملك القسطنطينية . ويكفي أن تعلم أن قراميد هذا القصر من الذهب والفضة (٢) غير الصهريج العام في وسطه مملوء بالزئبق ولهذا القصر أبواب عقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سوارى من الرخام الملون والبللور الصافي .

(١) المقري ٢٠٢ ج ١ (٢) المقري ٢٥٥ ج ١

ولا حاجة بي الى زيادة التفصيل اذ لا تلبث أن ترى ذلك رأي العين فلا تستغرب عند ذلك مهما قدرت النفقة »

فقال سعيد « لا تستهن بمقدار الجباية ولكنني سمعت من بعضهم أن مقدار النفقة تبلغ كل عام ٣٠٠٠٠٠ دينار فانظر كم يجتمع من ذلك حتى يتم البناء في أربعين سنة »

وكانت عابدة تسمع حديثهما وتعجب وتاقت نفسها الى رؤية ماهنالك من التحف وذهبت وحشتها من ذلك الانتقال

وكانوا يقتربون شيئاً فشيئاً حتى اقبلوا على باب الزهراء الاول ويعرف بباب الاقباء وقد وقف عنده الحرس من الفرسان العبيد وبعض الحشم . فلما رأوا الصقلبي عرفوا أنه رسول الخليفة فتنحوا له حتى دخل بالهودج وسعيد معه يتفرس في وجوه الناس هناك فرأى اكثرهم من العبيد . فمشى مسافة حتى أقبلوا على الباب الثاني من ابواب الزهراء ويعرف بباب السدة وهو عظيم قائم على أساطين وعليه البوابون وأعوانهم بالالبسة الخاصة بهم . وبعد أن دخلوا هذا الباب جعلوا يمرون بين الاشجار وبينها طرقات مرصفة بالحصى الملونة . وقد تزينت جوانبها بالرياحين والازهار . ونظر سعيد الى ماحوله فوجد نفسه محاطاً بالقصور من كل ناحية . وأول ما استقبله القصر الممرد وفيه السطح الممرد يجلس فيه الخليفة في الاحتفالات الكبرى والى يساره قصر الخلافة يجلس فيه الخليفة للعمل والى اليمين قصر المؤنس وفيه بيت المنام وغرف الجواري

الفصل الرابع والثلاثون

ياسر

وشغل سعيد بمشاهدة السارحين في تلك الحدائق من الغلمان الوصفاء عليهم الالبسة الملونة تزيدهم جمالا وقد تقلدوا السيوف الحالية . غير كبار خصيان وذوي الاسنان . ولم يلتفت أحد منهم الى الهودج واصحابه

لانهم كثيراً مايرون الجوارى تحمل به الى هناك

وكان سعيد يبحث بنظره بين هؤلاء لعله يجد ياسراً صاحبه ثم انتبه أنه لابد أن يراه ليسلم اليه عابدة لتكون في عهدته حتى يطلبها الخليفة فنادى الرسول فوقف فقال له « أين هو ياسر رئيس الخصيان »

فأشار بيده نحو قصر المؤنس وقال « نحن ذاهبون اليه »

فمشى سعيد معه حتى اذا اقترب من ذلك القصر رأى الرسول يترجل بسرعة فادرك أنه يفعل ذلك لانه رأى أحداً ممن يحتشم منهم قادماً. فالتفت فاذا هو بياسر قادم وحوله الغلمان كانه ملك بين الاتباع والاعوان فاسرع الرسول اليه وقبل يده ووقف متأدباً فسأله عن خبره فدفع اليه كتاب الامير عبد الله وأشار الى سعيد . فالتفت ياسر اليه وحالما وقع نظره عليه عرفه وتقدم نحوه فاسرع سعيد اليه وحياه فابتسم ياسر له وتعاهما . ثم أشار ياسر الى الغلام أن يأخذ عابدة الى غرفة خصوصية وأن يحسن وفادتها حتى يأمره باستقدامها ففعل

ومشى وسعيد الى جانبه بين أساطين قاعة هناك وفوقها عريش قد تسلقت عليه الاعشاب فلما خلوا قال ياسر « اني مسرور بقدومك »

فقال سعيد « لولا علمي أن قدومي يسرك لم آت .. كيف أنت وكيف مولانا ؟ »

قال « مولانا كما تعهده لايهمه الا الانفاق وانتم تعيبون عليه مسايرته لغير العرب ونحن لانراه يحسن مسايرتنا فلا العرب راضون ولا غيرهم — أنت تعلم منزلتي وبلائي في خدمته فانى أراه يقدم تماماً عني ولا يخفى عليك من هو تمام هذا وأنا قدمته حتى بلغ هذه المنزلة — دعنا من ذلك ما الذي جئت به اليوم ؟ »

قال « لا تغير الموضوع — انت تستغرب حال تمام معك وتعجب كيف يريد أن يحط من قدرك الا تعلم السبب . . ؟ »

قال «لا» قال « السبب انك أحسنت اليه وانك احسنت الى شخص آخر فساءه عليك »

فاطرق ياسر لحظة وقال « صدقت صدقت انك رجل حكيم . . قد اصبت الحقيقة عرفت الآن سبب هذا التغير »

قال « لا أعجب اذا عرفته أنت الآن وانا عرفته منذ أيام »

قال « ما هو »

قال « السبب أصله من الشخص الذي انت سبب نعمته . . . . نسي الآن فضلك عليه فضافر اعداءك »

قال « انت تعني الزهراء صاحبة المقام الاول عند امير المؤمنين وهي ليست بريئة من هذه التهمة لكنها اطاعت تماما الخبيث فذكرتني ذكراً بارداً عند الخليفة ففترت رغبته في وان كان لا يزال يظهر رضاءه عني . . ولكنني اعلم كيف امال منهما . دعنا الآن من ذلك واخبرني عما جئت من أجله »

قال « ألم تأخذ الكتاب »

قال « نعم لكنه كتاب الى أمير المؤمنين لم أفتحه »

قال « هو من الامير عبد الله ارسله مع هذه الجارية الى ابيه »

قال « أرسلها هدية له ؟ »

قال « برغم ارادته وكانت هذه الجارية عندى وهي جارية منادمة وأدب فرغب الامير إلى ان اتركها له واكون معها في قصره ارتب خزائن كتبه فأطعته . فلما سمع ولي العهد بخبرها كتب الى أخيه أن يرسلها فلم يرض فشكاه الى ابيه فبعث الناصر يطلبها لنفسه فلم يسع الامير عبد الله الا الطاعة ولكنه كتب اليه هذا الكتاب يرجوه فيه ان يعيدها اليه بعد أن يراها ولا اظنه يفعل »

فقال ياسر « واذا لم يفعل ما ظنك بعبد الله »

قال « [illegible] لا نزال [illegible] مداجته [illegible] ؟ ان الامير قد [illegible] »

قال « [illegible] ؟ [illegible] الله بالخير . هل [illegible] لنفسه [illegible] الجارية »

قال « [illegible] : انه لا يسكت على الضيم اذا سامه اياه ابوه »

وكانا يتحادثان وهما يمشيان في ذلك العريش يسمعان تغريد البلابل واصوات الكراكي وسعيد قد بهره كل ما رآه هناك . لكنه لم يصل بعد الى الموضوع الذي يهمه حقيقة ولكنه استبشر بقرب الوصول اليه وهو على قاب قوسين منه . ورأى أنه أبطأ في ايصال الكتاب الى الناصر فقال « الا تأخذ الكتاب الى صاحبه ؟ »

فقال « بلى . هل تأتي معي ؟ »

قال « ارافقك الى قصر الخلافة وبعد تقديم الكتاب فاذا امر الخليفة بادخالي دخلت »

الفصل الخامس والثلاثون

مجلس الخليفة

قال « حسناً » ومشى وسعيد يمشي الى جانبه واتجهت انظار الخدم نحوه هذه المرة لانه مع ياسر رئيس الخصيان وهو صاحب النفوذ الاكبر في قصر الناصر والناس لا يعرفون ما حدث في خاطره كما عرف القاريء . ولكن سعيداً شغل عن كل ذلك بفخامة قصر الخلافة فما اطل على بابه حتى بهره ما نزل فيه من الذهب وما على عتبته من بديع النقش فوقف الحجاب تعظيماً لياسر فحياهم ثم سألهم « هل عند امير المؤمنين احد ؟ »

فأجابه رئيس الحجاب « ليس عنده سوى القاضي منذر بن سعيد »

فتذكر سعيد هذا الرجل وقد حضر خطبته يوم الاحتفال برسل ملك الروم وادرك انه أنما نال القضاء بسبب ذلك

اما ياسر فدخل وسعيد معه فدهشه داخل ذلك القصر اضعاف ما ادهشه خارجه لان جدرانه مبطنة بالرخام الملون على اختلاف الوانه بشكل عجيب وسقفه قد نزل فيه الذهب [illegible] الى باحة كأنما سقفها مزين بأنواع الاصبغة الذهبية والمعلقة رفوف بالحراب والسيوف وكان سعيد يمشي ولا يتكلم وقد اخذه ذلك البذخ الباهر

ولحظ ياسر دهشته فقال « اراك قد دهشت لما تراه ونحن لم ندخل مجلس الخليفة بعد فاذا دخلته فهناك الدهشة »

فقال « وهل في الامكان افخم من ذلك قد شاهدت قصور الخلفاء في بغداد ودمشق فلم ار مثل هذه »

قال « ان اولئك كانوا يستنكفون من استخدام الذهب في ابنيتهم . امكث هنا حتى ادخل واعود اليك »

فوقف وشغل بمشاهدة ما على رخام الجدران من الرسوم الجميلة المنزلة بالذهب وما في الارض من الطنافس المزركشة . وهو في ذلك رأى الحجاب الصقالبة في حركة كانهم يتأهبون للسلام على قادم . فالتفت فرأى منذر بن سعيد خارجاً من مجلس الخليفة فاصبح يتوقع سرعة استدعائه اليه لكنه مكث طويلا ولم يطلب فشغل خاطره . ثم جاءه احد الخصيان يسأله الدخول على امير المؤمنين فدخل متأدباً وكان قد شاهد الناصر في قصره بقرطبة يوم استقبال رسل ملك الروم وكان ابناؤه الى جانبيه . اما في ذلك اليوم فلم يكن في مجلسه سواه بعد ان صرف قاضيه منذر بن سعيد

فلما دخل سعيد على الخليفه رآه في صدر المجلس قاعداً على سرير من الذهب الخالص . والمجلس المذكور قاعة كبيرة جداً في وسطها بركة يأخذ لمعانها بالبصر لانها مملوءة بالزئبق تقع عليه أشعة النور من نوافذ في جدران المجلس يغشاها زجاج ملون فيتلون سطح الزئبق ألواناً جميلة يزيدها لمعان سطحه جمالا

والمجلس أربعة جدران في كل جدار منه ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سوارٍ من الرخام الملون والبلاور الصافي . وقد دخلت الشمس من تلك الابواب فضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فتولد من ذلك نور يأخذ بالابصار . وكان الناصر اذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أومأ الى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من

النور ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل للحضور أن المجلس قد طار بهم مادام الزئبق يتحرك (١)

ومع رباطة جأش سعيد وكبر نفسه لم يتمالك عن الدهشة من فخامة ذلك المجلس . ولو نظر الى السقف لرأى قرميده من الذهب والفضة مرتباً في هندسة جميلة ولكنه اشتغل بالمثول بين يدى الخليفة فوقف عن بعد وحنا رأسه ثم حيا الناصر بتحية الخلافة فقال « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » وظل واقفاً فوقع صوته في أذني الناصر موقعاً جميلا فاشار اليه الناصر أن يتقدم فدار حتى وقف بين يديه فأومأ اليه أن يقعد فقعد وياسر لا يزال واقفاً . ثم انصرف ياسر ولم يبق في ذلك المجلس الكبير إلا الخليفة وسعيد

وتأدب سعيد في قعوده واطرق فوقع بصره على الزئبق فشغله لمعانه الباهر ولكنه مكث صامتا ينتظر امر الخليفة وكان قد لحظ في وجه الناصر انقباضا وكأنه شاهد في عينيه دمعا فافتتح الخليفة الكلام فقال « أين الجارية التى بعث بها ولدنا »

قال « هي في قصر امير المؤمنين استلمها عبده ياسر رئيس الخصيان »

قال « من أين أتيت بها ? بلغنى من كتاب ولدى هذا انك صاحبها تعلمها وتهذبها »

قال « هي يا امير المؤمنين جارية ادب ومنادمة من مولدات بغداد »

قال « بلغني انها تحسن الغناء ايضا »

قال « نعم ياسيدى انها كذلك »

فقال الناصر وهو يمشط لحيته بأنامله « بارك الله في بغداد انها لاتزال تأتينا بالتحف والذخائر . وهل انت من بغداد ايضا ? »

قال « ان عبد امير المؤمنين من هذه الديار ولكنني رحلت الى بغداد والشام في طلب الكتب وجمع نوادر الادب »

قال « بلغني انك من نوابغ الرجال »

---

(١) المقري ٢٥٠ ج ١

فوقف سعيد تأدباً وحياء وقال « لست شيئا ولـكنني اكون كما يشاء امير المؤمنين »

فقال الناصر وهو يشير اليه أن يقعد « اقعد ولا ينبغي أن تهيب من مجلسنا فقد علمت من خادمنا ياسر انك من اهل العلم الواسع ونحن نحب العلم ونكرم العلماء »

فتحفز سعيد للوقوف ثانية فأقعده الخليفة وقال « قلت لك لا تهيب ان العلماء ملوك العقول ولا يستغني ملوك الرقاب عنهم . كن مطمئنا ولازيدك اطمئنانا اقول لك انظر الى عيني »

فرفع سعيد بصره ونظر في عيني الخليفة فرأى الدمع فيهما وأحس الخليفة عند وقوع بصره على بصر سعيد بقوة اثرت فيه كأن سعيداً ارسل من عينيه اشعة نفذت في احشاء الناصر . ولـكنه اتم حديثه فقال « ارأيت الدمع في عيني ؟ انه من احترامنا لاقوال اهل العلم . أرأيت قاضينا خارجا الآن ؟ »

قال « نعم يا مولاي »

قال « وقد كان عندي الساعة ولعلك تعلم اني وليته القضاء بالامس فما عتم ان خطب في المسجد وجعل موضوع كلامه ذم تشييد البنيان والاستغراق في الزخرفة والاسراف في الانفاق وأغرق في ذلك فعرفت انه ينتقد ما اخذت به من هذه الابنية فما ملكت أن بكيت ثم استقدمته الى اليوم لاسأله عما أراده فما كتمني قصده وأتاني بآيات من القرآن الكريم تقبح عملي فاشفقت على نفسي وبكيت . وانما اتيتك بهذا القول ليسكن ما بك وتخلص لي الخدمة »

فحنا رأسه وقال « اني عبد امير المؤمنين وطوع ارادته »

قال « اني أعرفك قبل الآن ياسعيد وقد طالما قرأت اسمك على الكتب التي أحضرت لنا على يدك . . فهل عندك كتب جديدة ؟ »

قال « لا يخلو الامر من كتب سأعرضها على أمير المؤمنين ولكنني أتيته بكتاب حي ناطق لا يسأل عن ادب او شعر الا نطق به »

فشخص الناصر فيه كأنه يستفهمه . فقال « اعني الجارية عابدة التي صارت في قصر الزهراء الآن فهي تغني عن الكتب وقد انقطعت عن سائر الاعمال في سبيل تعليمها »

قال « سنحضرها ونشنف أسماعنا بحديثها . . واما الآن فاصدقني . قد بلغني انك بارع في فن التنجيم »

فقال « ذلك شيء تعلمناه من الصغر ولا نزال بعضه عالقاً بالذهن »

قال « ان خير العلم ما أخذ في الصغر لانه يكون كالنقش في الحجر »

الفصل السادس والثلاثون

التنجيم

ولم يبرح الملوك في عصر الاستبداد يشعرون بحاجتهم الى المنجمين لكثرة من يحدق بهم من أهل الدسائس والمتملقين فهم لا يثقون بهم ولا يرون لهم بدأ عنهم . فاذا كانوا يعتقدون النجامة استعانوا بها على استطلاع الاسرار وكشف المؤامرات . وكان الناصر قد سمع عن سعيد الوراق من قبل وعن مهارته في كل فن ولما دخل عليه ياسر بكتاب ابنه عبد الله ذكر سعيداً بالخير وأطرى علمه وبراعته في النجامة فوقع من نفسه موقعاً حسناً . ولم يكن الناصر ساذجاً فلم يشأ ان يستسلم لسعيد قبل ان يتدبر أمره فسأله عن قبيلته فقال له ياسر « انه غريب لا اهل له ولا يهمه غير الاشتغال بالكتب وبيعها » فسبق الى ذهنه حسن الظن به وفتح له قلبه من اول جلسة ولما كلمه شعر بقوة فيه ارتاح لها وتوقع أن يكون له عون في اضاءة طريقه

أما سعيد فلم يفته شيء مما جال في خاطر الناصر فاخذ يستعد لتدبير ماجاء من أجله فقال « لا ينبغي لمولاي حفظه الله أن يستسلم لخبير مثلي ولا يركن الى النجامة كثيراً فانها قد تخطيء »

فاعجب الناصر بتواضعه وزاد وثوقاً به فقال « ان تنصلك من المعرفة

التامة يزيدني ثقة بعلمك فاني لم أر بين المنجمين الكثيرين في قصري من يعترف بالقصور مثلك »

فرفع سعيد بصره الى الناصر وحدق في عينيه وقال « ولكنني لا أحب أن ادعي منجماً . . اذا شاء مولاي ان ينتفع بشيء من علمي فارغب اليه أن يكتم خبري عن خاصته ولا يعدني في جملة المنجمين بل يجعلني في جملة الخدم ويجعل اني معلم لتلك الجارية وأنا لا أدخر وسعاً في بذل روحي في خدمته من كل وجه »

فاستحسن الناصر رأيه وقال « سأفعل ذلك أما الآن وقد فتح الحديث فاخبرني بما يدلك عليه علمك من حالنا . قل لا تخف »

قال « اني لا أخاف شيئاً ولكني أطلب الى مولاي أن يخلص النية في ما أقوله وربما كان في بعضه ما يخالف اعتقاده .. »

فاستبشر الناصر بشيء يطلع عليه فقال « قلت لك قل ولا تخف . أخرج كتابك وانظر الى وقل ما يدلك عليه علمك »

فمد سعيد يده الى جيبه واستخرج كتاب التنجيم ففتحه وأخذ يقلب فيه وينظر الى الناصر ويعيد النظر الى الكتاب ويعد على أصابعه ويلتفت الى أشعة الشمس تارة والى بركة الزئبق تارة أخرى . ثم أظهر الارتباك وقال « اعفني يا سيدي من القول اليوم »

قال « لست تاركك حتى تقول »

فاعتدل في مقعده وأعاد النظر في الكتاب ثم قال « اني أرى الخوف يأتي أمير المؤمنين من أكثر الناس ثقة عنده . . » وسكت وهو يقلب في صفحات الكتاب ويراقب ما يبدو من الناصر

أما الناصر فكان لكلام سعيد وقع شديد على سمعه وقد نبه أفكاراً كانت كامنة في قلبه ولكنه غالط نفسه وتظاهر بالاصغاء كأنه يسمع بقية الحديث

فلم يفت سعيداً ما جال في خاطر الخليفة فاستأنف الكلام قائلا « أخشى أن يكون مولاي امير المؤمنين قد ندم على سؤاله وإلحاحه »

فقال « كلا بل بالعكس فاني مصغ لما تقول . ولكن نصف الخطاب ليس له جواب . قل . صرح »

قال « يظهر ان مولاي يظن المنجم يستطيع تعيين الاشخاص فاذا كان قد قيل له ذلك من قبل فان القائل ليس من المنجمين أو انه يزعم للتنجيم قوة فوق قوته ـ ان هذه الصناعة تقبل التدجيل والايهام مما لم آلفه ـ وأنا لا أقول إلا ما تدلني عليه الصناعة تماماً وهي انما تشير إلى الاوصاف والاحوال .. وقد قلت لسيدى ان الطالع دلني ان الخوف فى دار أمير المؤمنين من أكثر الناس ثقة عنده وأقربهم مودة اليه ولو سألنى عن اسم ذلك الرجل أو تلك المرأة فلا يكون جوابي الا من قبيل الرجم بالغيب »

فأعجب الناصر بما رآه من صدق لهجة الرجل وعزة نفسه ولكنه توهم انه يشير الى أناس لا يريد الناصر أن يرتاب بهم ولا هو يرتاب بصدق المنجم فأصبح في حيرة وندم على تعريض قلبه للشك لانه شديد الحرص على ذلك الحبيب محل ثقته ـ وهى الزهراء اذ لم يكن أعز منها على قلبه ولا يريد أن يجعل سبيلا لسوء الظن بينه وبينها نظراً لولعه بها وشدة تعلقه بحبها وقد أنفق الاموال في تشييد تلك القصور لاجلها فكيف يجاب التعس لنفسه بالشكوك وهو لا يرى له غنى عنها بوجه من الوجوه ـ وقد امتلكت فؤاده وغلبته على أمره . فلم ير خيراً من قطع الحديث أو تحويله فقال « لله درك من حكيم خبير قد فهمت مرادك وسنعود الى اتمام المقال . أما الآن فأرى ان نشاهد تلك الجارية الاديبة »

فأسرع سعيد الى طي الكتاب وجعله في جيبه وقال « هى في دار مولاي بقصر المؤنس في حياطة عبدك ياسر » قال ذلك وقد سره اكتفاء الخليفة بما قاله

قال سنبعث اليه أن يهيء لنا الجارية ويحضرها الليلة الى بيت المنام في المجلس الشرقى (المؤنس) »

فأدرك سعيد انه قد آن الانصراف فتحفز للنهوض وهو يقول « هل

يأذن سيدي ان أمرنا على شيء تقوله في حضرته ؟ »

قال « لا بأس بذلك . . افعل »

الفصل السابع والثلاثون

عابدة

فخرج سعيد بعد ان حيا وتأدب على جاري العادة ومشى في الايوان والخصيان وقوف باسلحتهم وملابسهم

ولم يكد يخرج من الباب حتى لقيه ياسر ومعه رجل عرف سعيد من لباسه وقلنسوته انه سليمان أبو بكر بن تاج طبيب الناصر . وكان سعيد يعرفه ويعرف مهارته في الطب ومنزلته عند الناصر بعد ان شفاه من رمد [1] عرض له فحياه فابتدره ياسر قائلا « ألم تعرف هذا الطبيب ؟ »

قال « كيف لا ؟ أليس هو أبا بكر بن تاج الحكيم النبيل ؟ »

فهش له الطبيب وصافحه وقال « لله درك صدق الاستاذ ياسر . . انك لا تجهل شيئاً وقد سرني أن لقيتك الساعة وأنا أعلم مهارتك في معرفة الكتب وقد سمعت بكتاب في الطب قيل لي انه أحوى الكتب وأحسنها . . »

فقطع سعيد كلامه قائلا « لعلك تعني كتاب الحاوي لمحمد بن زكريا الرازي »

فبدا الاستغراب في وجه الطبيب لسرعة خاطر سعيد وتفطنه وقال « اياه أعني »

قال « الحاوي كتاب نفيس وهو أحسن كتب الرازي وأعظمها في هذه الصناعة لانه جمع فيه كل ما وجده متفرقاً في ذكر الامراض ومداواتها من سائر الكتب الطبية للمتقدمين ومن أتى بعدهم الى زمانه ونسب كل شيء نقله فيه الى قائله » (٢)

---

(١) طبقات الاطباء [illegible]

قال الطبيب « هذا هو الكتاب . وقد سمعت اطراءه كثيراً فيه فهل من سبيل اليه ؟ »

قال « لا أعرف منه نسخا في قرطبة ولكنني أبعث من يستنسخه لك في بغداد . وقد درسته وحفظت أهم مواده » قال ذلك وهو يمشي والطبيب بجانبه وياسر الى الجانب الاخر والحرس ينظرون الى ذلك الضيف ويعجبون بما لاقاه من الحفاوة لدى أمير المؤمنين

قال ابن تاج « اذا آذنت الفرصة في استنساخ هذا الكتاب لي عددت ذلك فضلا كبيراً لك »

قال « سأفعل ان شاء الله » والتفت الى ياسر وقال « أخبرني أمير المؤمنين انه سيكلفك تحضير عابدة الليلة في بيت المنام ليسمع غناءها وأنا ذاهب الان لتعليمها بعض ما تقوله في حضرته »

فعلم الطبيب انه آن له أن يستأذن بالانصراف وهو يثني على سعيد وسار سعيد وياسر الى جانبه وهو يقول له همساً « كيف وجدت الرجل (يعني الناصر) ؟ »

قال « انه كما ينبغي ولكل أجل كتاب »

ثم سمع ياسر صوتاً يستوقفه فنظر فاذا بعض الصقالبة يقول له « ان امير المؤمنين يدعوك اليه » فقال « انى آت الساعة » ثم التفت الى سعيد وقال « اني منصرف الى أمير المؤمنين واذهب أنت مع هذا الصقلبي وهو يدلك على مكان عابدة »

ومشى سعيد والصقلبي بين يديه حتى أتى قصر المؤنس فتحول به الى غرفة من غرف الاضياف وقال له « سأرسل اليك عابدة الساعة » ومضى . .

ومكث سعيد وهو يعمل فكرته في ما يدبره لاتمام غرضه . وبعد قليل جاءت عابدة وقد تزينت بأحسن الملابس وانتقت من الحلى ما زادها جمالا ثم بعدها بياسر قبل فعلم انها تتوقع احداً ما غيره ورحب بها وأجلسها الى جانبه فجاءت وهي تبتسم وفيها تحقق وقد تبادر الى ذهنها

أن حسن هندامها يزيده رغبة فيها لانها مابرحت الى تلك الساعة تخاف صدوده . ورغم ماكان يبديه لها من الانعطاف ما زالت تخاف أن يؤخذ منها . أما هو فرحب بها وبالغ في اظهار اعجابه بها فجلست وهي مطرقة تنتظر ما يبدو منه فقال لها « كيف تجدين نفسك هنا ؟ »

فتنهدت وقالت « أجدني تعسة »

قال « أتقولين الحق ؟ »

قالت « نعم وحياتك » قالت ذلك وصوتها يرتجف

فقال « وهل يمكن أن تكوني في حال أحسن من هذا وأنت الآن جليسة الخليفة وموضوع اعجابه »

فتنهدت وهي تنظر اليه وتحاذر أن ينظر اليها لئلا يدفع نظره نظرها وقالت « ألم أقل لك اني لا اطمع بشيء من هذه السفاسف وانما منيتي وغاية مطلبي هي أن . . . » وسكتت

فقال « فهمت مرادك وقد قلت لك ان ذلك ميســور لنا متى شئنا ولكن لابد من اتمام الامر الذي جئنا به . أين هو ذلك الحق ؟ »

قالت هو « عندي في مكان أمين »

قال « احتفظي به . . واعلمي ان أمير المؤمنين سيدعوك الليلة ليسمع حديثك ويتمتع بغنائك فابذلي الجهد في ارضائه »

قالت « سأفعل ذلك جهد طاقتي »

قال « غنيه مما حفظته من كتاب الاغاني »

قالت « حسناً . . سأفعل »

قال « هل عرفت أحداً من أهل هذا القصر ؟ »

فاحفلت لعلمها ان ذلك القصر ليس فيه أحد غير الجواري والسراري وهي تغار من مجرد سماع ذلك من حبيبها ولكنها لم تستطع السكوت عن الجواب فقالت « عرفت بعض نسائه »

قال « من عرفت منهن ؟ »

قالت « [illegible] أن أتعرف [illegible] زينة هذه القصر [illegible] »

قالت ذلك وهي تنظر اليه وعيناها تبرقان وتراقب ما يبدو منه

فاظهر عدم الاكتراث بما ظهر منها وقال « الزهراء ؟ قد بلغني انها ربة هذه القصور لشدة تعلق الخليفة بها . . هل هي تستحق هذا الاكرام يا ترى ؟ »

قالت « أما أنا فلا أراها بالعين التي يراها بها الناصر ولعلي أظلمها اذا قلت انها قلما تمتاز عن كثيرات من نساء هذه القصور . . »

فقال « لاشك أن حب الخليفة لها يرفع مقامها . فأرجو أن تنالي من الخليفة الليلة ما يجعلك في منزلة أعلى من منزلتها »

فقطعت كلامه قائلة « لا . لا أريد ذلك . . وان كنت أراه بعيداً عني إذ ليس في ما يبعث على الاعجاب وأنا فتاة مسكينة أحفظ الابيات من الشعر وأتلوها وهذا لا يعجب الا القليلين . . وهب اني كما قلت فانا لاأريد أن استقر في قلب أحد سواك . . آه ياسعيد » وتلعثم لسانها وكاد الدمع يتناثر من عينيها

فضحك سعيد باستخفاف وقال « كم يجب أن أكون سعيداً بهذه المحبة ! »

قالت « انك سعيد يا سعيد وأنا الشقية » وغصت بريقها

فابتدرها قائلا « لا أزال أراك تستسلمين للشك . . »

قالت « كلا . . ولكن قلبي يدلني . . لا لا . لا شك انك تحبني ولو على سبيل الشفقة علي . . ألا تشفق على قلبي ؟ . طبعاً أنت ترى ما أنا فيه من الهيام بك وترى أني مستهلكة في سبيل مرضاتك . . فكيف لاتحبني أو لا تشفق علي . . » ومسحت عينيها بكمها

فنظر اليها وحدق فيها وقال « أراك عدت الى الشك »

فقطعت كلامه مسرعة وقالت « لا لا . أنا واثقة بك فافعل ما تريد »

قال « سترين صدق قولي . . والآن ا لي ما قلت لك . . ولكن أخاف أن تنفر الزهراء منك »

قالت « ولماذا ؟ أنا لا أسابقها على شيء الا اذا كانت تسابقني هي . . »

وعضت على كمها باسنانها كأنها تلهو بذلك عن التصريح بما كادت تنطق به
فوقف وهو يمد يده الى يدها ليصرفها فاحست أنه يريد الذهاب
فجذبت يدها من يده وقالت «هل أنت ذاهب ؟ »
قال نعم « ولكننا سنكون معاً الليلة في حضرة الخليفة »
فتنهدت وقالت « نعم سنلتقي ولكن . . »
فامسك يدها وودعها وهو يقول « ابعدي عنك البلابل والمخاوف فان الوقت قد دنا اذهبي الآن الى غرفتك » قال ذلك وخرج
فظلت هي واقفة لحظة تنظر اليه ثم تحولت نحو القصر تمشي الهوينا وقد استغرقت في أفكارها وتحيرت في أمرها

الفصل الثامن والثلاثون

جوهر

وسار سعيد الى حيث علم انه يرى ياسراً فلما التقيا دعاه ياسر الى الطعام معه . وهما يأكلان قال ياسر « ما الذى فعلته بالخليفة »
قال « لم أفعل شيئا ولماذا ؟ »
قال « رأيت الخليفة قد تغير كثيراً وامتلأ اعجابا بك »
قال « لم أفعل شيئاً يوجب اعجابه وما هو التغيير الذي أصابه ؟ »
قال ياسر « لا أقدر أن أعين التغيير الذي حصل ولكنني فهمت ذلك من سوق حديثه في بعض الشؤون المتعلقة بالزهراء »
فلما سمع سعيد ذلك الاسم اختلج قلبه ولكن رباطة جأشه اخفت ذلك عن جليسه فقال « لماذا تغير عليها ـ لا أظنك مصيباً لانى لم أذكر هذه الجارية في حديثي معه مطلقاً »
قال « لا أعلم ما الذي قلته له ولكنني أعلم انى رأيته تغير ـ وعلى كل حال ان هذه الجارية قد بالغت في الاستبداد وآن لها أن تعرف ما لها وما عليها » قال ذلك باحس الهدى

فجعل سعيد انه لم يهمه الامر كثيراً وقال « ربما كان السبب في تغيره عليها مالحظه من استبدادها فقد علمت انها اصبحت لفرط دلالها تتطلب أمورا ليس من شأنها حتى أسمعها الناصر ما تكره وظل غاضبا عليها يوماً وليلة »

فبغت ياسر ونظر الى سعيد فرآه مستغرقاً في تقطيع صدر دجاجة بين يديه كأنه لم يقل شيئاً فقال ياسر « ومن أبلغك هذا الامر ؟ ليس في هذا القصر احد يعلم ذلك غيرى لان الناصر اسمعها تلك الكلمات وغضب عليها ولم يدع احداً يشعر خوفاً من الشماتة لان كل نساء هذا القصر يحسدن الزهراء على منزلتها . قل لى كيف عرفته ؟ »

قال « عرفته » وهز كتفيه وحاجبيه وهو ينظر الى السقف تجاهلا

فقال « بالحقيقة انك ماهر بالتنجيم كأنك تطلع على الغيب . لله درك من عالم حكيم »

فضحك سعيد وقال « ان الامر لايحتاج الى معرفة الغيب .. دعنا من ذلك الآن وقل لى هل أوصاك الخليفة باعداد مائدة الليلة ؟ »

قال « نعم »

قال « وهل طلب اليك ان تكون الزهراء حاضرة »

قال « نعم »

قال سعيد « فاذاً سنراها الليلة . . . اي طالما سمعت بجمالها ... »

فقطع ياسر كلامه قائلا « ولكنه أمرني أن تجالسكم من وراء الستار وكثيرا مايفعل ذلك في مثل هذه الحال لانه شديد الغيرة عليها »

فقال سعيد « من وراء الستار ؟ وما هي لذته بمجالستها على هذه الصورة ؟ »

قال « هو لايحجبها إلا اذا حضر مجلسه أحد من الرجال غيرة عليها والليلة ستكون أنت حاضراً . أين أجدك لا ذهب بك الى ذلك المجلس ؟ »

قال « انى ذاهب للاستراحة قليلا وربما نمت ساعة استعداداً للسهر »

قال « سآمر بك العشاء ونذهب معاً الى بيت المنام أو أرسل اليك من يأتي بك الي » ووقف سعيد فوقف ياسر وودعه وخرج الى غرفته ولم يكن يطلب الرقاد وانما أراد أن يخلو بنفسه للتفكير بما يكون تلك الليلة

وهو متوسد هناك وقد دنا الغروب سمع جلبة وقهقهة في ساحة القصر فاصغى فاذا بجماعة من الخصيان يداعبون خصيا منهم وهو يصيح فيهم

فلما سمع سعيد صوته استبشر وعلم انه قادم اليه وقال في نفسه « أتى جوهر الخبيث »

ثم سكتت الجلبة وبعد قليل دخل على سعيد خصي قصير العامة غريب الهيأة قصير الساقين كبير الرأس واسع الوجه بارز الجبهة قبيح الخلقة عليه لباس ثمين لكنه يضحك الثكلى لغرابته على رأسه قبعة طويلة مخروطية الشكل في رأسها شرابة وعليه جبة من خز مطرزة تحتها قفطان من حرير أحمر لامع ـ دخل على سعيد ولم يحي فنهض سعيد وقال له « ما الذي جاء بك ياجوهر ؟ »

فتقدم الغلام وقبل يد سعيد وقال « أتيت أعرض عليك خدمة أقوم بها . »

قال « ومن أنبأك اني هنا ؟ »

قال « هل تفوتني حركة من حركاتك ياسيدي » كيف تأتي هنا ولا أعلم ؟ »

قال « كيف هي ؟ »

قال « هي كما تعهدها لا تزال خالية الذهن ـ صابة القلب »

قال « هل علمت اني في قرطبة ؟ »

قال « لا تعلم سيئاً من ذلك »

قال سعيد « ألم تعبر محبتها لذلك الرجل ؟ »

قال « ان ذلك الرجل لم يترك لها سبيلا للتفكير بسواه اذا غضبت رضاها واذا أمرت أعذ أمرها عما تكن كما قلت الك قبل الآن »

فاطرق سعيد وقال « هل من أحد ان جئت هذا المكان ؟ »

قال « من يعلم ذلك ؟. قد أتيت بحجة اللعب في ساحة القصر مع بعض الرفاق الصقالبة وفررت من بينهم كأني أطلب حاجة لنفسي »

قال « نحن الليلة ضيوفكم في بيت المنام »

قال « أعلم ذلك وانما أتيت لاخبرك انها ستحضر المجلس وتسمع الغناء وهي شديدة الولع بالصوت الرخيم ولها صناعة في الموسيقى تضرب على العود وقد حفظت كثيراً من الشعر ولما علمت اليوم بمجيء عابدة رأيت الغيرة دبت في عروقها وأظنها تحب أن تزداد توسعاً في هذه الصناعة »

قال « تحب أن تتعلم الاشعار والغناء ؟ »

قال « أظنها تميل الى ذلك »

قال « فاذاً أنت تعرف كيف يجب أن تجعلها تطلب من مولاها أن أعلمها الشعر . . فهمت ؟ »

قال « نعم ياسيدي . . سمعاً وطاعة . . اني لا أنسى فضلك »

فقطع سعيد كلامه قائلا « هل أنت منقطع لخدمتها الآن ؟ »

قال « أنا منذ بضعة أسابيع في خدمتها وأراها ترتاح الى وتطرب لمنظري وحديثي لكنني أحسبها هذين اليومين في شاغل اذ يندر أن تطلبني اليها ولا أعلم السبب »

قال « ألعلها غضبة أم عاتبة أم خائفة ؟ »

قال « لا أعلم وربما كشفت السبب بعدئذ ــ هل تأذن بانصرافي الآن فاني اخاف أن يستبطئوني ويطلعوا على خبري معك »

قال « اذهب »

فانحنى وحيا ومضى

الفصل التاسع والثلاثون

بيت المنام

مكث سعيد وهو يهيء نفسه ويصلح من شأنه استعداداً للذهاب مع ياسر اذا أتاه أو بعث في طلبه

وبعد العشاء أتاه بعض الصقالبة يدعوه الى قصر المؤنس فخرج ولما أطل على الحديقة بهره ما رآه فيها من المصابيح المعلقة باغصان الاشجار أو على الجدران أو القوائم حتى أصبحت الحديقة تتلألأ بالانوار . ومشى الخصي بين يديه حتى وصل الى باحة القصر المذكور فرأى الحرس وقوفاً باسلحتهم عليهم الالبسة الفاخرة . ولم يكد يطل على باب القصر حتى رأى ياسراً بين يديه فاستقبله وحياه ومشى امامه حتى دخل به الباب الى دهليز مضيء بالشموع العنبرية وقد فت المسك في الارض وفاحت رائحته فعطرت الارجاء . ولم يعجب سعيد من شيء شاهده هناك لم يشاهد مثله في قصر الخلافة ذلك النهار لكنه ما زال ماشياً وهو يسمع خرير المياه وصوت وقع الرشاش من مرتفع حتى أطل على قاعة أدهشه مافيها مما لم ير في زمانه مثله

وكان ياسر يسير بين يديه وهو يلفت انتباهه حيناً بعد آخر الى بعض النقوش البديعة فلما أطلا على تلك القاعة وقف سعيد من نفسه وقال «ماذا أرى ؟»

قال «هل أدهشك ما رأيته من التماثيل على هذا الحوض ؟»

قال «نعم . أعوذ بالله من قوم مسلمين يقتنون التماثيل»

قال وهو يهمس في أذنه «أرأيت هذا الحوض في وسط هذه القاعة» انه جاء الى أمير المؤمنين هدية من ملك القسطنطينية مع ربيع الاسقف وهو لا يقوم بمال لجماله وفرط غرابته وقد كلف مالا كثيراً وتعباً جزيلا قبل وصوله الى هذا المكان مخافة أن ينكسر ما عليه من تماثيل الآدميين»

فقال سعيد «ولكن هل يجوز في الاسلام اقتناء التماثيل ؟»

فقال ياسر ذلك مانقمه بعضهم على أمير المؤمنين ولكن الحوض جاءه هدية من ملك عظيم وهو لا يرى ضرراً من اقتنائه أو لعل الترف والانغماس في الحضارة سهلا عليه ذلك . فان منظرهذا الحوض مدهش . . أيه ؟ »

قال « نعم . . ولكنني أرى فوق الحوض تماثيل أخرى هل أتت أيضاً مع الحوض من القسطنطينية »

قال « ان التماثيل الذهب التي تراها فوق الحوض ليست من صنع بلاد الروم »

قال « وأين صنعت ؟ »

قال « صنعت في هذه المدينة وهي كما تراها جميلة وثمينة »

قال سعيد « كأني أراها مرصعة . . بماذا ؟ »

قال « انها مرصعة بالدر الغالى النفيس »

فدهش سعيد وشغل بذلك المنظر عما كان قادماً من أجله وقال « أرى هذه التماثيل كثيرة وكأنها تمثل بعض اصناف الحيوان »

فامسك ياسر بيده حتى دار به من جهة أخرى للحوض بحيث يتبين التماثيل من وجوهها فاذا هي ١٢ تمثالا من الذهب الاحمر مفرقة في اربعة مجاميع على جوانب الحوض . مجموع منها يمثل أسدا الى جانبه غزال الى جانبه تمساح . يقابله من الجهة الاخرى مجموع آخر هو ثعبان وعقاب وفيل . وفي الجنبين مجموعان آخران هما عبارة عن حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر . وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس يخرج الماء من افواهها [١] ويصب في الحوض . فوقف سعيد لحظة مبهوتاً ثم قال « وهذه التماثيل مصنوعة في قرطبة ؟ »

قال « نعم انها مصنوعة في دار الصناعة هنا »

قال « لم أكن أظن مثل هذا الاتقان ميسوراً في قرطبة لاننا لا نعهد مثله في غير القسطنطينية أو رومية »

(١) المقرى ج ١

قال « ان في قرطبة من الصنائع الجيلة ما يضارع أحسن ما يصنع في تينك المدينتين ولولا ضيق الوقت لذكرت لك شيئاً كثيراً منها . ولكنني أحسب مولانا الناصر قد استبطأنا »

قال « أين هو الآن ؟ »

قال « هو في مجلس يتصل اليه من هذه الدار ويشرف عليها بحيث يتمتع الجلوس هناك بمنظر هذا الحوض ويسمون خرير الماء فيه »

الفصل الاربعون

المجلس

فمشى سعيد بجانب ياسر وعيناه في ذلك الحوض وما يتألق حوله من المصابيح أو الشموع بالوانها المختلفة فتنكسر أشعتها في رشاش الماء المتساقط فتبهر النظر بجمالها . شغل ذلك المنظر ذهن سعيد حيناً ثم عاد الى هواجسه وخصوصاً لما وصل الى باب المجلس والخصيان وقوف عنده بالحراب وعلى العتبة عليه هذه الابيات :

صل من هويت ودع مقالة حاسد	ليس الحسود على الهوى بمساعد
لم يخلق الرحمن أحسن منظراً	من عاشقين على فراش واحد
متعانقين عليهما ازر الهوى	متوسدين بمعصم وبساعد
يامن يلوم على الهوى أهل الهوى	هل تستطيع صلاح قلب فاسد

فتذكر انه قرأ هذه الابيات وهو في بغداد في صدر مجلس المأمون (١) وتقدم فوسعوا لياسر فازاح الستارة ودعا سعيداً للدخول

فاطل سعيد على مجلس مرتفع لا جدار له من جهة الحوض بحيث يقع نظر الجلوس هناك على ذلك المنظر البديع . ورأى الناصر في صدر المجلس قاعداً الاربعاء على وسادة من الخز وعلى رأسه عمامة وشي صغيرة ينخدف بها في المساء وعليه جبة وشي خفيفة تشبهاً ببني أمية في الشام . وأول شيء

(١) الموشى

لفت انتباه سعيد رائحة الطيب فقد كانت مالئة المكان ورأى بين يدي الناصر عابدة جالسة مطرقة وبصرها يتجه خلسة الى ذلك الباب حيناً بعد آخر وهي تتوقع مجيء حبيبها سعيد . وقد مدت مائدة الشراب والفاكهة ووقف بعض الجواري فى أجمل ما يكون من الوجوه والقامات كلهن فتيات تمنطقن بالمناطق الحرير الملون وقد طرزت عليها أبيات من الشعر هذا مثال منها يقرأ على احدى تلك المناطق :

زنارها في خصرها يطرب　　　وريحها من طيبها أطيب
ووجهها أحسن من حليها　　　ولونها من لونها أعجب

وقد أرسلن أطراف المناطق من الخصور تتدلى فوق جلابيب تبرق ألوانها الزاهية وعلى ذيل بعضها هذان البيتان تطرزاً بالفضة :

أعيب عنك بود لا يغيره　　　نأي المحل ولا صرف من الزمن
تعتل بالشغل عنا ما تكلمنا　　　الشغل للقلب ليس الشغل للبدن

وعلى رؤوسهن أكاليل من زهر مضفور وقد ارسلت شعورهن الى الظهور ووقفن متأدبات ينتظرن الامر لصب الشراب أو تقديم الفاكهة . ومنظر المجلس على الاجمال يبهر النظر لما في أرضه من الطنافس المزركشة بابيات الشعر في نحو ما تقدم . وعلى جدرانه من الستائر الموشاة بأبيات من الشعر هذا بعضها :

هجرتني كي أجاريكم بفعلكم　　　لا تهجريني فاني لا أجاريك
قلبي محب لكم راض بفعلكم　　　استرزق الله قلب لا يحابيك
أصبحت عبداً لادنى أهل داركم　　　وكنت فيما مضى مولى مواليك

وكان أسلافهم في دمشق يفضلون الوشي على سائر الانسجة فقلدهم الناصر بذلك في فرش هذه الحجرة وفي لباسه الليلي

والظاهر أنه قلد العباسيين بتطريز الاشعار على الرياش والاثاث فقد كانت الطنافس والستائر مزينة بابيات جميلة فضلا عن ألبسة الجواري

حالما أطل سعيد على المجلس وقف بعيداً ونظر في جوانب الغرفة بخفة لعله يرى مكاناً لجلوس الزهراء اذا حضرت فتذكر أنها تجلس وراء الستارة

فرأى الى اليسار ستراً من الديباج الثمين يقطع الحجرة في عرضها وعليه طراز الذهب المزادن بالاشعار على نحو ماتقدم . وسمع حفيفاً وتمتمة فعلم أن الزهراء هناك فتجلد ـ وفي أثناء ذلك تقدمه ياسرفاخبر الناصر بقدومه فقال الناصر « يدخل سعيد الوراق معلم جاريتنا عابدة »

فدخل وتنحى ياسر فاشار الخليفة الى سعيد أن يجلس فبادرت احدي الجواري الى وسادة قدمتها له بجانب عابدة فجلس فقال له الناصر « لم نسمع شيئاً من عابدة بعد »

قال « إنها جارية مطيعة ما الذي يأمر به أمير المؤمنين ؟ . هل يلذ له الحديث أو الغناء ؟ »

قال « إن الحديث يلذ لنا هل تحدثنا بشيء لا نعرفه »

قال « انها تحفظ الشعر والادب والاخبار من كل نوع فما على أمير المؤمنين الا أن يعين الموضوع الذي يختاره »

فاطرق الناصر هنيهة ثم قال « اخبرتني أنها من مولدات بغداد ؟ »

قال « نعم »

قال « ان لبغداد نوادر غريبة . . نحن نحب أن نسمع عن أصحابنا البغداديين وان كانوا لا يحبون أن يسمعوا عنا » وضحك

فادرك سعيد تعريضه وقال « طبعاً هم لا يحبون سماع مايسوءهم لان أخبار مولانا أمير المؤمنين وما بلغ من سلطانه وسطوته وما أتاه من الفتح والنصر كل ذلك يسوء أهل بغداد سماعه لانه يهيج غضبهم وحسدهم وهم الآن في منتهى الاضطراب وقد ذهبت هيبة الخلافة منهم واستولى الاتراك على الدولة ووضعوا أيديهم على الحكومة وأصبح الخليفة عندهم اسما بلا مسمى . . أين هم من أمير المؤمنين صاحب السيادة جامع كلمة المسلمين والمنكل بالكافرين لم يمر بالمسلمين أيام كأيامه ولا رأى الاسلام عزاً مثل عزه . . »

وكان الناصر يسمع اطراء سعيد وهو مسرور فلما أكثر من الاطراء قطع حديثه قائلا « نعم ولكن للبغداديين عصراً لا مثيل له ـ عصر

الرشيد والمأمون . ولا يسعنا إنكار ما لهذين من الفضل في نقل كتب العلم ونحن الآن انما نجني ثمار ما غرساه ـ واني كلف بسماع أخبارهما وكثيراً ما أتقدم الى المحدثين أن يقصوا على حديثهما »

فقال سعيد « فأمير المؤمنين إذاً في غنى عن سماع شيء من أخبار تلك الدولة . . »

قال « بل أنا أحب ذلك ويعجبني منه ما كان يعقد من مجالس الادب والشعر وما كان يدور من الابحاث الجميلة »

الفصل الحادي والاربعون

العباسيون والامويون

فتصدت عابدة للكلام قائلة « إن مجالس الادب كانت تعقد في البصرة والكوفة على الاكثر وللكوفيين والبصريين مناظرات ومناقشات كثيرة فيها اللطيف والمفيد »

فاستحسن الناصر غنة صوت عابدة ولم يكن سمع صوتها بعد فلفت ذلك انتباهه فوجه كلامه نحوها وقال « أذكرتنى ياعابدة مناقشة طار ذكرها في الآفاق وقد حضرها الرشيد نفسه »

قالت « أظن مولاى يعنى مسألة الزنبور والنحلة »

فضحك الناصر وقال « نعم إياها أعني »

قالت « انها من أغرب الحوادث وهي تظهر أول وهلة مسألة لغوية أو نحوية ولكن خلفاء بغداد كانوا يخلطون السياسة في كل شيء حتى في النحو والحديث والتفسير »

فاعجب الناصر بحكمها الذى يدل على سعة في العلم وثقة في النفس وقال « ماذا تعنين بالسياسة ياعابدة ؟ »

قالت « أعني أنهم منذ قبضوا على أزمة الدولة لم يدخروا وسعه فى تأييدها ولو خالفوا فيه الشرع أو العقل حتى العلم »

فاستغرب الناصر هذا الحكم وأحب أن يطلع على حقيقته لانه يساعده في الدفاع عن خلافته وكان الى ذلك الحين يعدها مقلقلة فقال« ماذا تعنين بذلك ؟ »

قالت « أعنى أنهم لما قاموا يطلبون الخلافة من أجدادكم في الشام تظاهروا بالتقوى والعمل بالكتاب والسنة وطعنوا في خلفاء بنى أمية لانهم طلبوا الملك العضود وزعموا أنهم اتخذوا الفتك في سبيل الحكم . فلما ملكوا ارتكبوا أضعاف ما ارتكبه بعض أجدادكم من الفتك والقتل على التهمة . وكانوا يظهرون أنهم يفعلون ذلك رغبة في العلم أو الدين . ولو تدبرت الحقيقة لرأيتهم انما كانوا ينظرون من وراء ذلك الى مصالحهم — نصر أبو جعفر المنصور فقهاء العراق أصحاب الرأي والقياس على فقهاء المدينة أصحاب الحديث ولماذا ؟ هل فعل ذلك لانه يعتقد الحق في جانب أبي حنيفة رئيس أصحاب الرأى ؟ لا أظنه فعل ذلك إلا نكاية في مالك رئيس أصحاب الحديث فيها لانه أفتى بخلع المنصور . ولو لم يخلعه أو لو رأى في نصرته فائدة له لنصره »

وكان الناصر يسمع كلام عابدة بلذة وشوق لما حواه من الآراء الفلسفية التي لم يسمعها من أحد قبلها وخصوصاً لان الطعن في العباسيين يوافق سياسته وارتفعت فى عينيه وأراد أن يستزيدها فقال « بورك فيك من فقيهة عاقلة . لكنني رأيتك تشددين النكير على أصحابنا العباسيين وما أدرانا أن المنصور لم يكن ينصر أبا حنيفة لاعتقاده صحة رأيه ؟»

قالت « دعنا من الفقه والحديث والتفت الى ما كان من الرشيدوأبنائه في مسألة الزنبور والنحلة وهي من المسائل النحوية »

قال « هل ترين في هذه أيضاً وجهاً سياسياً ؟ »

قالت « نعم يامولاى . . لان العباسيين كانوا يرغبون في نصرة أهل الكوفة لانهم نصروهم لما قاموا لطلب الخلافة فقدموهم على أهل البصرة وقربوهم اليهم فطمع الكوفيون بمسابقة أهل البصرة وصاروا يجادلونهم فى المسائل النحوية وفي الادب والشعر حتى قامت مسألة الزنبور والنحلة بين

سيبويه من أهل البصرة والكسائي من أهل الكوفة وكان الكسائى يعلم الامين بن الرشيد وكان الامين ينصره باعتبار أن انتصاره انتصار أهل الكوفة جميعاً وهم أنصار الخلفاء . . . »

فقطع الناصر كلامها قائلا « صدقت صدقت ولولا ذلك لم يتخذ الامين كل وسيلة لقهر سيبويه فانه بعد أن ظهر للملأ أن الحق في جانبه أغرى ذلك البدوى على تخطئته والحكم للكسائي فخرج سيبويه من بغداد وقصد بلاد فارس . لاشك أنهم ظلموه كما قلت تحزباً لانصارهم الكوفيين . . لله درك من حكيمة »

الفصل الثانى والاربعون

الغنـــــاء

وكان سعيد في أثناء ذلك يوجه انتباهه الى ما وراء ذلك الستر لعله يسمع شيئاً يهمه فشعر بحركة فادرك أن الزهراء لابد أنها ملت سماع ذلك الحديث من فلسفة التاريخ وأنها صارت شديدة الميل الى سماع الغناء فنظر الى عابدة وأومأ الى جيبها يشير الى القانون الذي كانت تركبه وتدق عليه والتفت الى الخليفة وقال « ان الحكمة لاتحلو من فم المرأة يا أمير المؤمنين كما يحلو الغناء . . »

فضحك الناصر وأشار الى السقاة فصبوا الاشربة من أباريق الفضة في أقداح الذهب وقدموا للناصر ولسعيد وأمر الجارية ان تشرب فاستأذنته في اعفائها من الشرب

فقال « اشربي يا عابدة . . ليس هـذا مسكراً وانما هو نبيذ التفاح اشربى »

فمدت يدها وتناولت القدح فرأت عليه نقشاً يحيط به هو بيتان من الشعر هذا نصها :

وما لبس العشاق ثوباً من الهوى ولا أخلقوا إلا بقيـة ما ابلى

ولا شربوا كأساً من الحب حلوة ولا مرة إلا وشربهم فضلي

فشربت وشرب سعيد فقال الناصر « هل تسمعيننا شيئاً من الغناء »

قالت « كما تشاء يا امير المؤمنين »

فقال سعيد « هل يأمر أمير المؤمنين أن تغنى غناء اهل الاندلس ام غناء اهل العراق ام اهل المدينة ؟ »

فقال « اما غناؤنا فاننا نسمعه وعندنا من يحسنه ولكننا نحب سماع غناء اهل بغداد . اما غناء اهل المدينة فهو الغناء القديم ولا بأس به »

فتذكر سعيد انه يشير الى الزهراء وهي التي تحسن غناء اهل الاندلس وهو يعلم انها وراء ذلك الستر فاحب ان يسمع غناءها فقال « اذا استحسن مولانا ان يأمر بعض جواريه المغنيات بالغناء على طريقة اهل الاندلس وعابدة تغنى على طريقة اهل بغداد كان ذلك مجاوبة جميلة »

فقال الناصر « صدقت » واومأ الى احدى الجواري الواقفات في خدمتهم فتقدمت نحوه فاشار إشارة فهمتها فمضت الى وراء الستر ففهم سعيد انه امر الزهراء بالغناء وقال الناصر « سنسمع غناء اندلسيا على العود فاين عود عابدة »

قال سعيد « انها تضرب على عود لامثيل له ولا أظنكم سمعتم به لانه حديث العهد في الصناعة ومخترعه لايزال حياً »

فشخص الناصر ببصره الى عابدة فلم يجد معها عوداً الى جانبها وهم أن يستفهم سعيداً عما يعنيه فرأى عابدة تمد يدها ثم استخرجت منه الخريطة وأخذت تركب عيدانها حتى صارت آلة قد شدت اوتارها فقال الناصر « هذا عود ؟ »

قالت « كلا ياسيدى انه القانون »

فقال « اظنه الآلة التي ركبها الفارابى في حضرة سيف الدولة ؟ »

قالت « نعم ياسيدي هي »

قال « سمعت أنها ادهشت الحضور فابكتهم ثم اضحكتهم . . فهل تحسنين الضرب عليها وممن اين تعلمت ؟ »

فاجاب سعيد عنها قائلا « ادركت الرجل في مكان واخذت عنه مثال قانونه ومبادىء صناعته وعلمت ذلك لعابدة »

فقال الناصر مستغرباً « وانت علمتها الموسيقى ايضاً ؟ »

قال « نعم ياسيدي »

فقال « بورك فيك . . انك تصلح لكل شيء » والتفت الى عابدة وقال «اسمعينا . او عجلي لنسمع صوتاً من غناء اهل الاندلس . . »

وصفق وأصغى الجميع فخرج من وراء الستر صوت عود بصناعة جيدة . وكان اكثر الناس اصغاء سعيد ثم سمعوا الغناء فطرب الناصر طرباً شديداً حتى اذا فرغ الغناء وراء الستار نظر الناصر الى عابدة كأنه يستطلع رأيها في ما سمعته فقالت « انه صوت مطرب سمعت مثله ممن يحفظ غناء زرياب المغني . . »

فقطع الناصر كلامها قائلا « غناء زرياب ؟ . صدقت ان هذا المغني هو الذي حمل هذه الصناعة الى الاندلس . وقد قال الذي نقل هذا الصوت الينا انه من اصوات زرياب فاسمعينا ماعندك من غناء بغداد »

وكانت قد اصلحت القانون فتناولته واعتدلت فى مجلسها وجعلت تضرب عليه ضرباً لم يسمع الناصر مثله وكان قد استخفه الطرب وهاجه الشراب فجعل يحرك يديه ورجليه ويزحف عن سريره فاغتنمت عابدة تلك الفرصة وغنت صوتاً لابراهيم بن المهدي احسنت توقيعه واعرابه فلم يتمالك الناصر ان صاح من الطرب « لله درك من مطربة معربة . زيدينا زادك الله جمالا وصنعة »

فغنته صوتاً آخر على لحن زاده طرباً . واشار الى الجواري ان يسقينه فدارت الاقداح وسعيد يظهر انه يشرب ولا يشرب وكذلك عابدة فلما احس سعيد ان الشرب اخذ من الناصر اشار الى عابدة فاصلحت العود على اصلاح الفارابي كما فعل في حضرة سيف الدولة ففعلت فغلب على الناصر الضحك واغرب فيه وسعيد راقب ما يبدو وراء الستار فسمع همساً وضحكا فادرك ان ضحك الناصر وشدة طربه من غناء عابدة يهيجان حسد الزهراء

الفصل الثالث والاربعون

النحنحة

وهم في ذلك سمعوا نحنحة من وراء الستر لم يفطن لها الا سعيد وراقب مايبدو من الناصر بعدها فرآه انتبه لنفسه بغتة وامسك عن الضحك وقال لعابدة « لقد اطربتنا بارك الله فيك »

فادرك سعيد انه يريد فض الجلسة فأومأ الى عابدة فتحفزت للنهوض فلم يدعها الناصر للبقاء لكنه أشار الى قيمة الجوارى الواقفات للخدمة ان تزيد عابدة حفاوة فمشت بين يديها الى غرفتها

وتحفز سعيد للنهوض والاستئذان فأومأ اليه الناصر ان يمكث فمكث ونهض الناصر ودخل من باب يؤدي الى غرفة اخرى واشار الى احدى الجواري فدخلت وراء الستر . فشعر سعيد انه بعث الى الزهراء لتمضي اليه . فلبث وهو يعمل فكرته فيما عسى ان يكون سبب تلك الدعوة ولم يبق في تلك القاعة سواه

وهو في ذلك رأى الستر يتحرك واذا بجوهر خارج من ورائه فلما رآه فرح بمجيئه وتوقع أن يسمع منه شيئاً جديداً فسأله بالاشارة فتقدم اليه وهمس في اذنه « ان الغيرة كادت تقتلها »

ففهم انه يعني الزهراء فقال « ماذا فعلت ؟ »

قال « لم تتمالك ان تنحنحت للناصر لتزجره عما أظهره من الاعجاب والخفة »

فضحك سعيد وقال « لا بد انك ساعدت في ايقاد تلك الغيرة . . طبعاً . وأخيراً ماذا ترى ؟ »

قال « اني أثرت غيرتها بجعلها تفهم ان اتهام عابدة سيعقد لها عليها لدى الخليفة وأثرت عليها أن تدعى الآنا »

قال « على من ؟ »

قال وهو يتطاول ليهمس في أذن سعيد « ستطلب من الخليفة أن يكلفك في تعليمها غناء بغداد . . »

فبان البشر في وجه سعيد وقال « وهل تظنه يقبل ؟ »

قال « اذا طلبت ذلك اليه لا يخالفه لانه طوع ارادتها . ألم تر مبلغ تأثير تلك النحنحة فيه وهو في ابان طربه ؟ »

قال سعيد « لقد أحسنت ياجوهر بورك فيك طالما توقعت منك المهارة والذكاء . . اني أسمع قعقعة مفتاح في باب . . وأسمع وقع خطوات لعل الخليفة قادم . . امض »

قال « لا أظن الخليفة يعود اليك بنفسه ولكنه يبعث رسولا بما يريد. هذا الرسول قادم .استأذنك اني منصرف »قال ذلك وعاد الى وراء الستارة

ولبث سعيد صامتاً يشغل نظره بما هنالك من الانوار والزخارف واذا هو بياسر قد دخل فهش له ونهض لاستقباله فتوسم في وجهه خيراً فقال « خيراً ان شاء الله »

فابتسم ياسر وقال « جئتك برسالة من أمير المؤمنين . . . فهو يثني على علمك وقد أمر لك بجائزة سنية . . هذا أولا . . وثانياً يطلب منك أن تمكث في هذا القصر بضعة أيام لانه يحتاج اليك فى أمر »

قال « ألم يقل لك ما هو ذلك الامر ؟ »

قال « كلا »

فطرق كأنه يفكر ثم قال « انا أقول لك »

قال « هل تعرف ما يجول في ذهن الخليفة ؟ »

قال « وما الفرق بيني وبينك اذن ؟ » وضحك ضحكة ناجذة صحاراه في الضحك وقال « قد تعودنا منك معرفة الغيب . قل ما الذي يريد منك ؟ »

قال « يريد ان أعلم جاريته الزهراء الغناء ما قولك ؟ »

فربت ياسر على كتف سعيد تودداً واعجاباً وقال « قد لاحظت ذلك منه ولم يقله لى . . »

قال « أنا أقوله »

قال « وهل يسوءك ذلك ؟ »

قال سعيد « كلا . . ولكنني جئت من منزل الامير عبد الله على أن أعود اليه مع عابدة بعد يوم أو يومين وكيف أمكث هنا أياماً . . أخاف ان . . »

فقطع ياسر كلامه قائلا « مهما يكن من الخوف ان قول أمير المؤمنين لا يرد »

قال « نعم أعرف ذلك وأنا باق كما أمر ولكن هل علمت ان عابدة باقية معى أم هي ذاهبة ؟ »

قال « لم يقل لي شيئاً من ذلك ولكنني استدل من قرائن الاحوال انها باقية لانه امر أن نعد لها غرفة خاصة ونقدم لها كل ما تحتاج اليه »

قال « لكنه لا يلبث ان يأمر باخراجها لان الزهراء . . »

ففهم ياسر مراده فابتدره قائلا « لا لا ان الزهراء اذا أظهرت الغيرة من عابدة لصناعتها في الغناء فهي لا تخاف ان تتقدم عليها لعلمها انها جارية ادب ومنادمة . وقد فهمت ذلك من يوم مجيئها . . وزد على ذلك ان الزهراء ذات دهاء وتعقل وانما غلبت على الناصر بتعقلها أكثر مما بجمالها . . ما لنا ولهذا امض الآن الى حجرة في هذا القصر اعددناها لك ريثما يبعث الناصر في طلبك »

قال « حسناً » ومشى مع ياسر حتى خرج من ذلك القصر الى بناء بجانبه فادخله ياسر الى غرفة هناك ببابها خصي امره ان يكون في خدمته وانصرف

دخل سعيد تلك الغرفة فوجد فيها كل ما يحتاج اليه لتبديل ثيابه فبعد هنيهة اطلق لنفسه عنان الفكر فاخذ يتدبر ما سمعه وما يتوقع ان يكون ثم بدل ثيابه ونام

الفصل الرابع والاربعون

التعليم

وفي صباح اليوم التالي استيقظ وجلس ينتظر امر الخليفة فلما أبطأ عليه لبس ثيابه وخرج يتمشى في الحديقة وامر الخصي الواقف لخدمته اذا طلبه الخليفة فانه يجده في الحديقة . وعين له المكان

وخرج حتى نزل حديقة بجوار ذلك القصر فيها بركة يتدفق الماء فيها من أنابيب الرصاص . فوقف عندها وأخذ يتأمل حركات الماء وأفكاره تائهة في ما هو فيه فلاحت منه التفاتة فرأى شبحاً خارجاً من جانب القصر من باب لم يعرفه فحول نظره اليه فرآه رجلا في لباس الخصيان من طبقة الوصفاء الذين يلبسون الدروع السابغة . لكنه رآه يمتاز عنهم بمنطقة حمراء مطرزة بالذهب تدل على تقدمه بين الاقران بالمنصب والخدمة . وتبين في وجهه شيئاً يعرفه فحدق فيه فاذا هو ساهر غلام الامير عبد الله . ولحظ من حركاته أنه يحاول الخروج خلسة لا يريد أن يختلط بخصيان القصر فقال في نفسه « لا يخلو ان يكون مجيء ساهر هذا لامر ما » وانزوى في ظل دفلة وجعل انه يتأمل أزهارها . فمر ساهر مرور اللص وهو يحسب سعيداً لم ينتبه له . فلما تجاوز الدفلة أعاد سعيد النظر اليه فتحقق أنه ساهر بعينه . ولولم يره ويحاول اختفاء أمره لم يسيء الظن به . فحفظ ذلك في ذاكرته وظل يتمشى في الحديقة نحو ذلك الباب لعله يكشف شيئاً جديداً فرأى الخصي الموكل بخدمته مسرعاً نحوه فعلم ان الخليفة يطلبه فتجاهل وظل ماشياً فادركه الخصي وناداه فالتفت سعيد اليه وسأله عن غرضه

فقال « ان أمير المؤمنين بعث في طلبك »

قال « هلم اليه » ومشى نحو الباب الذي خرج منه ساهر

فاعترضه الخصي قائلا « من هنا ياسيدي » وأشار نحو الباب الآخر

فقال سعيد « لكن هذا أقرب . أليس مولانا أمير المؤمنين في هذا القصر ؟ »

قال « بلى . . ولكن المرور من هذا الباب محظور »

فاطاعه ومشى وهو يقول « لماذا »

قال « لانه يؤدي الى مقام السيدة الزهراء »

فحفظ ذلك في خاطره وسكت

وبعد ذلك دخل قصر المؤنس الى بيت المنام فاستقبله ياسر رئيس الخصيان وقد بدت البغتة في وجهه وقال « أين كنت ؟ »

قال « كنت أمشي في الحديقة »

قال « بعث أمير المؤمنين في طلبك »

قال « ها أنا ذا »

قال « انتظر ريثما استأذن لك »

فوقف سعيد ودخل ياسر ثم عاد وأشار اليه أن يتقدم فمشى حتى دخل غرفة في صدرها سرير عليه فراش من ريش النعام المكسو بالحرير الاحمر الزاهي وقد جلس فيه الناصر وهو لا يزال بلباس النوم وعلى رأسه قبعة (طاقية) من الحرير الموشي بالذهب وقد تعلق بالسقف مراوح من ريش النعام تتحرك بتدبير خاص . . ووقف الوصائف بالالبسة الفاخرة كما تقدم. فلما دخل سعيد أشار الخليفة الى الجميع بالخروج واستدناه فمشى حتى وقف بين يديه فقال له « لا أظنك تجهل منزلتك عندنا بعد أن دعوناك للدخول علينا ونحن في الفراش . . فان رفع الكلفة يدل على الرضاء والصفاء . تفضل اجلس »

فانحنى سعيد وظل واقفاً فامره ثانية أن يقترب منه ويجلس فمشى حتى صار بجانب السرير وجلس جاثياً على وسادة هناك وهو مطرق تادباً فقال له الناصر « يحسن بالعقلاء التأدب بين يدى الملوك ولكنني ذكرت لك مكانتك عندي بالامس لما آنسته من علمك وصدق لهجتك فدع التهيب »

قال « أن تنازل أمير المؤمنين مع مملوكه الى هذا الحد يحملني على زيادة

الشعور بحقارتي ويزداد المولى حفظه الله رفعة في عيني »

قال « ان مقام أهل العلم محفوظ عندنا . . انهم عيون الملك ونبراسه وقد رأيت أنك من خيرة العلماء المخلصين »

فاشار بالانحناء وسكت فقال الناصر « لا تظننا نطلب اليك التنجيم الآن فقد أجلنا ذلك الى فرصة أخرى ولكن جاريتنا الزهراء سمعت غناء تلميذتك عابدة فاحبت أن تتقن الغناء على يدك فهل تفعل ؟ »

فنهض سعيد وهو يتململ من التأدب وقال « ان العبد لا يخير بما يريده مولاه واني سعيد لان في شيئاً أقدر أن اخدم به امير المؤمنين ببذله . . »

فقطع الناصر كلامه قائلا « أنت سعيد على كل حال . . . انك سعيد بعلمك وأدبك . ولا تظنني نسيت ماطلبته من كتمان حقيقة منصبك واظهار أنك تعلم عابدة . وفي هذا المساء يأتيك رسول الزهراء فتذهب الى غرفتها لتلقينها بعض الحان بغداد »

فاشار بيده على رأسه مطيعاً

فقال الناصر « انت تعلم منزلة الزهراء عندنا »

فكرر سعيد انحناء رأسه كانه يقول نعم اعلم جيداً

فقال الخليفة « فاعدد لها ألحاناً جميلة مما صنعه ابراهيم بن المهدي فانه يحب صنعة أبناء الخلفاء . ولا بأس من تعليمها بعض أصوات اسحاق الموصلي

قال « سيرى امير المؤمنين مايسره فان عبده لا يحتاج الى ايضاح »

فقال له « وقد أمرنا لك بجائزة هي دون ما تستحقه وسنوالي ذلك عليك مادمت على حسن ظننا فيك »

فوقف سعيد وقد أحس أنه ينبغي له ان ينصرف فاستأذن وخرج فلقيه ياسر في الدهليز فاخبره بما امر له به الخليفة من العطاء وقال « يظهر انك حظيت عند امير المؤمنين »

قال « أنا لا أستحق هذه الحظوة ولكن لكل أجل كتاب »

فاكتفى ياسر بذلك ومشى مع سعيد الى باب غرفته وتركه حوف من ارتياب

الفصل الخامس والاربعون

اين الزهراء

أما سعيد فدخل في الغرفة فرأى الخادم قد أعد له الطعام فتناوله ثم جلس واستغرق في التفكير بما سيكون عند اجتماعه بالزهراء وهو يعلم أنه سيجتمع بها وهي وراء الستر . وكلما تصور ذلك الاجتماع خفق قلبه ـ قضى ذلك اليوم على أحر من الجمر بين الجلوس في الغرفة والتمشي في الحديقة وقد طال عليه الوقت فلما غربت الشمس عاد الى الغرفة ولبث في انتظار الرسول

ولما دنا وقت العشاء ولم يأت الرسول شغل خاطره ثم رأى جوهراً قادماً فهش له وهو يتوقع أن يدعوه للذهاب الى الزهراء فرآه يمشي نحوه ولا يتكلم فابتدره قائلا « ماوراءك »

قال « ما ورائي شيء »

قال « وكيف ذلك ؟ ألم تبعثك الزهراء في طلبي »

قال وهو يهز كتفيه « كلا . . وقد كنت انتظر امرها بذلك »

فقال سعيد « وهل عدلت عن تعلم الغناء ؟ »

قال « لا . . ولكنني لا أعلم اين هي »

قال « كيف ذلك أليست في غرفتها ؟ »

قال « ليست هناك »

قال « لعلها عند الخليفة »

قال « كلا »

قال « اين هي اذا ؟ »

قال « لا أدري ياسيدي وإنما أعلم ان وصيفاً جاءها في أصيل هذا اليوم ومعه امرأة قال أنها ماشطة فخرجت الزهراء معها ولم تعد بعد »

فاستغرب سعيد قوله وقال « أليس في القصر مواشط ؟ »

قال « في القصر مواشط كثيرات ولكن يظهر ان هذه الماشطة لها صناعة خاصة في اصلاح الشعر »

قال « ألم تفتش عنها في القصر ؟ »

قال « فتشت عنها في كل مكان أعهدها تقيم فيه فلم أجدها »

فدهش سعيد وأطرق لحظة ثم قال « ألا تعرف ذلك الوصيف ؟ »

قال « اعرفه وقد كان في هذا الصباح عندها »

فانتبه سعيد وقال « العله صاحب المنطقة الحمراء »

قال « نعم هو هو بعينه . كيف عرفت ذلك ؟ »

قال « عرفته . . وهو نفسه الذي أتاها بالماشطة ؟ »

قال « نعم هو بعينه »

قال « هل رأيت الماشطة ؟ »

قال « لم أر وجهها . . لانها مبرقعة »

فتوسم سعيد في الامر دسيسة وقال « الآن وقتك ياجوهر »

قال « لبيك ياسيدي »

قال تبحث عن الزهراء في كل غرفة ودهليز حتى في السراديب وعلى السطوح . . ابحث عنها الآن وأتني بالخبر . لا بد من وجودها هنا »

فقال « سمعاً وطاعة » وخرج

ومكث سعيد وقد أخذته الدهشة وجعل يفكر في ما سمعه وهو لا يكاد يصدقه لولا اعتقاده صدق ذلك القزم . وبعد قليل جاءه جوهر والبغتة بادية في وجهه وقال « تعال ياسيدي »

فمشى معه حتى أتى دهليزاً من دهاليز القصر يؤدي الى باب يستطرق الى حديقة خصوصية لايدخلها أحد الابأمر الزهراء . فلما وصلا الى الباب أشار جوهر باصبعه الى نور ضعيف يظهر من خلال الاغصان وقال « انظر »

فنظر فرأى الزهراء والى جانبها شبح بلباس النساء وتفرس في وجهه فاذا هو عبد الله بن الناصر فخفق قلبه وارتعدت ركبتاه من شدة التأثر .

ولولا رباطة جأشه ما تمالك عن أن يثب عليهما . ولكنه تجلد وأعاد النظر فلم ير وجه الزهراء ولكنه عرفها من ثيابها على شهادة جوهر . أما عبدالله فرأى وجهه وتنصت فسمعهما يتحادثان همساً وهم أن يدنو لسماع الحديث فسمع وقع خطوات في الدهليز فخاف ان يؤخذ بالتلصص ويعود الذنب عليه . فتحول وجوهر معه نحو الدهليز فرأيا ياسراً قادماً يتمشى فلما رأى سعيداً سلم عليه وسأله عما يريده فقال « أنا في انتظار السيدة الزهراء لاعلمها الغناء حسب أمر الخليفة »

قال « اذهب الى غرفتها . ألا تعرفها ؟ »

قال « هذا خادمها يعرف الغرفة ولكنه يقول إنها ليست هناك »

قال « لعلها في الحمام »

قال جوهر « ليست في الحمام ياسيدي ولا في محل آخر أعرفه وقد جئت للتفتيش عنها . . ورأيت في الحديقة نوراً فهل تظنها هناك ؟ »

قال « أين ؟ تعال » ومشى جوهر معه . أما سعيد فرجع إلى غرفته ولما وصلا الى الباب رآها ياسر مع عبد الله فدهش وقال « هي هنا . ماذا تعمل ؟ »

قال جوهر « لا أعلم وأخاف اذا رآني ان تقتلني . . انى ذاهب يا سيدي الى غرفتها انتظرها فيها »

قال « اذهب . . واحذر أن تذكر ذلك لاحد »

قال « سأكتمه عن كل انسان » ومضى

الفصل السادس والاربعون

الوشاية

أما ياسر فلم يشأ أن يضيع هذه الفرصة للانتقام من تلك المتكبرة فأسرع الى الناصر وكان قد عاد الى غرفة في ذلك القصر تعود أن يجلس فيه لمراجعة بعض ما يعرض عليه من الاعمال فدخل عليه بلا استئذان —

وتلك كانت عادة رؤساء الخصيان مع الناصر . ووقف بحيث يعلم الناصر أنه يريد مخاطبته فاشار اليه فدنا فقال « ما وراءك ؟ »

قال « قد أمر مولاى أمير المؤمنين سعيداً الوراق أن يعلم الزهراء ألحاناً جديدة »

فقطع الناصر كلامه قائلا « ألم يعلمها »

قال « انه لا يزال في انتظارها »

فاستاء الناصر من تعرض ياسر وتسرعه وهو يعلم أن في نفسه شيئاً عليها فقال « لاتلبث أن تأتيه . . وما الذي يدعو الى هذه العجلة منك ؟ »

قال « تعجلت فى نقل الخبر الى مولاي لان أحد خدمتها أخبرني انها غير موجودة بالقصر ولا هي عند المعلم »

فبغت الناصر وأقطب حاجبيه وقال أين هي اذاً ؟ لعلها في الحمام أو في الحجلة »

قال « ليست في القصر كله ياسيدى »

فوقف الناصر وقد غضب من ياسر لالقائه الشك في ذهنه وهو يقول « أين هى ؟ لابد أن تكون في غرفتها أو . . . » وسكت ومتى يتبع ياسراً والخدم تختبيء من طريقهما فقاده ياسر الى مكان يشرف منه على تلك الحديقة . فرأي الزهراء واقفة وبجانبها شبح لم يعرفه حتى نبهه ياسراً الى سحنته فعرف أنه ابنه عبد الله فهاج الدم في عروقه وأوشك أن يصرخ فيه لو لم يمسك نفسه خوف الفضيحة وأكبر أن يظهر شكه أمام ياسر فتجلد وقال « يظهر أنها في شاغل مع ولدنا عبد الله حفظه الله ولا بد من سبب فيه خير لنا . . ولكن كان ينبغي لها أن تلقاه في غرفة من غرف القصر »

وكان عبد الله قد ودعها وهرول مسرعاً في الحديقة وعادت هي الى عصر فاظهر الخليفة أن الامر لا أهمية له وصرف ياسراً وذهب هو الى غرفته وقلبه يتقد غيرة وحنقاً وحدثته نفسه مراراً أن يدعو الزهراء اليه في تلك الساعة فينتهرها ويوبخها ويستطلع خبرها لكنه لم يشأ أن يعكر

يأساً من الشماتة بها — فلما صرفه وأوصاه أن يكتم ذلك أخذ يفكر فيما رآه فعظم عليه ولم يستطع صبراً عن معاتبتها في الحال فبعث وصيفة تستقدمها . فعادت الوصيفة وقالت « إنها في الفراش لا تستطيع النهوض »

وقد تعود الناصر أن يحتمل هذا الدلال منها فلا يغضبها ـ أو هي عادة المحبين في مثل هذه الحال انما يغلب منهم السابق الى الدلال وقد يكون في نفس المحب عتب على حبيبه فاذا رأى منه غضباً أو تجنياً شغل بمراضاته عن عتابه ـ فصبر الناصر نفسه وذهب اليها وهو يكظم غيظه حتى اذا دخل غرفتها تنحى كل من كان هناك من الخدم والوصائف وظلت هي وحدها

وكانت حالما وصلت غرفتها قد نزعت ثيابها وتردت بثوب تعودت لبسه في ملاقاة الناصر يزيدها جمالا ورونقاً . وكان جمالها جذاباً يأخذ بالعقول ـ يكفي دليلا على ذلك استيلاؤها على قلب الناصر حتى شغلته عن كل من في قصوره من السراري والجوارى وأصبح لا يصدر إلا عن رأيها أو هو لا يرد لها طلباً وقد بنى قصور الزهراء رغبة في مرضاتها واحياء لاسمها كما علمت

الفصل السابع والاربعون

الزهراء

كانت الزهراء اذا جالستها فاول ما يخاطبك عيناها ثم لسانها ثم يستولي عليك عقلها وظرفها . فلا تملك دفعاً لما ترميك به من السهام النافذة تخترق الاحشاء . وكان في عينيها نور لا يعبر عنه بغير السحر ولها قامة كالرمح مع بعدها عن الخلاعة والتبرج . وكانت فصيحة اللهجة ذكية الفؤاد سديدة الرأي مع تعقل ورزانة يهيب جليسها من حديثها ويشعر بقوة حجتها وصحة برهانها

وكان الناصر يأنس بمجلسها ويعجب بكل شيء تأتيه . فيرتاح في

رؤيتها ويطرب من حديثها أو غناءها . اذا جالسها شغل بها عن كل شاغل ـ لكنه كان يلحظ فيها في بعض الاحيان انقباضاً لم يكن يعرف سببه . وقد تكون في مجلس طرب والخليفة الى جانبها يطربها ويدللها وهى في إبان فرحها فتتغير سحنتها بغتة ويتولاها الانقباض رغم ما تحتال من اخفائه عن الجلوس وكثيراً ما سألها الناصر عن سبب ذلك التغير وهى تتنكره أو تنتحل له سبباً لا يقتنع به الناصر ولكنه يجاريها

فلما شاهد ما أتته في تلك الليلة أخذ يراجع تاريخ معاملته هذه المرأة لعله يرى موجباً لهذا التصرف فلم يجد سبباً يوجبه. فخطر له ما كان يلحظه فيها من الانقباض فقال في نفسه « لعل لهذا علاقة بذاك » ثم عزم على ملاقاتها فبعث اليها كما تقدم فادركت لنباهتها أن الخليفة لم يبعث اليها إلا وفي نفسه شيء من العتب لانها لحظت في القصر حركة دلتها على أن الخليفة مشى نحو الحديقة . فلم ترد الذهاب اليه لعلمها أنه سيأتيها واتخذت القاعدة التي أشرنا اليها وهي مصادمة العتاب بالغضب أو الدلال . وجعلت من أسباب مرضاته لبس ذلك الرداء الذى تعودت ان تلبسه والخليفة طوع ارادتها

لبست ذلك الثوب وهو بلون السماء وعليه تطريز من الفضة بأشكال النجوم وبينها القمر وقد طرز على حاشية الثوب من الاسفل هذان البيتان :

واني لاهواء مسيئاً ومحسناً وأقضى على قلبي له بالذى يقضى
فحتى متى روح الرضى لا ينالني وحتى متى أيام سخطك لا تمضى

وقد تمنطقت بمنطقة من الخز بحلق الذهب وشدت من الامام بعروة من الذهب مرصعة بالالماس . وكان فرش تلك الغرفة يأخذ بالعقول لما فيه من النقوش والاشعار على الابسطة والستائر والجدران . وكان سريرها من الابنوس منصوباً في أحد جوانب تلك الغرفة الواسعة وعليه نقش مُنزل العاج في جملته هذه الابيات :

ومجدولة أما مجال وشاحها فغصن وأما ردفها فكثيب
هذا القمر السارى شقيق وإنها تطلع أحياناً له فيغيب
أقول لها والليل مرخ سدوله علينا بك العيش الخسيس يطيب

فقالت نعم ان لم يكن لك غيرنا   ببغداد من أهل القصور حبيب

وكانت كلة سريرها (الناموسية) من الحرير اسمانجونية اللون وعليها هذان البيتان :

من قصر الليل اذا زرتنى   ابكي وتبكين من الطول
عدو عينيك وشانيهما   أصبح مشغولا بمشغول

ناهيك بما على الطنافس والوسائد من الاشعار المطرزة مما يدهش البصر غير ما على الحجلة (التوالت) من النقوش الجميلة وكانت حجلتها معصفرة بالذهب وقد طرزت عليها أبيات تطريزاً جميلا وهى :

دعيني أمت والشمل لم يتشعب   ولا تبعدى افديك بالام والاب
سقى الله ليلاً ضمنا بعد هجعة   وأدنى فؤاداً من فؤاد معذب
فبتنا جميعاً لو تراق زجاجة   من الراح فيما بيننا لم تسرب

وكان فى تلك الحجلة حق من الذهب فيه بخور أمرت الزهراء باحراق شيء فيه فتصاعدت رائحته واختلطت بروائح الاطياب

وحالما علمت الزهراء ان الخليفة قادم اليها أمرت بايقاد الشموع وتهيأت لاستقباله بذلك الثوب الجميل كانها لم تفعل شيئاً يوجب عتاباً أو مؤاخذة

الفصل الثامن والاربعون

العتاب

برح الخليفة غرفته وهو يغالب غضبه ويكظم غيظه فاما اقبل على غرفة الزهراء كانت قد خرجت لاستقباله وهى تجر ذيل ثوبها تيهاً . ثم وقفت تنتظر ما يبدو منه فرأته ظل ماشياً لا يلتفت اليها فاحبت ان تبادئه بالمسألة فمست بيده وأكبت عليها كأنها تريد تقبيلها فاجتذبها من بين يديها وظل ماشياً إشارة الى غضبه عليها . فمشت في أثره الهوينا وهي مطرقة بلا تدلل ار خوف واطيرت الحب لهذا الجفاء . اما هو فما زال ماشيا حتى تصدر

القاعة فجلس على وسادة وقد قطب ولم يدع الزهراء للجلوس فظلت واقفة . ثم رفع بصره اليها فرآها تنظر اليه نظر العتاب بما يعجز عنه اللسان . فصبر لعلها تقول شيئاً فبسطت كفها وقدمتها له فقرأ عليها بيتاً منقوشاً بالحناء وهو :

قديتك قد جبلت على هواكا فقلبي ما ينازعني سواكا

فلما وقع نظره عليه وجد للكلام سبيلا فحول وجهه عن تلك الكف وقال « قد كان ذلك من عهد بعيد » وهز رأسه هزة الغضب

فقالت « هل يأذن أمير المؤمنين بالجلوس »

فاشار اليها ان « اجلسي »

فقعدت بين يديه وقالت « مالى ارى مولاى قد تغير على جاريته »

قال « لم اتغير انا يا زهراء »

قالت « ولا انا ياسيدى . . كيف يخطر ببالى التغير وانا في نعمة لم يحلم بها أحد قبلى ؟ »

قال « اراك سعيدة في هذه القصور »

فابتسمت وقالت « كيف لا اكون سعيدة وانا مشمولة برضى أمير المؤمنين رافع لواء الاسلام والمسلمين . . »

قال « لاتكذبي . . كم من مرة رأيت اسباب التعاسة في محياك وسألتك عن علة ذلك فأنكرت ؟ اظنني عرفت العلة الآن » قال ذلك بنغمة الظافر ولسان حاله يقول « كشفت سرك . . »

فلما اشار الى انقباضها اجفلت واخذ الانقباض يغالبها وهى تبتسم وقالت « لايخلو الانسان من اسباب قهرية حتى لا يكون اهل الارض مثل اهل السماء — فلولا هذا الانقباض القليل الذى يتولانى في بعض الاحايين لكنت احسبنى في النعيم »

فاعجبه تخلصها بهذا الاطراء ولكنه لم يقتنع فقال « نعم ولكن احب ان اعرف سبب ذلك الانقباض — ما هو سبب انقباضك الفجائي احيانا وانت جالسة الي ونحن في طرب وغناء ؟ »

فتنهدت رغم ارادتها وقالت « يندر ان يحدث ذلك ولا اذكر سببه »

قال « انا اعلم سببه »

قالت « طبعاً أمير المؤمنين أعلم »

قال « لم اكن اعلم ذلك قبل اليوم » وتنحنح

فادركت انه لايلبث ان يذكر ما شاهده منها فقالت « وكيف عرفته ؟ »

قال « عرفته بالمصادفة . . . هل حفظت درسك في الالحان اليوم »

قالت « كلا يا سيدي »

قال « ولماذا ؟ »

قالت « لاني كنت في شاغل »

قال « ما الذي يشغلك عن ذلك وانت الآمرة الناهية في هذه القصور كلها . . وانت صاحبة السيادة على ما فيها من الجواري والغلمان ؟ »

قالت « العل كثرة الجواري وسعة القصور تغني الانسان عن الاشتغال هذا امير المؤمنين يده فوق كل يد ومع ذلك فهو يرى ما يشغله احياناً »

فتبادر في ذهنه أنها تؤنبه على تعلقه بعابدة وتشير الى ما استخدمه من الطرب في تلك الليلة فقال « أظنك تحاسبينني على خطواتي وتحصين علي أنفاسي . . ها أنك عرفت ماشغلني أحياناً . . قولي ما الذي يشغلك . . قولي ما الذي شغلك عن الدرس الليلة » قال ذلك بصوت فيه شيء من التهديد وحدق ببصره فيها

فلم تهب من تهديده فظلت رابطة الجأش وقالت « ان ما شغلني عن الدرس هو أهم من الدرس في نظري »

قال « طبعاً هو أهم من الدرس . . وتقولين ذلك صريحاً ؟ »

قالت « قد تعودت الصراحة في القول فلا أغيرها »

قال « فاذاً اصدقيني الآن »

قالت « بماذا »

قال « مع من كنت مختلية هذا المساء ؟ »

قالت « مع الامير عبد الله ابن امير المؤمنين »

قال « ولماذا ؟ »

قالت « لسبب لا أقوله »

قال « أو تكتمين ذلك عني ؟ »

قالت « نعم ياسيدي اكتمه »

قال « ولكن ذلك يسوءني كما تعلمين »

قالت « لم أكن اعلم أنه يسوءك ومع ذلك فقد حصل »

قال « تقولين ذلك بجسارة إنه حصل ولا تريدين أن تطلعيني على السبب ؟ تقولين ذلك صريحا بلا تخوف ؟ يالله من هذه الوقاحة »

فتبينت الغضب في عينيه وساءها لفظ (الوقاحة) فقالت « لم اتعود هذا الغضب من أمير المؤمنين ولا هذه الالفاظ » وأطرقت دلالا واشتغلت باصلاح الاساور في زندها وهي تنظر اليها

الفصل التاسع والاربعون

الحيرة

فتأثر الناصر من عتابها ولكنه أصر على استطلاع سرها فقال « أصبت إنك لم تتعودي مني هذا الجفاء لاني لم أر منك ما يبعث عليه .. فانت الآن قد خرجت عن عهدي فيك »

قالت « بماذا ؟ ألأني خاطبت ابنك ؟ »

قال « ليست مخاطبته مما تؤاخذين عليه ولكنك فعلت ذلك سراً رأيت لعبد الله بثياب امرأة . . لا أدري كيف أطاعك هو على ذلك . . انه خائن » وأحس الناصر أن الغضب يكاد يخرجه فتماسك وسكت

فقالت « اذا غضب أمير المؤمنين من على فانا صاحبة الذنب وليس ابنه الامير عبد الله فلا يتهمه بشيء . . وسوف تظهر براءته »

فقال الناصر « والآن قولي . . الا تخبريني عن سبب تلك الخلوة بعبد الله ؟ »

قالت « لا أقول ذلك الآن . . لاتغضب يامولاي اني لا أقدر أن أقوله ولكن المستقبل يتكفل بكشفه »

فلما يئس من استنطاقها حدثته نفسه أن يحملها على الاقرار قهراً ثم رأى ذلك يحط من كرامتها وهو يحبها ويحب المحافظة على منزلتها لكثرة حسادها في بلاطه . وكثيراً ماجاءته الوشايات في حقها وهو يدافع عنها ويظهر حسن ظنه بها . فرأى ان حملها على الاقرار بالقوة يحط من كرامته لدى أهل دولته فضلا عن شغفه بها فهو يميل بعواطفه الى تبرئتها لئلا يأول الغضب الى تركها أو قتلها وهو يرى بقاءها لازماً له ويعد وجودها فألا حسنا على دولته لانه منذ عرفها والسعد خادمه في الحرب والادارة السياسية . على أن المحب كثير الظنون قريب الشكوك . فلما تذكر كيف رآها في خلوة مع ابنه على تلك الصورة ثارت غيرته فرأى من الحكمة أن يتمهل في الحكم واستطلاع السر بالحسنى فاخذ يفكر في كيف يتخلص الى الرضى

فلحظت هي تفكيره فجثت بين يديه وقالت « كيف يظن مولاي السوء بي وقد غمرني بنعمه ورفع منزلتي وجعلني موضوع حبه واقرب الناس اليه ومحل ثقته »

فلما سمع هذه اللفظة تذكر قولا سمعه من سعيد اول يوم لقيه في قصره وطلب اليه أن يستطلع طالعه فقال له يومئذ « ان الخوف يأتيك من اكثر الناس ثقة عندك » فعاد الى الارتياب ولكنه صمم على الصبر فوقف وهو يقول « انا ذاهب وينبغي لك ان تعرفي لي سكوتي الآن مع مايحيط بي من اسباب الريب »

قالت « عرفت ذلك لك في جملة أفضالك وسترى اني موضع ثقتك » ومشت في أثره ولحظت أنه يمشي الهوينا كانه يتوقع ان تدعوه للرجوع أو ان قلبه لم يطاوعه على الخروج وهو لم يستفد شيئاً . فكان يخشى

خطوتين ويقف هنيهة ثم يخطو وهي تمشي في أثره لتشيعه الى باب الغرفة. فلما وصل الى الباب وقف والتفت اليها فرآها مطرقة اطراق التفكير فتبادر الى ذهنه انها عدلت عن الكتمان فتحول نحوها وقال « ألا تغيرين رأيك فتطلعيني على الحقيقة ؟ »

قالت « قلت لمولاي ما يمكنني أن اقوله وأنا اعلم ان حياتي وموتي بين شفتيه ولكن . . »

قال « ولم ينتظر تمام كلامها ؟ اسألك سؤالا واحداً اجيبيني عليه بالصدق ؟ »

قالت « أسأل ياسيدي فاني لا أقول غير الصدق »

قال « اتحبين ابني عبد الله ؟ »

قالت « نعم احبه » ولم يتلجلج لسانها ولا تغير وجهها

فبهت لهذه الجسارة ونظر في وجهها واجال نظره فيها وهي لاتبالي فقال لها « تقولين ذلك بكل جسارة ؟ »

قالت « ألم تشترط علي الصدق ؟ اني أحب الامير عبد الله . . كيف لا أحبه وهو ابن سيدى أمير المؤمنين ؟ »

فرأى في هذا التغيير ما يخفف الغضب وندم على رجوعه للسؤال فسكت ومشى الى غرفته وعادت هي الى غرفتها واستلقت على سريرها وتنهدت كأنها أطلقت نفساً كان محبوسا في صدرها ويكاد يخنقها . فأتاها جوهر وأخذ يلاطفها التماساً لتسليتها فأشارت اليه ان يتركها وحدها

الفصل الخمسون

الهواجس

ثم امرت إحدى وصائفها أن تهيء لها الفراش وجاءت وصيفة أخرى تساعدها في تبديل ثيابها وهي مستغرقة في الافكار . فلما فرغت من تبديل الثياب امرت باطفاء الانوار الا ضوءاً ضعيفاً . وارخت الكلة

(الناموسية) على سريرها تلتمس الرقاد فلا تجده

وما غمضت عيناها حتى تراكمت عليها الهواجس وأخذت تفكر في حالها وما يظهر من سعادتها التي يحسدها عليها الناس وما يحتور تلك السعادة من أسباب الشقاء . فعادت بذاكرتها الى صباها منذ حملها النخاسون من جبال الصقالبة وهي طفلة ومعها اخوها ولما تذكرت اخاها تنهدت وقلبت على جنبها الايمن تريد ان تنسى تلك الذكرى فلم تزدها هذه الرغبة الا تذكيراً فتذكرت كيف حملت مع اخيها الى ايطاليا وعليهما اطمار بالية لاتقيهما البرد ـ ولكن جمالها كان يلفت الانظار فوقعت الى احد تجار الرقيق من اليهود وكان عارفاً بمخارج التجارة فعرف ان مثل هذه الجارية لا يدفع ثمنها الا المسلمون في صقلية . وكانت جزيرة صقلية يومئذ في حوزة المسلمين تحت سيطرة دولة العبيديين في المغرب . وكان امراؤها يتقربون الى خلفاء تلك الدولة بأمثال هذه الهدايا . فاراد ان يبتاع الزهراء ليرسلها هدية فأبت وتوسلت الى التاجر ان لا يبيعها الا مع اخيها لانها كانت شديدة التعلق به ولم يكن لها تعزية في ذلك الاسر والفقر الا لان اخاها معها فاطاعها التاجر واشترط مع امير صقلية ان يشتري الاثنين معاً فرضي وابتاعهما لان جمال الزهراء بهره واعجبه ما آنسه من ادبها وذكائها . وحدثته نفسه ان يستبقيها له لكنه كان في حاجة الى مهمة من الخليفة العبيدى صاحب افريقيا وهو يومئذ المهدي فأقر على ان يرسلها اليه ويستبقي اخاها عنده [illegible] في داره ويدربه على الخدمة على جاري عادتهم في استخدام المماليك فأبت الزهراء عليه ذلك وتقدمت اليه ان يرسل أخاها معها فيكون حيث تكون فلم يطاوعه قلبه على رد طلبها بعد ما آنسه من لهفتها

كانت الزهراء وهي نائمة على جنبها تذكر وصولها الى تلك الجزيرة وكيف استغربت ماشاهدته هناك من طبيعة انسية [illegible] لم تكن وقعت عيناها على شيء مثله من قبل لانها نشأت في جبال وأودية [illegible] او تشبه [illegible] . ومع ذلك وقد كانت سعيدة [illegible] ورث ما وراء [illegible]

عندما ترجع مع اخيها وهما يتساندان في نقل حمل من القش او العيدان او يسوقان بعض الماعز وابواهما ينتظرانهما في كوخ حقير فيشعلون تلك العيدان ويحومون حولها للاستدفاء . وكان يلذ لها ان تذكر ذلك الدفء مع الدخان المتصاعد حتى يكاد يعمي الابصار اكثر مما يلذ لها الغرق فى ذلك الفراش اللين مع ما يغشاه من الكلل المطرزة والستائر الموشاة وما تضوع في سماء تلك الغرفة من الاطياب

فلما تذكرت ذلك تنهدت وقد ضاق صدرها فدفعت الغطاء عنها وقلبت الى الجانب الآخر واخذت تناجي نفسها « ويلاه ما هذه الهواجس ..آه ما اجمل تلك الجبال الجرداء وما اشهى رائحة دخان العيدان وانا بقرب اخي وحبيبي . . » ولما ذكرت اخاها جلست على الفراش فجأة والتفتت الى ما حولها على ذلك النور الضعيف فرأت الوصيفة التي تنام عند قدميها لا تزال جالسة كأنها شعرت أن الزهراء لم تنم بعد . فظلت جالسة لعلها تحتاج اليها في شيء

أما الزهراء فلما رأتها أجفلت لانها كانت تود أن تكون وحدها لعلها تطلق لاشجانها العنان

الفصل الحادي والخمسون

حديث عن الصبا

وكانت تلك الوصيفة أخص وصائفها بها وقد فتحت لها قلبها واتخذتها أماً اطلعتها على بعض سرها . ولم تكد الزهراء تجلس على الفراش حتى نهضت الوصيفة واقفة تتوقع أن ترى عما تريده فنادتها الزهراء قائلة « ألا تزالين جالسة ياخالة ؟ »

فقالت « كيف أنام يا سيدتي وأنا أراك قلقة في فراشك . . هل تحتاجين الى خدمتي . . ؟ »

قالت « كلا . وفي نغمة صوتها دليل على شيء تكتمه

فقالت « يظهر لي أنك تحتاجين الى شيء »

فتنهدت الزهراء وقالت « نعم . . ولكن . . »

فتقدمت الوصيفة حتى وقفت بجانب السرير وقالت « هل أرفع هذه الكلة (الناموسية) »

قالت « افعلي . . اني أراني لا أستطيع الرقاد »

قالت « يظهر أن حديثك مع أمير المؤمنين أقلقك . . لا بأس عليك لا يلبث أن يرضى صاغراً » قالت ذلك بصوت منخفض كأنها تحاذر أن يسمعها أحد

فقالت الزهراء « اعلم ذلك جيداً . . ولكن رضاه لا يخفف شيئاً من قلقي . . »

قالت « ما الذي يقلقك وأنت سيدة هذه القصور وساكنيها ربة الجمال والذكاء لا يرد لك أمر — حتى أمير المؤمنين صاحب السيادتين يتمنى رضاك »

فتنهدت وتشاغلت بجمع شعرها عن وجهها وارساله الى الوراء ثم قالت « أتظنين السعادة ياخالة في ما ترينه من الرياش والاثاث أو بما يحدق بي من الحدم ؟ اني تعسة . . اني شقية . . » وغصت بريقها

قالت « ماذا حدث ياسيدتي ؟ »

قالت « لم يحدث شيء ولكن هذا النور الضعيف أذكرني أشياء كنت أحاول نسيانها . . »

قالت « هل أنير الشموع »

قالت « لا . . »

قالت « ماذا أفعل . . ماذا تريدين أن أفعل لراحتك ؟ »

قالت « ان الذي يحيي لا تقدرين عليه »

فاطرقت الوصيفة هنيهة وكأنها تذكر [illegible] العتق وقالت « أظنك عدت الى احداث القديم [illegible] ان ذلك التذكار يا سيدتي لا فائدة منه . أن أحاديث [illegible] »

فمدت الزهراء يدها الى فم الوصيفة كأنها تحاول أن تسكتها وقالت « لا تقولي ذلك . . كيف أنساه ؟ وانا لا أزداد إلا تذكاراً . . . انى اتذكر صباي يوم حملت من صقلية مع أخي كما أخبرتك مرة . . اتذكر الآن وجهه الصبوح وقد أخذ بيدي ووقف الى جانبي على ظهر السفينة وهي تقلع من مياه صقلية . . ياليتنا بقينا في تلك الجزيرة ولم ننتقل منها . . يا ليتنا غرقنا معاً في تلك المياه . . »

قالت « ولكن انتقالك كان سبباً في وصولك الى هذه النعمة التي يحسدك عليها أقرانك بل يحسدك عليها نساء العالمين »

قالت « هذا صحيح ولكن ينقصني وجود أخي ليتمتع بهذه السعادة معي . . آه من ينبئني عن مكانه .. هل هو حي أم ذهب طعاماً للاسماك ؟» ومسحت عينيها بطرف كمها

قالت « لا يعلم ذلك الا الله . . ولو كان حياً لعلم بمقامك وجاء اليك »

قالت « كيف يعلم وهو لا يعرف اسمي هذا . . هو لا يعرف اسمي الزهراء وانما يعلم ان اسمي « حسناء » فلو كنت معروفة بهذا الاسم لبلغ اليه خبري . . »

فقالت صحيح ... « وأين افترقتما ياسيدتي؟ هل تخبرينني لعلي استطيع أمراً ينفعك . . . هل تكاشفينني ؟ »

فقالت الزهراء « فارقته في عرض البحر اختطفني القرصان ونحن على تلك السفينة ولا أعلم ماذا فعلوا بأخي . . »

قالت « ألم تسألي عنه »

قالت « من اسأل ؟ وقد نقلت من أناس لا اعرفهم الى أناس لا أعرفهم وكلهم لصوص . اختطفني اللصوص من بين ذراعي والدي وباعوني الى تجار من صقلية فمكثت عندهم مدة علموني فيها اللسان [illegible] ثم [illegible] صعبية وهذا أمر رحاله فحملوني على سفينة قالوا انهم ذاهبون بي الى ملك عظيم في افريقية . فرضيت لأن أخي كان معي فلم تجر السفينة بنا الا بضعة ايام حتى سطا عليها لصوص البحر في ليلة ليلاء وهم كثيرون في هذا البحر

يسطون على السفن ينهبون ما بها ويسمونهم القرصان . وقد كان في امكاني أن أبقى هناك ولـكن . . »

فتعجبت الوصيفة من قولها وقالت « ولماذا لم تبقي ؟ »

الفصل الثانى والخمسون

سبب الفراق

فغصت بريقها وسكتت وهى تتلاهى بمسح دمعتين انحدرتا على خديها وقالت « لم ابق لاني كنت أطلب النجاة من رجل هناك يزعم انه رئيس تلك السفينة وما برح منذ أقلعنا من صقلية وهو يتقرب الى وانا اشعر بنفور منه لا أدري سببه وهو يدنو مني ويعدني ويمنيني ويظهر اعطافه نحو أخي ويلاطفه فاظهرت لاخي نفوري من ذلك الرجل وتواعدنا اننا اذا وصلنا الى بر افريقيا شكوناه الى ملـكه . وكان ادرك غرضنا فجعل يضيق علينا . فلما جاءنا القرصان خطر لى من شدة كرهي لذلك الرئيس أن انتقالنا الى سفينة القرصان ينجينا منه ـ ونحن فى كل حال غنيمة للقوي فلم ندافع كثيراً ولم تكن نجاتنا فى أيدينا . فما شعرت إلا وأنا على سفينة القرصان وقد أقلعت بنا وكنت أحسبهم خطفوا أخى معى فلم أجده فبكيت وصرخت وما من سميع فاخذت أشعر بالتعاسة من ذلك الحين . وجاني القرصان الى شاطىء الأندلس فباعني الى لصوص آخرين حتى وقعت الى رجال حملني الى قرطبة فما رآني ياسر رئيس الخصيان اشتراني لسيده أمير المؤمنين . فشغلت في مبادىء الرأي بمصابي ثم بالانتقال الى هذه النعمة وما لبثت أن عدت الى أمر أخي [illegible] الم [illegible] كلي لاني [illegible] كنت [illegible] في هـذا الفراق . . [illegible] الى [illegible] لم تمالك عن [illegible] لا [illegible] أن [illegible]

[illegible]

وكانت [illegible] تسمع كلامها [illegible]

[illegible]

أحداً من أهلها ـ ولكن الناس يتفاوتون باحساسهم وشعائرهم ففيهم المحب الذى اذا أحب تعشق وارتسم حبيبه في كل جارحة من جوارحه ولا يجد له عنه صبراً ولا تغيره طوارق الحدثان . ومن الناس من يخلق مطبوعاً على الالفة اذا تعود شيئاً شق عليه فراقه ولو كان مكروهاً والى ذلك أشار المتنبي بقوله عن نفسه :

حلقت ألوفا لو رجعت الى الصبا   لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

ويغلب فى من يحب كثيراً ان يكره كثيراً فيكون حبه كلفاً وبغضه تلفاً وفيهم من لا يعرف من الحب إلا اسمه وانما يكون الحب في نظره قضاء لمصلحة أو طمعاً فى غرض فاذا تجرد عن ذلك لم يبق له أثر

وكانت الزهراء قوية عاطفة الحب مع تعقل وصدق مودة وقوية عاطفة البغض . وكانت قد تعشقت أخاها كما رأيت وتجد الحياة مرة بدونه وهما في أشق الاحوال وقد أبغضت رئيس تلك السفينة حتى لم تعد تستطيع أن تتصوره فلما صارت الى تلك النعمة صارت تحب أن يكون أخوها معها ليشاطرها مسراتها وهي مع ذلك لاتعرف مصيره . . . حي هو أم ميت ؟ لا تعلم

أما الوصيفة فلما رأت يأس الزهراء أرادت أن تشغلها عن ذلك الحديث بسواه [illegible] يكن يشغلها شيء عنه فقالت « احمدي الله انك نجوت من شخص تكرهينه [illegible] . »

فابتدرتها قائلة « نعم نجوت . . وليتني نجوت . . وكفت عن الكلام كأنها ندمت على ما فرط منها فساعدتها الوصيفة على تغيير الموضوع فقالت « ان [illegible] يا سيدتي بأخيك لا [illegible] محدثي بانك ستلتقين به . . [illegible] تجمعين عنه ؟ »

[illegible] الزهراء [illegible] لا [illegible] ولا [illegible] إذا [illegible] الخبر الى [illegible] . ولا أريد ان [illegible] مشتغلة [illegible] يشغل عن [illegible] . »

[illegible] قربت من أذنها وقالت همساً [illegible] لكنني [illegible]

أن الرجل الذي أمره مولانا الناصر أن يعلمك الغناء بارع في التنجيم لا مثيل له فيه »

قالت « تعنين سعيداً الوراق ؟ هل يعرف التنجيم ؟ »

قالت « أنا على ثقة من ذلك وعلمت أن مولانا يعول عليه سراً في استطلاع الغيب وله فيه ثقة كبرى فاذا جاء لتعليمك الغناء اسأليه امله يفيدك ولا خسارة من ذلك »

قالت « ولكن سؤاله في هذا الشأن يقتضي . . . لا بأس سأرى » وأحست من تلك الساعة براحة أذهبت قلقها فاظهرت أنها تميل الى الرقد فساعدتها الوصيفة بارسال الكلة ونامت وهي تعمل فكرتها فيما تعمل

أما سعيد فذهب في تلك الليلة الى غرفته ينتظر أن يأتيه جوهر بما دار بين الناصر والزهراء ولم يفت جوهر شيء مما دار بينهما فجاء الى سعيد وقص عليه ما سمعه . فبات تلك الليلة وهو يتوقع ان يبعث الخليفة بطلبه في الغد

الفصل الثالث والخمسون

التنجيم

وفي الصباح جاء ياسر يدعوه الى الناصر فنهض ومعه كتاب التنجيم وياسر يحرصه على الايقاع بالزهراء . فمضى حتى دخل على الخليفة وهو لا يزال في فراشه فدعاه الى الجلوس فجلس وهو يتجاهل فقال له الناصر « هل علمت جاريتنا الزهراء شيئاً ؟ »

قال « كلا يا مولاي لأني لم أجدها في غرفتها بالامس »

فقال « ألم يدلك تنجيمك على سبب غيابها ؟ »

قال « لم أبحث عن سبب ذلك ولم امرتني لفعلت »

فاستخرج الكتاب وأخذ يقلب فيه ويتأمل بعض سطوره كأنه يحسب ويستخرج والناصر ينتظر ما يقوله . فلما أبطأ في الكلام قال له « ماذا وجدت ؟ »

قال « يأمر مولاي بمبخرة »

فصفق وامرله بما اراد فجيء اليه بمبخرة من ذهب فيها جمرة فاستخرج من جيبه قطعة من البخور ووضعها في المبخرة وجعل يتفرس في الدخان المتصاعد عنها ثم ترك الكتاب وجعل يده على حاجبه كانه يستظل بها من الشمس وهو ينظر الى الدخان ويقول « ماذا ارى ؟ اليس هـذا الامير عبد الله ؟ »

فلما سمع الناصر قوله تيقن اقتداره على استطلاع الغيب وظل ساكتاً ليرى مايبدو منه فانزل سعيديده وأعاد التفرس في الدخان وهو يتصاعد من المبخرة الى السقف وقال « بلى هذا هو الامير عبد الله ابن امير المؤمنين في الحديقة والزهراء الى جانبه . . هذا ياسيدى ما اراه . . ولا أدرى اذا كان البخور يخدعني »

قال « وهل خدعك من قبل ؟ »

قال « كلا وانما استبعدت ذلك لاني تركت الاميرعبد الله في قصره ولم اسمع أنه جاء هذا القصر »

قال « ينبغي لك أن تعرف كيف جاء »

فعاد الى المبخرة ووضع عليها قطعة أخرى من البخور ونظر الى دخانها وقال « هو هو بعينه وعليه لباس النساء والزهراء الى جانبه تحادثه »

قال « ماذا كان حديثها »

قال « لم اسمع شيئاً . . »

قال « أحب أن اعرف الحديث الذي دار بينهما »

قال سعيد « وهذا ما أحب أن اعرفه انا ولكني لم اسمع شيئاً الآن »

قال « هل ترجو ان تسمع شيئاً في فرصة اخرى »

قال « نعم ياسيدى »

قال « يكفيني الآن فاكتم ما رأيت ومتى تمكنت من سماع الحديث اخبرني . . وما الذي يساعدك على سماعه ؟ »

قال « يساعدني ان أسمع صوتها تتكلم »

قال « فانت اليوم مأمور بتعليمها الغناء وسأبعث اليها أنك آت لهذه الغاية في العصر »

فاشار برأسه إشارة الطاعة وقال « الامر لمولاى ولكن الافضل ان لايكون ذلك في غرفتها لكثرة من فيها من الخدم والوصائف . . . . أو يأمر مولاي ان تكون هناك منفردة ومعها وصيف أو وصيفة فقط »

قال « حسناً وانها تفضل ذلك أيضا . فتى ذهبت اليها تجدها في غرفتها منفردة »

قال « هل اذهب اليها في اصيل هذا اليوم ؟ »

قال « إفعل » وتزحزح الخليفة من مكانه فنهض سعيد واستأذن وخرج

وفي العصر اصلح شأنه واصطحب ياسراً الى غرفة الزهراء فاوصله الى باب الغرفة ودخل فاخبرها بمجيئه وانصرف . فدخل سعيد من باب الغرفة فوجد في وسطها ستراً منصوباً خرج اليه من ورائه جوهر واظهر انه لم يره إلا في تلك الساعة وقال له « انت معلم الغناء ؟ »

قال « نعم »

قال « ان مولاتى في انتظارك وراء هذا الستر بامر الخليفة تفضل واجلس » وثنى وسادة وقدمها له فجلس ثم ذهب فاتاه بعود وقال « هذا عود لتدلها به على ما تريد ان تفعله »

الفصل الرابع والخمسون

التعليم

فتناول سعيد العود ووزنه على لحن ودفعه الى جوهر وقال « ادفعه اليها »

فدخل به وسلمه اليها فقال سعيد « أضربي عليه لحن كذا »

فاخذت تضرب عليه وهو يشير عليها أن تصلح هذا الوتر وتشد هذا و ترخيه وتنبه هذه النقرة أو تلك وهي تقبل وفكرها تائهة [illegible]

[illegible] في سر [illegible]

ولم يكن هو اقل اشتغالا بها وود لو أنها تزيح ذلك الستر ليراها وندم لانه لم يشترط على الناصر مجالستها ورؤيتها ولكنه أوماً الى جوهر ان يحتال في ابرازها . فاخذ جوهر يظهر الضجر من نقل الدرس بينهما وقال « ان التعليم على هذه الصورة لا يفيد يا قوم »

وكان لقوله وقع استحسان عند كليهما فقال سعيد « لو استأذنت أمير المؤمنين في أن نتقابل لم يمنعنا . . واذا امرت الزهراء بذلك الآن كان الامر لها »

فقال جوهر « لا اظن سيدتي مانع في ذلك ونحن في هذا الجناح من القصر وحدنا ليس من يسمع او يرى » ودخل اليها فخاطبها همساً ثم عاد وقال « ان سيدتي تأمر برفع الستر على شرط »

قال « وما هو ؟ »

قال « بلغها انك عالم بالتنجيم . . . »

وقطع سعيد كلامه قائلا « ومن ابلغها ذلك ؟ »

قال « علمت والسلام .. وانا اعلم ايضاً . فالشرط ياسيدى أن تستطلع أمرا شغل بالها منذ عدة اعوام . فاذا فعلت ذلك واصبت كشف الستر وقابلتها . وهل تقبل بهذا الشرط » قال ذلك وهو يتلوى ويتماجن

فقال سعيد « اما وقد امرت فانا على ذلك » ثم وجه خطابه اليها فقال « ما الذي تريدين كشفه ياسيدتي ؟ »

قالت وصوتها يتلجلج « لا اقول ما هو ولكنني اقول أني فقدت شخصا منذ اعوام كثيرة ولا اعلم ما صار اليه امره فاذا كنت تعرف التنجيم حقيقة فقل لي من هو واين هو ؟ »

فاستخرج سعيد كتابا واخذ يقلب فيه وقد أستولى السكوت على المكان فلم يسمع فيه الا حفيف صفحات الكتاب ثم قال « انك تبحثين عن ابن شقيق »

فلما سمعت الزهراء قوله لم تتمالك أن صاحت « نعم اخي سرق مني منذ [illegible] . هل هو حي ؟ اخبرني حالا »

فاعاد التقليب وقال « نعم حي ؟ »
فاستغربت حكمه السريع وشكت في صدقه وقالت « اتعرف اسمه ؟ »
قال « اى اسميه تريدين ؟ »
قالت « وهل له اسمان ؟ »
قال « نعم له اسمان اسم تعرفينه واسم جديد لاتعرفينه »
قالت « ما هو اسمه الذى اعرفه ؟ »
قال « سالم »
فصاحت « نعم سالم .. سالم .. قل لى هل هو حي ؟ قل رعاك الله »
قال « نعم انه حي ولكنه . . »
قالت « ولكن ماذا ؟ »
قال « ولكنه تحت خطر القتل »
فلما رأته صدق في معرفة الاسم وانه شقيقها اعتقدت قوله عن الخطر المحدق به وأخذت ترتعد وقالت « وأي خطر . . . وأين . . . قل لي . . . فان أمير المؤمنين ينقذه منه اكراماً لي »
قال « يا حبذا ذلك . . ولكن الخطر عليه من أمير المؤمنين نفسه »

الفصل الخامس والخمسون

كشف الحجاب

فلم تعد الزهراء تستطيع استبقاء الحجاب بينها وبين سعيد فنهضت وأطلت من وراء الستر وقد أرخت على رأسها خماراً مزركشاً وعلاها شيء من الدهشة . فنهض سعيد عند رؤيتها كأنه يريد احتراماً لها فقالت « الخطر عليه من أمير المؤمنين ؟ » قالت ذلك وحالما وقع نظرها على سعيد ترنحت وحولت بصرها عنه لحظة ثم أعادت النظر اليه وتفرست في وجهه كأنها تعرفه أو تعرف رجلا يشبهه وتذكرت أحست بقشعريرة
أما هو فنظر اليها بهدوء وقال بصوت خافت « لا تضطربي حسنا

ان أخاك سالماً لا بأس عليه ولو كان الخليفة خصمه »

فلما سمعته يناديها باسمها القديم اجفلت وزادت رعدتها ولم تعد تقوى على الوقوف وقالت « لست منجماً ولكنك نبي »

فضحك وحول وجهه عنها ليهدأ روعها وقال « لست نبياً ولا منجماً »

فغطت وجهها بكمها وقالت « ماذا أرى . . ويلاه . . هل أنا في يقظة أو في منام ؟ »

قال « بل أنت في يقظة يا حسناء »

فرفعت كفيها عن عينيها ثم أعادتهما وتحولت مسرعة الى ماوراء الحجاب وهي تقول « نعم في يقظة . يا ليتني كنت في منام »

وكان جوهر واقفاً يسمع ما دار بينهما وقد أخذته الدهشة فلما رأى الزهراء عادت الى وراء الستر تبعها وقال لها « ما بالك يا سيدتي ؟ .. اسأليه أين أخوك الآن .. أتمي الحديث »

فدفعته بيدها فاظهر انه استلقى على ظهره من عظم الدفعة وأخذ يتماجن فقال « الحق علي لاني خالفت مولاي وأذنت بخروجك الى المعلم »

اما سعيد فانه ظل واقفاً لا يتكلم ثم تقدم وأزاح الستر بيده فرأى الزهراء قاعدة وقد جعلت رأسها بين كفيها وأطرقت كأنها أصيبت بالجمود فقال لها « ما بالك ياسيدتي هل عدلت عن الاستفهام ؟ هل أذهب ؟ »

فأدارت ظهرها له وانزوت وراء الستر وقالت « نعم أذهب ... اذهب لا . . لا تذهب »

فقال « أذهب ؟ أم لا أذهب ؟ . اذهب لاني قلت لك الحق ؟ أني ذاهب » وأرخى الستر من يده وتحول فوثب جوهر اليه وأمسك بردائه وقال « تعال . الى أين أنت ذاهب »

فأشار سعيد الى جوهر أن يخرج من الغرفة ويتركهما فخرج وظل سعيد وحده وقد ظل الستر لا يزال مسدلاً بينه وبين الزهراء

وقال لها « والآن ياحسناء ماذا تريدين نحن الآن في خلوة .. اخرجي الي وانظري في وجهي »

فلم تجبه فرفع الستر ودخل فرآها واقفة وهي مطرقة تنظر في الارض وقد امتقع لونها وتبدلت سحنتها وتولتها الرعدة فقال لها « انظري الي »

فرفعت يدها كأنها تتقي بصره بكفها وقالت « دعني لا أقدر أنظر اليك قل لي من أنت ؟ »

قال « قولي أنت من أنا ؟ كما قلت لك من أنت »

فقالت « قل من أنت . . . »

قال « انا سعيد الوراق بعثني أمير المؤمنين لاعلمك غناء أهل العراق »

فرفعت بصرها اليه وتفرست فيه وهي تتجلد وقالت « كلا .. أنت لص غادر »

فضحك وقال « لست لصاً ولكن اللص من يخون ولي نعمته ويختلي بالغرباء يأتي بهم الى قصر الخليفة بأثواب النساء »

فصاحت « ويلك . . انك شيطان بل أنت عفريت من العفاريت »

فقال بصوت هادىء « انا من أنا .. ناأفضل لك أن ترجعي لرشدك وتتكلي علي إذ ليس لك من يفرج كربك سواي »

فتماسكت ووقفت وهي تفرك عينيها ولا تصدق أنها في يقظة وصاحت به وقالت « قل لي . قل من أنت حالا »

قال « أتقول ام تكتفين بما قلته ؟ »

قالت « قل . . قل سريعاً » وعيناها تبرقان من الدهشة وشفتاها ترتجفان من الغضب وقد شخصت فيه

فقال « انا سليمان »

فلما سمعت اسمه صرخت ووقعت مغمياً عليها فبادر الى قنينة عطر كان معه حتى أفاقت وحالما فتحت عينيها ورأته نهضت وعطفت وجهها بيديها وقالت « انت سليمان ! . انك أصل بلائي . . سوف أريك عاقبة عملك . أما تزال تتعقبني وكنت السبب في شقائي . . » قالت ذلك ونهضت

وهمت بالخروج كأنها تريد أن تستعين عليه بأحد فامسك بيدها وأوقفها وقال « مهلي ولا تلقي بيديك الى التهلكة . . اعلمي ان حياتك وحياة أخيك في يدي »

الفصل السادس والخمسون

الدهشة

فوقفت وهي تنظر اليه وتتفرس في سحنته وهو يرنو اليها بلطف وسكينة ثم قال لا تغضبي ياحسناء . . ولا تنقمي علي فاني ارتكبت العظائم في سبيل حبك . اني أحبك . . » قال ذلك بلحن المغضب الولهان

فلم يزدها ذلك إلا غضباً وقالت « أنا لا أحبك .. يكفي ماجررته علي من البلاء »

قال « لم أجرر عليك بلاء . ولا ذنب لي عندك سوى أني أحبك وقد عرفتك قبل أن عرفك صاحب هذا القصر »

قالت « وتتجاسر على جارية أمير المؤمنين . . ألا تعلم انك إذا اطلع الناصر على حقيقة أمرك أماتك حالا »

قال « لا تجعلي للطيش سبيلا الى عقلك .. تذكري أخاك وان حياته في يدي اذا شئت قتلته في هذه الساعة »

قالت « كذبت . . قد عرفت الآن انك تحتال علي وتحملني على خيانة مولاي ومولاك الناصر . فلا تطمع بنيل مرامك ـ انك مائت لا محالة دعني والا صرخت صرخة جمعت عليك اهل القصر فيسوقونك الى حتفك»

فترك يدها وقال « يظهر انك لم تصدقي قولي ان اخاك حي وانه تحت خطر القتل ولا ينقذه من الموت شيء غير استرضائي . لا تتهوري.. اذا كنت تعتقدين كذبي وانت قادرة على اذيتي فهذا لا يفوتك في أي وقت اردته فلا تعجلي فتعود الفائدة عليك . . ان لامير المؤمنين ثقة في وفي نجيبي لا تنزعج »

فقطعت كلامه قائلة « انا أخبره أنك خائن وأطلعه على حقيقة أمرك »

فقال « هل تظنينه يصدقك ؟ »

قالت « نعم يصدقني »

قال « لا . . ومع ذلك فان الخطر يبقى على أخيك لان الناصر حالما يعلم به يبعث فيطلب رأسه . . فالاحسن ان تتبصري »

فاقشعر بدنها وخافت على أخيها وتجلدت وكظمت وقالت « ها اني متبصرة قل ما هو خبر أخي »

فتقدم نحوها ونظر الى عينيها نظر الاسترضاء وقال « اني اشكو اليك غرامي بك واستهلاكي في خدمتك وأنت تشتمينني وتهددينني . انظري الى الفرق بيننا ! . أما أخوك فقد سألتني عن اسمه وقلت لك أن له اسمين ذكرت احدهما ولم تسأليني عن الآخر »

قالت « وما هو الآخر ؟ »

قال « اسمه صاحب النقمة »

وكانت تعلم ان ذلك اسم رجل من أشد اعداء الناصر واكثرهم سعياً في حلمه . وقد قام لتحريض العرب والبربر على مناوأته واخراج الدولة من يده . وقد بذل الناصر الاموال وبث الجواسيس في البحث عنه فلم يظفر به . . ولا شك عندها أن الناصر حالما يسمع به يأمر بقتله ولو عرف انه اخوها . وقد يغضب عليها من اجله — لكنها مع ذلك ما زالت تظن سعيداً يكذب تخويفاً لها . فلما ذكر اسم اخيها هذا اظهرت الاستخفاف وقالت « لا يمكن ان يكون هذا الرجل اخي انك تخدعي ترويجاً لغرضك دع عنك هذا وارجع . . وانا اعدك اذا رجعت عن غيك واهديتني عن حقيقة حال اخي (وتنهدت) اني اعفو عنك واكتم امرك »

قال « ياسيدتي . . اي يا حبيبتي . اني لا اكذب . ان صاحب النقمة هو اخوك وا . . واذا شئت اعطيتك بالدليل المحسوس »

قالت « وما دليلك ؟ »

قال « دليلي . . . لا تعرفين خط اخيك ؟ »

قالت « اعرفه »

فمد يده الى جيبه واستخرج رقاً ملفوفاً في منديل . تناوله وفتحه وقال« اقرئي »

فقرأت سطراً مكتوباً بالدم هذا نصه :

أنا سالم صاحب النقمة أعاهد نصراء الحق اني ابذل حياتي في سبيل قتل عبد الرحمن الذي يسمى الناصر

كتبه سالم
صاحب النقمة

فاخذت تقرأه وتعيد قراءته وتتفرس في الخط فاذا هو خط أخيها نفسه فرفعت بصرها الى سعيد تحدق هو نظره اليها عنوة فاحست بمجرى كهربائي تسرب في عروقها فاضعف عزيمتها فتولاها الخوف على نفسها وعلى أخيها فوقفت مبهوتة لا تبدي حراكاً ولف سعيد الرق في أثناء ذلك ووضعه في جيبه وهو يقول « ما رأيك الآن يا حسناء ؟ »

فشعرت بخوار قواها ولم تعد تستطيع الوقوف فقعدت على البساط وطرفت وظلت ساكتة

فقال « هل رأيت اني ناصحك واني أتيت لانقاذك وانقاذ أخيك ؟ ألا ترين اني قادر أن اقتله بكلمة واحدة ؟ . ارجعي عن جفائك وقساوة قلبك وارحمي قلباً كاد يذوب شوقاً اليك . ان سليمان الذي رأيته على ظهر تلك السفينة يوم خروجك من صقلية رجل يحبك ويهواك — وما أنا ربان السفينة يا حسناء ولا أنا خادم فيها وستعلمين متى أخلصت الحب لي اني أهل لحبتك قد ركبت الاخطار وتعرضت للموت من أجلك . وقد فعلت فعل المحب المتفاني في سبيل حبيبه . لو علمت ما الذي فعلته من أجلك لم ترفضي طلبي بوصول تعلمين . ولا يغرنك ما ترينه من القصور والزخارف انها لا تلبث أن تذهب ولا يبقى غير الحب . . . ها اني أعرض عليك هذه الصفقة فلا ترفضيها »

الفصل السابع والخمسون

الرجوع الى الصواب

فوقفت في حيرة ولم تعد تعلم بماذا تجيب وترجح لديها ان أخاها في قبضة سعيد ولا نجاة الا بمسايرته . ولكنها مازالت تكرهه وتود قتله ولا سبيل لها الى ذلك . فعمدت الى الملاطفة فقالت « والآن ما العمل . هل أخي قريب من هذه الديار ؟ »

قال « بل هو في هذه الديار في مخبأ لا يعرفه أحد سواي »

قالت « وما السبيل اليه وكيف العمل ؟ »

قال سأخبرك عن السبيل في فرصة أخرى انما أرجو منك الآن أن تثقي بي .. ولا اظنك تفعلين . فان لم تفعلي فدمك ودم أخيك على رأسك اى نصحتك وفعلت كل ما تطلبين مني فما رأيك ؟ »

فاطرقت واعملت فكرتها في ماوقعت فيه فلم تجد لها سبيلا غير الملاطفة ريثما تحتال في النجاة فعادت الى رشدها وتعقلها ورباطة جأشها سكنها احست بتغيير طرأ على احساسها بعد تلك النظره التى اخترقت احشاءها وهزت اعصابها وقضت على ارادتها وخيل لها من تلك اللحظة انها طوع ارادته ولم تعد تملك رأيها فقالت « مصر كما قلت . . . واخشى ان تكون خدعتني »

قال « دعي عنك الشكوك »

فسكتت وهي تعمل فكرتها ثم قالت « وكيف التقي باخي هل تسير بي اليه »

قال « كيف يقدر على دخول هذا القصر . . . الافضل ان تسعى انت اليه ومتى اجتمعت به تقنعينه بالرجوع عن الثورة وتحتال في استرضاء الخليفة عليه واظننا ننجح ثم نبقى هنا معاً وانت في منزلتك ولا يدري أحد

بما جرى . . والآن لا ينبغي لنا ان نفترق قبل ان نحسن التفاهم . . . فهل أنت واثقة بما اقول ؟ »

فطأطأت رأسها « أن نعم »

فقال « سنتفق على وقت نخرج فيه خلسة الى مقر اخيك . . . لا أقدر ان اتصور فرحك به ساعة اللقاء . . وسيخبرك هو كيف انه مدين لى بحياته ولولاي لم يبق حياً »

فكان لهذا التعبير وقع حسن على قلبها فابتسمت وقالت « انت كنت السبب في حفظ حياته ؟ شكراً لك »

قال « لا فضل لى في شيء من ذلك لانى فعلت ما يدفعني اليه شعورى فان حبك ياحسناء قد استولى على كل جارحة من جوارحى . ألا افعل ما يرضيك وهل يكون لى فضل اذا فعلته ؟ والآن دعيني اعلمك لحناً تغنينه للناصر اذا سألك عما تعلمته »

قالت « حسناً » ونادت جوهرا فاتى وعاد الى خدمتها فعلمها سعيد اللحن ثم ودعها على موعد المجيء في الغد لتعليمها ومضى وقد مالت الشمس الى المغيب وسار تواً الى غرفته . وكان الخليفة قد نزل الى غرفته في ذلك النهار لاحوال سياسية اقتضت مقابلة بعض السفراء من ملوك النصارى المجاورين وكان يفضل ان يقابلهم في قصر قرطبة

اما سعيد فمكث في غرفته فجيء اليه بالعشاء فتناوله ولم يخرج من تلك الغرفة لانه احب الخلوة ليعمل فكرته في تتميم الحيلة للفرار بالزهراء من تلك القصور

الفصل الثامن والخمسون

الواقع

ذهب سعيد الى فراشه وقد نهكه التعب لشدة ما أثرته تلك الحادثة في نفسه وهو ينتظر هذه المقابلة منذ اعوام عديدة وقد سعى فيها وبذل كل

ـ رخص وغال في سبيل الوصول اليها ـ وهو يعلم الخطر المحدق به ولكنه جن بحب الزهراء ولم يعد يحسب للحياة حساباً . ورغم ماوأيت من تعقله ودهائه فان حبه الزهراء غاب على عقله واخذ بمجامع قلبه ـ وليس للعقل سلطان على قلوب المحبين . فقد نجد الرجل العاقل يقيس الامور ويستخرج اسبابها ونتائجها وقد اوتي الحكمة وفصل الخطاب . فاذا تولى الحب على قلبه ارتكب من الهفوات ما يتنزه عنه الجهلاء وهو يرى انه عاجز عن تجنبه . واذا تأمل ما يأتيه من الخفة والطيش في سبيل الحب خجل من نفسه ولا يرى له مندوحة للخلاص من تلك الاشراك

كان سعيد قد أحب الزهراء وافتتن بها منذ رآها في صقلية وكان قد جاء تلك الجزيرة بمهمة سياسية من قبل المهدي صاحب افريقية فغلبت على عقله واراد ان يستأثر بها لنفسه وركب السفينة معها على ان يحتال في اجتذاب قلبها ثم يرى السبيل للفرار بها . أما هي فحالما وقع نظرها عليه احست بنفور منه وصار كلما اقترب منها ابتعدت عنه . وهي تزداد نفوراً حتى فضلت أن يأخذها اللصوص على أن تبقى بقرب ذلك الرجل

اما هو فأخذ أخاها معه ورباه على الغرض الذي أجمع عليه العبيديون في افريقية وهو كره آل مروان في الاندلس والسعي في الاستيلاء على مملكتهم . وكان سعيد من كبراء هذه الشيعة وله نفوذ كبير عند المهدي العبيدي ومن جاء بعده على عرش الخلافة الفاطمية في القيروان . وقد عهدوا اليه باغراضهم وكانوا قد بثوا هذه الروح في كثيرين من كبراء قواد الاندلس نفسها . ومنهم الجمعية التي كانت تجتمع في قرطبة سراً كما رأيت

جاء سعيد الى قرطبة بمهمة سياسية من عدة أعوام . وكان قد علم بالبحث والتدقيق أن حسناء التي عرفها في صقلية صارت الى الناصر في قرطبة وسماها الزهراء ـ عرف ذلك بدهائه واجتهاده وكتم عن أخيها مجيء همه الوصول اليها . واقام حولها الجواسيس ركتبها باساليب مختلفة يستعطفها وهي تستخف به وبرده وهو يزداد شغفاً بها حتى أصبح يسعى

في الوصول اليها ولو نكاية فيها واستردادا لكرامته ودفعاً لاهانته . وكان يعلم تعلقها بأخيها فاتاها بهذه الحيلة

فضى سعيد بضع ساعات في غرفته على الظلام وهو غارق في بحار الهواجس وقد فر النوم منه وتولاه الارق لعظم ماجاش في خاطره في ذلك اليوم

الفصل التاسع والخمسون

موعد آخر

وهو جالس على فراشه في العتمة وبصره متجه الى نور يظهر له من نافذة تطل على داخل القصر وقع نظره على شبح يمشي هناك بخفة كمن يحاذر أن يسمع أحد وقع خطاه فتفرسه فاذا هو ساهر وعلى ذلك الناس اوصعاء كما رآه في المرة الماضية . فنهض واقتفى أثره فرآه يلتمس غرفة الزهراء . فما زال في أثره حتى رآه دخل الغرفة وقد وقفت الزهراء لاستقباله وهي لا تزال بثوبها الاعتيادي كأنها كانت على موعد منه . فثارت الغيرة في قلب سعيد وجعل يغالب نفسه فلم يستطع صبراً على ما شاهده فمشى حتى دخل الغرفة ولم يشعر به أحد منهما . فرأى ساهراً جاثياً أمام الزهراء وهو يقول لها بصوت المحب الولهان « مريني ياسيدتي فانا رهين أمرك وليس أشهى على قلبي من أن انفذ ارادتك ويكفيني شرفا وسعادة ان تقع أوامرك في أذني »

فاجابته هي « انهض يا ساهر . . . بارك الله فيك . . . اني ... من مروءتك وصدق مودتك . . . قل لسيدك اني لولا حبي له لم أطلب مقابلته ولا بأس عليه من اهل هذا القصر . . تمليات على عدل . . » وصلت الى هنا لمحت سعيداً داخلا فبغتت وباتت البغتة في عينها ولحظ ساهر تغيرها فالتفت فلما رأى سعيداً تنحى ثم انصرف

أما سعيد فظل ماشياً وهو يتجلد ويتماسك حتى صار بين يدي الزهراء

وهي تنظر اليـه والغضب ظاهر في عينيها فقـالت له « ما الذى جاء بك يا سيدى ؟ »

قال وهو يتلطف في التعبير « جئت لأتمتع برؤيتك قبل الذهاب الى الفراش . . وقد تمتعت بما يذهب عني النوم » وتنحنح

فقالت بلحن الاستخفاف « ما كان أغناك عن هذا المجيء . . كأنك متلصص على وتراقب حركاتي ومن يدخل أو يخرج من عندى - ان أمير المؤمنين لم يفعل ذلك »

فقطع سعيد كلامها وقال « لان امير المؤمنين لايحبك مثل حبي . . » قال ذلك وتنهد

فقالت وهي تبالغ بالاستخفاف « صدقت ان الناصر لايحبنى ابداً . . ولكن أنت وحدك تحبني . . ما كان أغناني عن هذه المحبة بل ما احوجني الى بغضك . . » قالت ذلك وحرقت اسنانها

فلما رأى جفاءها تقدم نحوها وهو يتكلف الاسترضاء وقال « سامحك الله يا حسناء كلما شكوت اليك غرامي وذلي زدت نفوراً وجفاء ؟ »

فلما دعاها باسمها الاصلي تذكرت أخاها فخافت عليه فعادت الى التجلد والملاطفة فقالت « لقد أسأت الى بمجيئك على هذه الصورة حتى أغضبتني وحملتني على ما قلته . ونحن كما تعلم قد تواعدنا واتفقنا . . . »

قال « انما حملني على المجيء حبي لك وغيرتي عليك . . »

فمدت يدها نحوه كأنها تستوقفه وقالت « لا فائدة من الغيرة وأنا في هذا القصر . وعما قليل اكون لك . . لا تسألني عن شيء »

فلما سمع قولها استخفه الفرح وصاح « تكونين لى ؟ فمات بذلك وعفا الله عما مضى »

قال ذلك وهو ينظر في عينيها وقد نسى الغيرة والشك وتناول يدها كأنه يهم بتقبيلها فاجتذبتها منه ونظرت اليه نظر العتاب والتوبيخ وقالت « امض الآن ولا تجعل للناس سبيلا الى الطعون »

فتحول وخرج وهو يحسب أنه نال أهم أسباب السعادة بما سمعه من

وعودها . فدخل غرفته واستلقي على فراشه فعادت اليه هواجسه فأخذ يفكر في حاله فاستغرب انقياده الاعمى لداعي قلبه ونسيانه المهمة الاصلية التي قام من أجلها وقد قامت معه افريقية كلها وعول خليفتها عليه ووضع ثقته فيه حتى لو كتب اليه أن يجرد جيشاً لفعل فكيف يشتغل عنه بحب جارية لاتحبه ؟ فاحس بصغر نفسه وضعف ارادته كأنه عبد لعواطفه فاخذ يوبخ نفسه على ذلك الضعف ويهم أن يرجع الى رشده ويعدل عن الغرام الى طلب العلى بحد الحسام فلما تتمثل له الزهراء ويتصور أنها طوع ارادته تنحل عزائمه ويذهب حماسه

الفصل الستون

طارق آخر

وهو في تلك الهواجس وقد أخذه الارق ولم يبق في ذلك المكان ساهر سواه واستولت السكينة على القصر ولم يعد يسمع فيه الا خرير الماء في برك الحديقة وفي البركة الداخلية في بيت المنام وسعيد يحمل نفسه على الرقاد ويحاول نسيان تلك الافكار عبثاً — وهو في ذلك الهدوء والظلام سائد سمع حركة في غرفته فجلس ورأى شبحاً داخلا عليه عرف حالا انه عابدة . وما زالت تمشي الهوينا حتى رأته جالس على فراشه فاسرعت اليه وجثت بين يديه وقالت « بالله يا سعيد . الى متى تضحك مني ؟ »

فظهر الاستغراب وقال « أضحك منك ! ما هذا الكلام ؟ »

قالت وصوتها مختنق « نعم تضحك مني وتهزأ بحبي . »

قال « دعي عنك الاوهام . . »

قالت « يكفيني ما قاسيته من الصبر على وعودك . . قل لي انى لاأحبك . . . أمضى لسبيلي . . »

قال « كيف أقول لك ذلك وأنت تعلمين اني أحبك ولكننا لم نرجع . . . مهمتنا بعد . . وأنت على بينة من كل شيء »

قالت « نعم أنا على بينة من كل شيء ... ولذلك لم أعد أستطيع صبراً »
فادرك انها تشير الى اطلاعها على شيء يكتمه عنها فقال « ماذا تعنين؟ »
قالت « أعني انك شغلت عني ونسيت عابدة المسكينة ؟ » واجهشت بالبكاء
فاثر بكاؤها في قلبه واحس انه اساءها ولكنه مالبث ان تصور الزهراء
حتي نسي اساءته وجعل همه اتمام معدات الوصول اليها فقال « دعي عنك
هذه الاوهام . من يشغلني عنك ؟ واذا رأيت مني تقرباً الى أحد سواك فما
ذلك الا سعياً في الوصول الى الغرض المطلوب الذي تعلمينه »

فتنهدت تنهداً عميقاً ورددت قوله « الغرض المطلوب ! ! آه من ذلك
الغرض . . ما كان أغنانا عنه . . ولا اظننا نصل اليه مع ما يحدق بنا من
العوائق »

فاظهر انه استاء مما قالته من الشك في سبيل ذلك الغرض وقال
« لا تضعفي املي بنيل المطلوب . . » وخفت صوته وقال « سيأتي يوم
نكون فيه ملوك هذه الجزيرة وتكونين انت ملكة عظيمة الشأن »

قالت « دعني من ذلك دعني . . . ان السعادة ليست في السيادة ولا في
الثروة . . . ان السعادة في الحب . . . » قالت ذلك وصوتها يتلجلج خجلاً
وبلعت ريقها ثم قالت « لو كنت اعلم انك تحبني مثل حبي لك لكنت اسعد
امرأة على وجه الارض . . آه من يقول لي الحق؟ »

فقطع كلامها وقال « انا اقول لك . صدقيني . وسوف تتحققين
صدق قولي »

فوقع كلامه على قلبها برداً وسلاماً واحست انها في نعيم وقالت
« صحيح ؟ صحيح أنت تحبني ؟ »

فمد يده الى يدها وقبض على انامله فاحست عابدة بمجرى كهربائي
انقبضت له أعصابها وغلبت على امرها وقالت « صحيح انك تحبني . . اني
سعيدة . . »

قال « بقي ان اسألك انا هل تحبينني ؟ »

وما تم سؤاله حتي تناثر الدمع من عينيها وقالت والبكاء يخنقها « انني

اذا كنت احبك ؟امثلي يسأل هذا السؤال .. لم يبق فيجارحة لم تفتتن بك. الايكفيك من الادلة ما انا فيه ؟ ماالذي حملني على ارتكاب هذه الاخطار؟»

فقال « لم ترتكبي خطراً بعد. ان وجودك في هذا القصر من اسباب السعادة ويتمناه كل انسان .. ولكننا سنصل الى الخطر قريباً وعند ذلك يظهر المحب الصادق ولا شك عندي انك ستبرهنين على صدق محبتك لي وللامام العبيدي صاحب افريقية الذي نحن في خدمة مصلحته »

قالت « آه يا سعيد كل شيء سهل في سبيل حبك .. دعني اغتنم هذه الظلمة واصرح لك بما يكنه فؤادي من الشغف بك . لو كنا في النهار او كانت هذه الغرفة مضيئة لخجلت ولكن العتمة تستر . اني احبك الى حد الجنون ولا أراك تحبني وتهتم لامري مع اني اتفانى في سبيل مرضاتك افعل ذلك من كل قلبي ويلذ لي العذاب اذا كان فيه سرورك ... فهل عندك مثل الذي عندي ؟ اي مثل نصفه او ربعه يا ترى ؟ »

فضغط على يدها ثانية وقال « كفى ياعابدة شكوكا .. وقد دنا الوقت ولا نرح ان نتفرغ لما نريده . لم يبق من المهمة التي جئنا من اجلها الا خطوة واحدة ــ وهي عليك »

قالت « مر بما تشاء »

قال « الا يزال ذلك الحق معك ؟ »

فضربت كفها على صدرها وقالت « هو هنا في اصون مكان »

فقال « الي به »

فدفعته اليه فاستخرج من جيبه ورقة قطعها نصفين وصب ما في ذلك الحق فيهما وهو مسحوق ابيض لامع ولف كل واحدة على حدة ودفعهما اليها وقال « احتفظي بهاتين الورقتين جيداً لوقت الحاجة »

قالت « وما فيهما . . هل من بأس على اذا تناولت منهما شيئاً ؟ . . »

فابتدرها قائلا « احذري ان تفعلي . . » وضحك يوهمها انه يمزح

فضحكت وقالت « لم اكن أجهل ذلك . . . ولكنني أرجو أن لا أحتاج الى تناولها . . . »

فتجاهل مرادها وقال « احتفظي بهما حتى آتيك غداً أو بعد غد »
فاحست أنها ينبغي ان تنصرف فوقفت وودعته وهي تتفرس في وجهه
والظلام يحجب لوائح المكر والغدر عنه ولو لم يحجبها فان عابدة لم تكن
ترى في سعيد غير الكمال لانه استهواها بمغنطيسيته

الفصل الحادي والستون

الهواجس

خرجت عابدة من عند سعيد وعادت اليه بلابله باشد مما كانت عليه
فتصور كيف أنه يخادع هذه الفتاة المخلصة ويغريها على المخاطرة بنفسها
بمواعيد كاذبة ويراها شديدة الثقة به وهو ينوي خيانتها ـ فرجع الى تعقله
فرأى أنه يفعل أفعالا لا يرتكب مثلها المجانين . انه سيرتكب جريمة القتل
تحت أشد الاخطار . وعاد الى التفكير في مهمته السياسية الاصلية وكيف
أنه كاد يفوز بها لو لم يلهه عنها حب الزهراء . . ولما تذكرها خفق قلبه
وأعمل فكرته في أمرها وقال « قد يكون سعيد من قلب الزهراء مثل عابدة
من قلب سعيد . فانا أداجي عابدة وأعدها فهل الزهراء تداجيني ؟ . .
ولكن سعيدا غير عابدة . . ان من يرتكب ما ارتكبته ويعمل ما عملته لا
يشق عليه أن ينتقم من تلك الجارية . . اني أريها العذاب ألواناً . . لا .
لا . لا أفعل ذلك مع الزهراء انها حبيبتي لماذا أنا مستسلم لها ـ أتركها وشأنها
والنساء كثيرات وهذه عابدة المسكينة تتمنى رضاي . ان حب الزهراء سبب
بلائي وسيكون سبباً في ضياع أمة برمتها . . ألم يضع الامام المهدي ثقته
في وأهل افريقية ينتظرون نتيجة سعيي ؟ » ولما فكر في ذلك هب من
فراشه كالمجنون ووضع كفيه على عينيه كأنه يستحث فكرته لاعمال الفكرة
في حقيقة حاله . . وتمشى لحظة ثم عاد فقعد على الفراش وقد تمثلت له
الزهراء في أشهى ما يتمناها فيه فقال « ان نظرة في حسنها تساوي العالم
برمته وما لذة الانسان من المناصب والمراتب اذا لم يكن له حبيب يحبه

ـ الزهراء تساوى كل شيء ولا بد من المخاطرة في نيـل الاماني ـ وما فاز باللذات غير الجسور . أما عابدة فانى أشغلها بسواى وأرضيها . . »

قضى بقية ذلك الليل في مثل هذه الهواجس ولم ينم إلا قليلا وأفاق في الصباح على نقر الباب ففتح عينيه فرأى ياسراً داخلا فجلس له وحياه ورحب به . فقال ياسر « أظنني أقلقتك من رقادك »

قال « كلا بل أنا في شوق الى رؤيتك »

قال « وأنا ايضاً . . وقد استبطأتك وكنت أحسبك تبعث إلى باكراً لتقص علي ما جرى امس »

فعلم أنه يعني ما جرى بينه وبين الزهراء لان ياسراً يكرهها ويريد أن يوقعها في شر يحقرها في عيني الناصر انتقاما منها لمـا يتوهمه من عقوقهـا ونكرانها الجميـل وهو يعتقد أنه كان السبب في ادخالهـا بلاط الناصر فلم تعرف له هذا الجميل . وظهر له من حديثه مع سعيد مرة أنه يوافقه على ذلك وكان ظنه يستطيع باستجماع معرفة سبب اجتماعها بعبد الله ويفشيه للناصر فيغضب عليها وربما طردها ـ وادرك سعيد كل ما كان يجول في خاطر ياسر فقال «ان أمر هذه الجارية حيرني ولم أستطع كشف سرها تماما مع أني قضيت ليلي البارح ولم أنم إلا قليلا أفكر في أمرها ولما رأيتك داخلا ظننتك أتيت لتدعونى الى أمير المؤمنين لانه أكثر الناس تطلعاً الى ذلك»

قال « انه لم يعد من قرطبة »

قال « هل بات هناك ؟ ولماذا ؟ »

قال « لانه ذهب لمقابلة بعض وفود ملوك فرنسا وايطاليا وهو يفضل أن يستقبلهم في قصر قرطبة . فلما أبطأ في الرجوع بات هناك وقد أوصاني قبل ذهابه أن أفتح عيني أراقب كل حركة »

فضحك سعيد وقال « يظهر أنك لم تكن ساهراً »

ففهم مراده فقال « كنت ساهراً وقد رأيت ساهراً يدخل القصر بلباس بعض الوصفاء فسهلت له الدخول على أن تتورط هي فتقع وقعة لا قيام لها منها »

فاطرق سعيد وفكر في نتيجة وقوع الزهراء في الذنب فرأى أن الناصر يغضب عليها فيتوسط هو في الاصلاح فيكون له فضل عليها يساعده على قبولها به ويحب من الجهة الاخرى إذا كان بينها وبين عبد الله تواد أن يكون قصاصها على يد الناصر . فقال سعيد «ومتى يعود الخليفة من قرطبة ؟»

قال « لا ادرى ولعله يعود فى هذا المساء وقد يبيت هناك الليلة ايضاً ويأتي غدا وعلى كل حال انتظر رجوعه بفارغ الصبر »

فقال « ما تظن الناصر يفعل اذا تحقق ما بين الزهراء وابنه من العلائق ؟ »

قال « أظنه يطردها ان لم يقتلها »

فسكت واظهر أنه يهم بالنهوض فنهض ياسر وخرج وهو يقول « وفق الله سعينا »

فلما خلا سعيد بنفسه أعمل فكرته فرأى أن سعي ياسر ضد الزهراء يفيده في كل حال طالما كان حائزا على ثقة الخليفة يديره كيف شاء فمكث يترقب الفرص

أما ياسر فجعل همه في ذلك اليوم مراقبة الابواب لعله يرى عبد الله داخلا ليشي به الى الخليفة وهو مجتمع بالزهراء . ولكنه كان يخاف أن يأتي عبد الله ويعود قبل رجوع أبيه من قرطبة فبعث بعض الخصيان يسأل في قرطبة عن رجوع الخليفة متى يكون فعلم أنه عائد بعد الغروب فاعطى الاوامر ليكون القصر في تأهب لاستقبال صاحبه وعاد الى مراقبة الابواب

الفصل الثانى والستون

حديث ذو شجون

غربت الشمس ولم يأت أحد وبعد الغروب رأى ياسرا ساهرا ومعه رجل بلباس الخصيان دخلا من باب القصر ولم يتعرضهما أحد من الحراس

كأنهم كانوا على موعد . فعلم ياسر بان أحدهما عبد الله وتنحى ريثما مرا وراقب جهة مسيرهما فرآهما سائرين نحو قصر المؤنس الى الحديقة التي اجتمعا بها في المرة الماضية. فسار من جهة اخرى بحيث يتحقق ان الزهراء نزلت لمقابلة عبد الله فلما تحقق ذلك اصبح همه أن يأتي الناصر قبل تفرقهم ليرى الاجتماع بنفسه فيكون ذلك ادعى الى غضبه وسرعة انتقامه

فرجع الى الباب الخارجي الذي يدخل منه الناصر اذا عاد من قرطبة وأخذ يتشوف عن بعد وقد دنا العشاء وأظلمت الدنيا لكن قصور الزهراء كانت تنار ليلاً بالمصابيح من كل أطرافها . ورآهم ينيرون الطريق بينها وبين قرطبة استقبالا للخليفة ولم تمض هنيهة حتى رأى الخصيان والفرسان وعليهم الجواشن مسرعين يليهم سائر الموكب وفي وسطه الخليفة والى جانبه تمام رئيس الخصيان زميل ياسر . ولم يكن بينهما تحاب شأن المتنافسين في المناصب في كل زمان ولكن الناصر كان يقدم تماما في اكثر الاحيان ويقلل من نفوذ ياسر . وهذا يعتقد ان الزهراء هي التي جعلت الناصر يتغير عليه وبذلك زاد رغبة في الانتقام منها . ورأى هذه الفرصة أعظم الفرص ليظهر خلاصه للناصر وتفانيه في خدمته ليغير ما في نفسه من تفضيل تمام عليه

فلما رأى الناصر في موكبه وتمام الى جانبه لم يعد يصبر عن التصدي لمخاطبته قبل الوصول الى القصر مخافة أن يذهب الى قصر آخر غير المؤنس ثم يشق عليه استقدامه في تلك الساعة

فلما وقع نظر الناصر على ياسر توسم في وجهه خبرا فانفرد عن الموكب نحوه فمشى ياسر في ركابه حتى دنا من قصر المؤنس وترجل الخليفة وأشار الى الناس بالانصراف وظل ماشيا مع ياسر فقال له « ما وراءك يا ياسر ؟ »

قال « ماورائي إلا الخير وكنت أود أن لا يعلم مولاي الا بما يسره لو لم اعلم انه راغب في معرفة سر ذلك الاجتماع »

فتنبه الناصر حالا الى انه يعني اجتماع الزهراء بعبد الله فقال « هل جاء ولدنا عبد الله الى هنا ؟ »

قال « نعم يا سيدى ولو أنه جاء كما يجيء سائر أخوته وأهله لم يكن بأس من مجيئه ولكنه يأتي متنكرا »

قال « وكيف يأذن الحراس بدخوله ؟ »

قال « يأذنون له بأمر الزهراء فانها توصيهم بذلك على يد أحد خدمتها »

فغضب الناصر وقال « والآن أين هو ؟ »

قال « هو في الحديقة المعهودة وهي معه »

فاطرق الناصر حيناً ثم ضرب الارض برجله وقال « كأن عبد الله ينتقم مني لانى حبست عابدة عنه ؟ . الى هذا الحد بلغت جسارته أن يتعدى على جاريتي الزهراء نفسها ؟ »

فسر ياسر من غضب الناصر وأحب أن يمكنه من الغضب عليها وحدها فقال « لا أظنه يطلب انتقاما ولكنها خدعته والنساء لا يخفى على أمير المؤمنين حالهن »

فمد الخليفة يده الى جيبه واستخرج ورقة وقال « وهذا كتابه جاءنى في الامس الى قرطبة ولم يصبر علي حتى أعود الى هذا القصر فيحادثني »

فقال ياسر « هل يطلب عابدة ؟ »

قال « بل هو يهددنى اذا أنا لم اعدها اليه ولم افهم معنى تهديده فقد فهمت الآن انه يريد ان ينتقم منى باخذ الزهراء . ولكن كيف تقبل هي موافقته ؟ »

فقال ياسر « ان النساء . . . »

فقطع الناصر كلامه وقال « أحب ان اراها وأسمع حديثهما ثم بعد ذلك رأي فيها » قال ذلك والغضب باد في اسرته

ففرح ياسر لهذا التهديد وأسرع بين يدى الخليفة وبعث الاوامر الى خدمة القصر أن يخلو هذا الجناح منهم لان أمير المؤمنين سيمر فيه . ثم مضى بضع دقائق حتى لم يبق هناك أحد فمشى ياسر بين يدي الناصر حتى وصلا الى غرفة لها شرفة تطل على الحديقة فوجداها مقفلة فقال ياسر « اما اقفلها حتى لا يطل أحد منها عليهما » . واخرج من جيبه مفتاحا

فتحها به بخفة بحيث لاينتبه احد لفتحها ودخل واعد للناصر مقعدا بجانب الشرفة يطل منه على الحديقة

فرأى الناصر الزهراء جالسة هناك على مقعد من حجر وقد كشفت عن وجهها كأنها مع بعض أهلها وعبد الله جالس امامها وقد رفع اللثام عن وجهه فبان على نور المصباح جلياً ولم يبق عند الخليفة شك في انه ابنه وامها الزهراء جاريته فاضطرب وثارت غيرته لكنه صمت كأنه اصيب بالجمود.
اما ياسر فكاد قلبه يطير من الفرح لنجاح مهمته

وكان اول شيء سمعاه قول عبد الله « انت تعلمين يا زهراء منزلتك عندى قبل الآن »

فاجابته « نعم اعلم . . ولذلك فاني بعثت اليك لاخاطبك بهذا الشأن ولولا حبي لك لم افعل »

قال « ان رضاك عزيز عندى ولكن طفح الكيل ولم اعد استطيع صبراً . . »

فقالت « مهما يكن من طفح ذلك الكيل لا أرى ما يوجب هذه النقمة »

فقطع عبدالله كلامها قائلا « كيف لا انتقم وقد عاملونى معاملة العبد المملوك ، لم يكف انهم سلبوني ولاية العهد حتى اصبحوا يسلبونني اسباب راحتي ـ هذه جارية اتتنى واستلطفتها وطلبها اخي مني فاعتذرت له فشكاني الى أبي فبعث يطلبها ليراها فارسلتها فحبسها عنده لنفسه »

قالت « اهذا يوجب كل هذه النقمة حتى تنصر الغرباء على ابيك ؟ أليس هو ولي نعمتنا ؟ أليس هو أمير المؤمنين وارواحنا حلال في قبضة يده ؟ — يجب ان تعلم اني احبك لاني حالما علمت بتغير قلبك على ابيك بعثت اليك انصح لك ، ولولا حبي وغيرتي على سيدى الناصر ولى نعمتي لم يكن أسهل على من ان ارفع امرك اليه وهو لايعجز عن القصاص »

قال « انه لم يتصرف معى كما يتصرف مع سائر اولاده وقد قال لى ابن عبد البر الفقيه وهو أعلم فقهائنا ان من كان مثل اخي الحكم لا يليق

للخلافة لاشتغاله عن امور الدين بالدنيا »

فقالت « كأنك تطمع في ان تكون ولاية العهد لك ؟ »

قال « وما المانع ؟ ألم يحدث ذلك في الاسلام ؟ . . ان الخليفة غير مقيد بمبايعة أكبر اولاده بل هو يجب ان يلاحظ اخلاقهم وقدرتهم »

فقطعت كلامه قائلة « ليس في ولي العهد ما يمنع مبايعته . ثم لم اكن انتظر منك أن تخالف اباك في شيء والا تكون قد ايقظت الفتنة . . فانا قد تحملت تهمة الريبة من سيدي الناصر لاني خاطبتك المرة الماضية على انفراد وقد هددني فلم افه بشيء خوفاً عليك . . فاصغ الى قولي وارجع الى رشدك فما انت أولى من أخيك بولاية العهد ولا كنت اهلا لها فان طاعة مولانا الناصر واجبة وهو الذي اختار اخاك اما اذا كنت تنوي الخروج عليه فذلك امر آخر . . وانت أعجز من ان تستطيعه . . »

وكان الناصر وهو جالس يسمع ذلك الحديث ترتعد فرائصه وقد اخذته الدهشة من عظم الاستغراب وكان يسترق اللحظ مرة بعد أخرى الى ياسر فيرى الفشل بادياً على محياه وكأنه سقط في يده ومع ذلك فان اشتغال ذهنيهما بتتمة الحديث لهاها عن كل شيء

اما عبد الله فلما سمع استخفاف الزهراء به هز رأسه وقال « اتظنين اني وحدي ناقم على والدي ؟ اني آخر الناقمين لانه اساء الى كل الاحزاب استبد بالسلطة واستبدل رجال الدولة من العرب والبربر بالخصيان من الصقالبة فلذلك نقم الناس عليه . ولو قلت كلمة لالتف حولي الوف من اهل الحرب فيهم كثيرون مثل صاحب النعمة »

فلم تتمالك الزهراء عند سماع ذلك الاسم عن الوقوف ثم تمالكت نفسها عنده وقالت « لله أنت من امير مغرور . اعلم اني نصحتك واعيد النصح ثانية عاداً ثم تعمل فاني موعزة بامرك الى ابيك لاني أضن بهذه الدولة ان تذهب فريسة الغرور وقد بناها ابوك على هام الرجال واحيا بها دولة المسلمين وعز الاسلام . . فلا تهدمها بطيشك واشير عليك قبل أن تقدم على هذا العمل ان تستشير العقلاء »

فقاطعها قائلا « قد استشرت الفقيه ابن عبد البر وهو اعلم الفقهاء وان كان والدي قد رذله وفضل عليه سواه »

قالت « احسب هذا الفقيه هو الذي اغراك على ابيك انتقاماً لنفسه من الفشل الذي اصابه يوم ذاك الاحتفال اذ امتنع عليه الكلام »

فضحك وهو ينهض وقال « انا أعقل من ان انقاد لسواي. وسترين »

قالت « لا بل ارجو ان ترجع الى رشدك وتعدني انك تائب في هذه الساعة والا فانك غير خارج من هذا المكان قط »

قال « تهددينني ؟ »

قالت « لا تستخف بي او تطمع باسترضائك فاني اضحي حياتي في نصرة مولاي ومولاك . . »

فهز عبد الله رأسه استخفافاً ومشى فصاحت الزهراء « ساهر »

فجاء ساهر باسرع من لمح البصر فاشارت اليه ان يقبض على الامير عبد الله فهجم عليه وقد أعد وثاقاً شد به يديه وعبد الله ينظر اليه مستغرباً وهو يقول اخسأ يا غلام . . . ألا تعلم من أنا ؟ »

فلم يجب ولكن الزهراء اجابت « انا أعرف من انت ولا يغرنك انه كان خادماً لك فقد كان عيناً لي عندك خوفاً من مثل هذا الطيش أن ينال شعرة من مولاي الناصر »

فلم يتمالك الناصر ان صاح من على الشرفة « لله درك يا زهراء »

فعرفت الزهراء صوت الخليفة وكانت قد توثقت من القبض على عبد الله فانسلت واختفت اما عبد الله فانه سقط في يده وجمد الدم في عروقه ولم يعد ينفعه الندم فساقه ساهر الى سجن خاص واقفل عليه

الفصل الثالث والستون

المشورة

اما الناصر فنهض ومشى وياسر بين يديه وقد تولته الدهشة وبان الفشل واليأس في وجهه ولم ينبس بكلمة . وظل الناصر ماشياً حتى دخل غرفته وقد أعدوا له المائدة فذهب اليها فأكل وهو لا يتكلم لعظم ما قام في نفسه من الامر الخطير وقد جاءه الخبر بغتة فلم يدر كيف يتصرف . وكان على موعد من لقاء سعيد بعد ان أرسله الى الزهراء بالامس يستطلع سر اجتماعها بعبدالله فخطر له ان يستقدمه ليمتحن معرفته ويستشيره في الامر لانه أصبح شديد الثقة به

اما سعيد فكان في غرفته في ذلك المساء ينتظر رجوع الناصر فعلم من حركة أهل القصر انه جاء فلبث ينتظر وصوله وبعد ساعة اتاه ياسر وقد امتقع لونه من الدهشة والفشل وقص عليه ما كان وهو يأسف لان مهمته ضد الزهراء لم تنجح وكان يحسب سعيداً يشاركه في الاسف او يشير عليه في شيء فتظاهر سعيد بمشاركته في ذلك ولكنه وقع الرعب في قلبه مخافة ان يبيح الامير عبد الله بخبره فيذهب سعيه ادراج الرياح ويصبح في خطر القتل فاشار على ياسر ان يذهب ويكتم ما دار بينهما فمضى وبقي سعيد وحده وأخذ يعمل فكرته وقد غلب عليه القلق والخوف ولا بد من المبادرة او الفرار

وهو في ذلك جاءه غلام الناصر يدعوه اليه حالا فخفق قلبه خوفاً لئلا يكون الناصر اطلع على شيء من سره ولكنه تجلد ووضع كتاب التنجيم في جيبه ومشى بقدم ثابتة حتى دخل على الناصر فرآه في فراشه وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً وهو يظهر السكينة والتكتم فوقف سعيد بين يديه متأدباً ينتظر أمره كالعادة فأشار اليه ان يجلس فجلس على البساط جثو واطرق فقال له الناصر « اصدقت استبرائي »

قال « نعم وقد كنت انتظر رجوع مولاي بفارغ الصبر »
قال « ولماذا ؟ »
قال « لاتبرك برؤيته ولانقل اليه نتيجة المهمة التي عهد بها الي »
قال « أظنك تعني خبر الزهراء وما دار بينها وبين ولدنا عبد الله »
قال « نعم يا مولاي »
قال « ما الذي دلك عليه علمك ؟ »
قال وهو يبتسم « لم أجد الا كل ما يحسن بالجارية الامينة المحبة »
قال « هذا لايكفي ان كنت تعرف التنجيم قل ما هو الحديث الذي دار بينهما ؟ »

فأطرق سعيد وأخذ يقلب الكتاب بين يديه وينظر الى الناصر خلسة والناصر متكيء على جنبه الايسر وخده على كفه اليسرى وهو يراقب حركات سعيد فلما رآه يتردد قال له « ما بالك ؟ قل الذي رأيته »

فاظهر سعيد انه يخشى التصريح فقال الناصر « قل كل ما سمعته . . لا بأس عليك »

قال « سمعت شيئاً لا اجسر على التفوه به واكاد اكذب تنجيمي ولا اصدقه لغرابته »

فضحك الناصر وهو يعتدل في مجلسه وقال « لا تكذب تنجيمك بل كذب ظنك بالناس خيراً . ألم تقل لي مرة ان الاذى يأتيني من أقرب الناس الي ؟ »

قال « يظهر ان مولاي الخليفة قد اطلع على السر من سواي »
قال « نعم . قل اذاً صريحاً ولا تبال »
قال سعيد وهو يظهر الاهتمام « أما وقد اطلع مولاي على ذلك الامر الفظيع فلا اكتمه ماظهر لي من الاسرار المتعلقة به . . »
قال « قل ارشدني اني مضطرب البال من الغضب واليأس من الخوف »
قال « يحق لمولاي ان يعتب على ابنه اذا أراد الغدر به »
فلما رأى كشف السر بالتنجيم حسب اعتقاده عظم سعيد في عينيه وعزم

على استشارته والعمل برأيه فقال «قل الذي دلك عليه علمك ولا تحاذر »

قال « دلني علمي على ان الزهراء حفظها الله اجتمعت بالامير عبد الله لترده عن فظيعة كان يحاول ارتكابها ضد امير المؤمنين »

قال « صدقت وما العمل الآن ؟ . قل اني عامل برأيك »

فانشرح صدر سعيد لهذا النجاح وعول على قطع السبل المؤدية اليه فاعاد النظر الى كتاب التنجيم ورمى البخور في النارثم اطرق يفكر ويقلب صفحات الكتاب والناصر ينتظر فراغه من التعزيم والتبخير ورأى عينيه محمران وتدمعان وقد تبدلت سحنته . وأخيراً وضع الكتاب من يده وأشار بيديه جميعاً اشارة القبض وقال « اقبض عليه حالا . . اقبض عليه وعلى رفيقه في منزله انه شريكه في جرمه . واقبض على رجل ثالث كان معك الليلة . . فاذا قبضت على هؤلاء بادر الى الاعدام . . الى الاعدام ان بقاء واحد منهما يفضي الى الفتنة . والحازم من اجتث شجرة الشر من جذرها . . هذا هو رأيي قلته بصراحة وقد نفضت يدي من خطر المستقبل ان لم يعمل امير المؤمنين برأيي »

وكان الناصر يسمع كلام سعيد ويتفهمه جيداً وهو ينوي ان يعمل بكل حرف منه بعد ان تحقق تنجيمه وسداد رأيه مراراً

اما سعيد فلما فرغ من كلامه اظهر انه تعب واخذ يرتعش كأنه اصيب بالبرداء فقال له الناصر « ما بالك يا حكيم ؟ »

قال « اني اخاف أن يتأخر مولاي وتأخذه الشفقة فيذهب بالدولة الى الخراب ـ يقبض الآن على فقيه الامير عبد الله الذي يئس من منصب القضاء فنقم على الخليفة ولا دخل للبر في شيء منه سوى اسمه . . ويقبض أيضاً على رفيق امير المؤمنين الليلة فانه شريك في الامر واذا سأل امير المؤمنين نفسه يعلم ان هذا الاخير من اكبر الاعداء مع أنه من اقرب المقربين . ويفعل ذلك سريعاً وسراً فان لم يفعل فاني أول النادمين »

فحول الناصر منه هذا التدبير بحزم الامرة الشديدة على الدولة ونتائج ما خشيه منه خصوصا لان كلام سعيد عن كل من الثلاثة وانه سائق

نفسه فامر بعض غلمانه ان يقبض على ياسر حيثما كان ويزجه في السجن وبعث آخرين الى قصر مروان للقبض على ابن عبد البر وحمله الى قصر الزهراء حالا

الفصل الرابع والستون

الانتقام السريع

وظل سعيد جالساً ينتظر أمر الناصر بالانصراف فلم يأمره فأظهر انه يبكي فقال له الناصر « مابالك يا حكيم »

ففرك عينيه وقال « لا شيء يا سيدي »

قال « لا بل أنت تبكي لامر ما »

قال « أبكي على الامير عبد الله فاني كنت أحبه وقد خسرته ولكن أمير المؤمنين خير منه . . ألا يرجو سيدي رجوعه ؟ »

قال « وكيف ترى أنت ؟ »

قال « لا أرى دواء لهذا الامر غير السيف واذا خفت الحية فاقطع رأسها والا فأنت في خطر منها . انى أرى رأي عبد الملك بن مروان مع سعيد بن الاشدق وقد سار اليه وصار من أعوانه بعد أن خرج عليه وحاربه أما عبد الملك فلم ير خيراً من قطع الرأس فدعا ابن الاشدق اليه وقتله فأمن الفتنة بعده ـ تلك سياسة بني أمية في الشام من معاوية فما بعده وكذلك فعل جداك عبد الرحمن الداخل وغيره من رجال الحزم والدهاء ـ اذا خفت جماعة فاقطع رأسهم والذي يظهر من تنجيمي ان الامير عبد الله يوشك ان يجعل نفسه رئيس عصابة ولكن . . »

قال الناصر « يظهر انك تخاف أن يغضب علي الخير فاستبقي عبد الله . . . كلا . . . ثم كلا انى قد سمعت تهديده بأذني وأما ابن عبد البر الضعيف الساقط فلا بد من قتله لانه من جملة المحرضين وأما ياسر فقد تعبت من دسائسه وشكاويه وكأن الزهراء قتلت أباه فلا ينفك يشكو منها أو

يعرض بها وقد تبين اليوم تحامله عليها . اني قاتل أولئك الثلاثة قبل أن يطلع النهار »

قال « يعجبني سداد رأي أمير المؤمنين . تلك كانت سياسة الدهاة من أسلافك اذا خافوا رجلا قتلوه سراً فيأمنون غوغاء الاحزاب »

قال « اذهب الى فراشك ونم مطمئناً وغداً تجد لوحاً على باب القصر وقد كتب عليه ما فعلناه »

فنهض سعيد تأدباً وهو يقول « نصر الله مولانا على اعدائه وأيده بروح من عنده ولا شك عندى أن مبادرته الى القصاص على هذه الصورة توقع الرعب في قلوب اولئك الاغرار الذين يتعرضون لبطشه واذا امر مولانا أن يكتب على اللوح عبارة تهديد يشار بها الى سائر العصاة كان فيها رهبة لهم فيأمر أمير المؤمنين ان يكتب على ذلك اللوح : وهـذا جزاء الخائنين وسيناله من حذا حذوهم وخصوصاً صاحب النقمة »

قال « أصبت بورك فيك » وتزحزح إشارة للانصراف فخرج سعيد وهو ينظر الى السماء وقد رفع يديه يدعو للخليفة بالنصر وذهب الى فراشه وهو يخاف أن يعدل عن قتل أولئك الثلاثة قبل أن يبوح أحد منهم بأمره

وأصبح أهل القصر في الصباح التالى فرأوا على بابه الـكبير لوحاً قد كتب عليه ما معناه :

« قد أنفذ حكم الشريعة الغراء بالقتل على الامير عبد الله بن أمير المؤمنين ومحمد بن عبد البر الفقيه وياسر الفتي رئيس خصيان القصر قصاصاً على خيانتهم وخروجهم على أمير المؤمنين حامى حمى المسلمين ومؤيد الدين وعلى ولى عهـده . قتلوا خوف الفتنة وهـذا جزاء الخائنين . ولـكم في القصاص حياة يا أولى الالباب . فليعتبر بهـم كل من سولت نفسه الامارة بالسوء ان ينبذ الطاعة ويخرج عن الجماعة وأولهم ذلك الخائن صاحب النقمة »

لم يطمئن سعيد حتى قرأ اللوح وتحقق نجاته من الفضيحة

الفصل الخامس والستون

الندم

أما الناصر فبعد خروج سعيد من عنده أمر بقتل الثلاثة [1] حالا بدون أن يراهم وبعد قليل جاءه الجلاد أنه فعل فأمر بكتابة اللوح وتذكر الزهراء وصدق مودتها وكان الليل قد مضى معظمه فلم يصبر على رؤيتها فبعث اليها يستقدمها اليه ليشكرها ويبشرها أنه قتل الخائنين وكانت قد نامت فنهضت وأصلحت من شأنها وأتت اليه وهي تستغرب تلك الدعوة المستعجلة

دخلت عليه فرأته جالساً على السرير وبين يديه لوح يقرأه ويهز رأسه فلما دخلت وضع اللوح الى جانبه ورحب بها قائلا « مرحباً بالحبيبة الصادقة »

فاكبت على يده تقبلها فقبلها وأمرها أن تجلس الى جانبه فجلست مطرقة فقال لها « قد أسأنا الظن بك وأنت بريئة من اسباب الريبة »

فقالت « اني جارية أمير المؤمنين وهو ولى نعمتي افديه بروحي ولا فضل لى »

قال « بل لك الفضل فانك أصدق مودة الي من ابني .. ذلك الخائن . قد سمعت ما دار بينكما باذنى . . . لله درك من صديقة أمينة وتباً له من خائن مارق . . »

قالت « كيف عرف سيدي بوجود ابنه هنا وعهدي انك في قرطبة »

قال « دلني عليه ياسر الخائن حال وصولى وقد أراد الايقاع بك فاخذنى الى الشرفة ورأيتكما تتحدثان فلما رأى براءتك من التهمة التي وجهها اليك خجل ولكنه نال جزاءه »

قالت « أما عبد الله فاني سأعود الى مخاطبته وأنا على ثقة من ندمه

---

(١) نفح الطيب ٩٧٧ ج ٧ وابن خلدون ١٤٣ ج ٤

ورجوعه لان في فطرته شيئاً من طيب عنصر والده وانما اغتر بأقوال المفسدين كالفقيه ابن عبد البر وأمثاله أماهوفانه طيب القلب وحسن الاسلام كما لا يخفي على امير المؤمنين »

وكان الناصر طروباً بحديثها لانه كان يطرب لـكل حركة من حركاتها فلما أثنت على عبد الله وقالت إنها كانت ترجو إصلاحه أحس بتسرعه في قتله وشعر بالندم لـكنه تذكر الخطر الذى كان يهدده لو لم يفعل فبادر الزهراء قائلا « أنا لا ارجو صلاحاً ممن يخون أباه وأخاه وعلى كل حال فقد قضى الامر » ورفع اللوح بيده ووجهه نحوها لتقرأه فما أتت على بعضه حتى صاحت « ويلاه قتلت عبد الله . . » ولطمت وجهها ونظرت الى عيني الناصر وتفرست فيهما كأنها تستفهمهما فرأت الشرر يكاد يتطاير منهما فأعادت قراءة اللوح حتى بلغت الى اسم صاحب النقمة فاقشعر بدنهـا لانها تذكرت اخاها وانه سيقتل مثل تلك القتلة فغلب عليها البـكاء للسببين معاً فظنها الناصر تبكى على عبد الله فقال « ما بالك تبكين ؟ »

فقالت « ابكي على شباب عبد الله »

قال بلحن الغضب « أتبكين على الخائن وأنت أعلم الناس بخيانته ؟ »

قالت « أو ليس هو بضعة من امير المؤمنين ؟ فكيف لا ابكيه وقد كنت احسبني ارجعه عن خطته »

قال « انت امرت بالقبض عليه بعد ان يئست من اصلاحه »

قالت « قبضت عليه إرهاباً ولم يكن عندي ريب من ندمه في الغد ... ولـكن ويلاه ... هل قتل عبد الله فعلا ؟ »

قال « نعم قتل وكذلك سيقتل امثاله الخائنون .. فبعد ان يعلموا اني قتلت أبني لهذه الخيانة فلا يلومون الا انفسهم اذا وقعوا في يدي فاني قاتلهم جميعا والمثل انفي للقتل »

فتذكرت اخاها وما يكون من امره اذا وقع في قبضة الناصر فأحبت ان تستطلع رأي الخليفة في العفو عن امثاله فقالت « واذا رجعوا تائبين ؟ »

قال « أقتل ابني وأعفو عن سواه ؟ لا يقع في يدى واحد من الخائنين الا قتلته أياً كان »

فوقع قوله في نفسها وقعاً شديداً لانها تعرف شدة الناصر وبطشه وزادت خوفاً من ذكر اسم اخيها ورأت تأجيل طلب العفو الى فرصة اخرى . وهي لا تعلم مع ذلك اذا كان اخوها يرضى بطلب العفو فرأت ان تقنعه اولا بالرجوع ثم تتوسط له بالعفو عنه

وبعد قليل امر الخليفة بانصرافها وبعث اللوح لتعليقه بالباب وتوسد يطلب الرقاد فتذكر ما دار بينه وبين الزهراء فتصور له ابنه عبد الله عند آخر نظرة فغلب عليه الحنو وأخذ الندم يتسرب الى اعتقاده شيئاً فشيئاً وهو يغالبه وينتحل الاسباب التي تسوغ السرعة فى القصاص تخلصاً من الفتنة لكنه مع ذلك غلب عليه الارق وتولاه القلق فلم يغمض له جفن وهو يتقلب كأنه نائم على الشوك

ولما طلع النهار احس بضعف وانقباض فاستدعى طبيبه سليمان بن تاج فأتاه مسرعاً فشكا اليه حاله وكان سليمان قد قرأ اللوح المعلق بالباب ففهم سبب ذلك الانحراف فوصف له بعض المنعشات او المبردات في اصطلاحهم وقال « لا يخفى على امير المؤمنين سبب هذا الانحراف والعلة تزال بضدها فيستحسن ان يلهو سيدي بما يشغله عن التفكير »

قال « وكيف ذلك ؟ »

قال « تأمر جارية مغنية تغنيك ألحاناً مفرحة . . فان من الالحان ما يبعث على الحزن ومنها ما يبعث على الفرح . وعرفت فيلسوفاً من ابناء مهنتنا اخترع الحاناً تضحك واخرى تبكي والحانا تفرح او تغضب لغير سبب موجب للضحك او البكاء او الفرح او الغضب وانما يجرى ذلك من وضع الالحان على النفس . . ولكن ذلك الفيلسوف قد مات الآن ولا اعلم اذا كان علم احداً هذه الالحان »

فتذكر الناصر ان عابدة تحسنها فقال « ان جاريتنا عابدة علمت هذه الالحان من معلمها سعيد الوراق ... »

فقال ابن تاج « ان سعيداً هذا من عجائب الدنيا لا يوجد شيء من العلوم لا يعرفه حتى الموسيقى ! فاذا شاء مولاي امر جاريته عابدة تجالسه فتسقيه هذه المرطبات وتغنيه على انفراد فانى ارجو شفاءه عاجلا »

الفصل السادس والستون

عابدة

فاستحسن الناصر هذا الرأي وأشار اليه ان يمضى لتحضير العلاج وارساله وبعث بعض الغلمان الى سعيد فاتى فقص عليه ما اشار به الطبيب فاظهر موافقته على ذلك العلاج واستأذن في الذهاب لاستقدامها وقلبه يكاد يطير من الفرح لسنوح هذه الفرصة ليتم بها غرضه

وكانت عابدة في غرفتها وعندها بعض الجوارى يتحدثن بما هومنشور على ذلك اللوح وهن يستغربن وقوعه بهذه السرعة فلما رأت سعيداً قادماً اسرعت اليه وقد زادت ضربات قلبها وعلت الحمرة وجنتيها وابرقت اسرتها فمشى هو امامها الى غرفته فلما دخلت سلمت عليه فهش لها واستدناها فاجلسها الى جانبه ولا طفها ووضع ذراعه على كتفيها كأنه يضمها تحبباً فأحست بقشعريرة لم تشعر بمثلها من قبل . فزاد تورد وجنتيها ولمعت عيناها واطرقت خجلا وقلبها يخفق فرحاً وهياما فقال لها « قد آن الوقت ودنت الساعة وانما تتوقف سعادتك عليك »

فقالت « تتوقف السعادة علي ؟ علي انا ؟ اني رهينة ما تريد في سبيل هذه السعادة » قالت ذلك بلهفة المحب المتفاني

قال « نعم عليك ؟ ... اين الورقتان اللتان اودعتهما عندك . . . هل انت محتفظة بهما ؟ »

فنظرت اليه نظر العاتب وهي تبتسم وقالت « كيف لا احتفظ بوديعتك بل كيف اقدر ان اخالف لك امراً » ومدت يدها الى جيبها واستخرجت الورقتين في صرة ودفعتهما اليه

فتناول الصرة وقال « أتعلمين ما هو داخل هذه الصرة »
قالت « ورقتان »
قال « وما فيهما »
قالت « احسب فيهما سماً .. فهل هذا صحيح ؟ »
قال « الصحيح لا اقوله لك الآن » وحدق في عينيها فحولت بصرها عنه واحست كأن سهماً اخترق احشاءها او مجرى كهربائيا تسرب في عرقها فأطرقت وهي تنتفض
فأتم سعيد كلامه قائلا « ان في هذه الاوراق مخدراً ينام صاحبه نوماً طويلا »
فقالت « نعم »
قال « فهمت ؟ ان في هذه الاوراق منوماً لا يقظة لنا بدونه »
فرفعت بصرها الى فيه ولم تجسر ان تنظر في عينيه وقالت « لم افهم مرادك يا سيدي »
قال « الا تذكرين انى سألتك يوماً ونحن في الارباض اذا كنت تتحملين خطر القتل من أجل الحب »
قالت « نعم واذكر اني قبلت أن اتحمل كل خطر . وانا الآن اعترف بذلك وافتخر به »
قال « أعلمى ان الخليفة يشكو من ارق وانقباض فوصف له الطبيب من يسامره او ينادمه بالغناء بالحان مطربة وذكر الالحان التي استنبطها الفارابي للضحك والطرب والخليفة يعرف انك تحسنين هذه الالحان فطلب الي ان ادعوك اليه وافهمك ما يلزم فها أنا قلت لك » وسكت
فظلت ساكتة تنتظر تتمة الحديث فرأته شغل عنها بحك عثنونه فقالت « ما علاقة هذا بالخطر »
فنهض وقال « لا علاقة بينهما صدقت . دعى هذه الاوراق معى وقومي لمنادمة الخليفة فانى أخاف ان يستولى عليك الضعف »
قالت « لا تخف من شيء فان امرك يبث في قوة وشجاعة »

وهو يعلم ان امره نافذ عندها ولو بغير ارادتها وقد اختبر ذلك مراراً فاذا أمرها وشدد امره ونظر في عينيها وهي تنظر في عينيه استهواها فتعمل ما تؤمر به حرفياً وهو ما يعبر عنه علماء اليوم بالتنويم المغناطيسي . ولم يكن تعليله معروفاً في ذلك العصر أو ربما عبروا عنه بالسحر ـ فلما قالت له ذلك امسك يدها بين يديه وحدق في عينيها وأمرها أن تنظر في عينيه ففعلت فدفع اليها الورقتين وقال لها « اني آمرك أن تسقي ما في هذه الورقة للخليفة الناصر في هذا اليوم »

فارتعشت وغلبت على أمرها وقالت « سأفعل ذلك يا سيدي »

قال « اسمعي يا عابدة ضعي هذه الورقة في جيبك واذهبي الآن الى الخليفة وهو في غرفته على فراشه ومعك القانون والعود وغنيه واطربيه واسقيه من الشراب الذي وصفه الطبيب . . فهمت ؟ »

قالت « نعم » وهي تحدق في عينيه ويدها ترتعش بين يديه

قال « فاذا سمعت أذان نصف الليل اعمدي الى هـذه الورقة صبي ما فيها في كاس الشراب وقدميها للخليفة . وبعد أن يتناولها ببضع دقائق يغلب عليه النوم ويبقى نائماً الى الابد »

قالت « نعم . . ماذا أفعل بعد ذلك »

قال وهو يخرج الورقة الاخرى « وبعد ذلك تأتين الى هذه الغرفة فاذا لم تجديني فيها فانك تجدين قدحاً فيه ماء صبي فيه هذه الورقة واشربيه فتنامين ريثما آتيك وقد أعددت كل ما يلزم للفرار الى محلنا حيث نكون قد فزنا بما علينا وقد دبرت كل شيء »

فتناولت الورقتين وخبأتهما في جيبها ولم يبد عليها اضطراب أو خوف لكنها قالت « هذا آخر سعينا في سبيل السعادة »

قال « نعم . امضي وانتبهي لأذان نصف الليل »

فنهضت وتناولت العود وسارت الى غرفة الخليفة وأخذت تغنيه وتسقيه كما أوصاها الطبيب

الفصل السابع والستون

الفرار

أما سعيد فمكث بعد ذهاب عابدة مدة صامتاً يفكر بخطارة الامر الذي بعثها به وكيف أنها طاوعته بلا تردد فلم يبق عليه الا أن يفر بالزهراء وأراد أن يقتل الناصر مخافة أن يبعث في طلبه بعد فراره بأحب جواريه اليه . وأن يقتل عابدة ليبقى أمره مكتوماً

فذهب الى الزهراء في غرفتها فقابله جوهر بالباب فسأله عنها فقال « انها ما فتئت منذ علمت بقتل الامير عبد الله ورفيقيه وهي منقبضة النفس لا تكلم أحداً » فعلم سعيد أنها مضطربة الخاطر على أخيها لما قرأت اسمه على لوح الاعلان باعدام هؤلاء فقال « استأذن لي بمشاهدتها » فاجاب مطيعاً وقد علمت أنه من رجال سعيد وقد أدخله ملاط الناصر جاسوساً فهو يستهلك في خدمته ويحتفظ بسره

عاد جوهر وأشار الى سعيد أن يدخل فدخل وهو يمشي الهوينا كأنه يفكر في شيء شغل خاطره فوجد الزهراء جالسة على وسادة وقد اسندت خدها بكفها واستغرقت في التفكير فلما شعرت بدخوله رفعت رأسها اليه فتفرست فيه لحظة ثم عادت الى الاطراق

فتقدم نحوها وقال « هل رأيت صدقي ؟ »

فلم تجبه

فقال « يا حسناء قولي . هل علمت أني قلت لك الصدق عن أخيك ومحضتك النصح في كيفية انقاذه ؟ »

فرفعت بصرها اليه وقد تلألأ الدمع في عينيها وبدت ملامح العتب والاسف في محياها وقالت « [illegible] سيئاً ولو تمنيت [illegible] سكان [illegible] اذ ادركك في سبيل انقاذه [illegible]

[illegible] »

قالت « كيف لا ولم أر منه شراً بل لم اسمع منه كلمة تسوءني . وقد رفع منزلتي وقدمني على سائر نسائه وبنى هذه القصور حباً بي . . كيف لا احبه ؟ بل كيف لا أعبده ؟ . هذه هي المحبة الخالصة و . . . »وسكتت كأنها همت أن تقول شيئاً وأمسكت نفسها حياء

ولم يفته أنها كانت تشير الى محبته غير الخالصة فقال « تعيرينني بمحبة الناصر ياحسناء ؟ لماذا لا يحبك وأنت تتفانين في خدمته ؟ وأما القصور فقد بناها لنفسه وحاشيته . وأما المحب الصادق فهو الذي يرى نفورك ويأبى السعادة بعيداً عنك يرفض الملك ويحترف التنجيم والتعليم للوصول اليك يعرض حياته للخطر من أجل حبك .. هذه هي المحبة الخالصة وهذا هو المحب الصادق . دعينا من هذا الآن وقولي هل انت عازمة على انقاذ أخيك أم لا ؟ وقد رأيت اليوم بنفسك مقدار غضب الناصر عليه »

فأجفلت وقالت بلحن الانكسار والذل « نعم عرفت »

قال « اذا كانت نجاته لا تهمك فذلك أمر آخر »

قالت « أنت تعلم أن نجاته تهمني كثيراً ولكن الطريق وعر »

قال « ولا بد دون الشهد من ابر النحل . ومع ذلك فانى لا أرى مشقة عليك في الخروج من هذا القصر ليلة واحدة وتعودين في الصباح وأخوك معك وتستعطفين الناصر عليه ثم تستقدمينه كما تشائين . . اذا كنت عازمة علي الخروج معي قولي وإلا فأنا ذاهب » قال ذلك وأظهر أنه يريد الخروج فابتدرته قائلة « وتهددني أيضاً » أهكذا تكون الاريحية ؟ ألأني في حاجة الى خدمتك تنتهرني؟ واغرورقت عيناها بالدموع

فجثا بين يديها وتظاهر بالتأثر من قولها وقال « حاشا لله ان اهددك فاني انما ألتمس رضاك وأبذل حياتي في سبيل حبك . أنت صاحبة الامر قولي قولي وأنا فاعل ما تريدين حتى الموت وانا مستعد لاستقباله بالارتياح — آه لو كان لك قلب مثل قلبي فتدركين مقدار حبي لك ولكنك قاسية القلب . [illegible] وصفها [illegible] هذا الوصف »

[illegible] [illegible] [illegible] إنك على حق، [illegible] انني أكاد

أكون مجبولة بالحب . . وإذا أحببت فالى حد التلف ـ ولك من حديثي بالامس عن قتيل النهار أحسن مثال ؟ »

فقطع حديثها قائلا « يظهر أنك لم تبغضي أحداً سواي ؟ »

قالت « أعترف لك ياسيدي اني لم أحبك ولكن إذا صدقت الخدمة في إنقاذ أخي فاني أحبك ولو من قبيل الامتنان »

فنظر اليها شزراً وقال « أقول إني ميت في حبك وقد ركبت كل مركب خشن في سبيلك وأنت تشترطين في حبي الف شرط ؟ . آه قد أحوجتني أن أبوح لك بذنب ارتكبته فى هذا النهار من أجل حبك »

قالت « وما هو »

قال « أنت تعلمين حبي للامير عبد الله وقد كنت عنده معززاً مكرما ولكنني أعلم أنه عارف بمقر أخيك فخفت اذا استنطقه الخليفة أن يدله عليه فيقتله . فاشرت على الناصر ان يبادر الى قتل عبد الله وقتل رفيقه بدون استنطاق وقد فعل . . ألا تعدين ذلك فضلا لى ؟ »

فانطات حيلته عليها وصدقته وقالت «صدقت »

قال « وتقولين إنك ربما تحبينني اذا أنقذت أخاك ؟ »

قالت « أتريد أن أخدعك ؟ هذا ما أشعر به وسترى »

قال « لا أفعل شيئاً لا يرضيك وسترين . . وأنا راض بتأجيل الحب حتى تظهر خدمتي . فقولى الآن هل تذهبين ؟ »

قالت « الى أين ؟ ومتى ؟ »

قال « تذهبين معى الليلة الى أرباض قرطبة حيث تلاقين أخاك كما قلت لك »

فرفعت نظرها اليه وقالت « كيف أذهب ؟ »

فحدق في عينيها تحديقاً شديداً وقال « تذهبين متنكرة على بغلة بثياب صاحب البريد ومعك جوهر الخادم وأنا ألاقيك خارج هذا القصر وتذهب معاً وسترين أني صديق صادق لك نعم . . ولكن لا تنكرين خدمتي فقد بات بالحب غير مسرور »

فاحست بضعف الارادة فنهضت وهي تتنهد وكأنها تتأهب للخروج وقالت « متى اخرج ؟ »

قال « اخرجي بعد الغروب وفي ركابك جوهر »

قالت « وبعدئذ ؟ »

قال « وبعد ذلك اخرج انا من باب آخر ونلتقي معا خارج هذه القصور في الطريق المؤدى الى قرطبة ثم نترافق الى اخيك »

قالت « هل انت واثق اني اجده هناك ؟ »

قال « نعم »

قالت « هذا آخر اجتماع لنا هنا ؟ »

قال « لا حاجة الى الاجتماع بعده فقد تم الاتفاق بيننا اخرجى انت مع جوهر . ألا تثقين بأمانته ؟ »

قالت « نعم »

قال « فأخبريه بعزمك على الخروج الليلة لمشاهدة امر يهمك ولا تحبين ان يعلم اهل القصر بخروجك واشيرى عليه انك تتنكرين بثوب صاحب البريد فان صاحب البريد لا يسأل عن خروجه ودخوله وخصوصاً اذا كان معه احد غلمان الزهراء وقولى له ان يهيء لك الثياب والبغلة »

فوقفت هنيهة وهي مطرقة تعمل فكرتها كأنها تتردد فخاف ان تعدل عن عزمها فقال « اذا كنت تخافين الخروج فما انت اهل للحصول على اخيك »

فلما ذكراخاها عادت اليها جسارتها وقالت « نعم اذهب . وسنلتقي بعد العشاء في الموقف الثاني في الطريق بين الزهراء وقرطبة »

فقال « بارك الله فيك وانا ذاهب لنلتقي هناك » وخرج

الفصل الثامن والستون

الارباض

وكان حراس باب القصر في ذلك المساء جلوساً يتحدثون بما علموه من مقتل الامير عبد الله وابن عبد البر ويامر ويستغربون وقوعه وقد اتتهم الاوامر المشددة بالانتباه الى من يدخل القصر أو يخرج منه . وهم في ذلك سمعوا قعقعة لجام البريد ثم رأوا البغلة وعليها راكب بثياب صاحب البريد وقد تلثم . والى جانبه جوهر على بغلة فهم الحراس أن يعترضوا فقال لهم جوهر « هذا بريد مولاتنا الزهراء » ففتحوا لهما فخرجا

فلما صارت الزهراء خارج القصر منفردة غلبت عليها الوحشة والتفتت الى ما حولها فاذا هي وحدها في صحراء رملية وكلما بعدت أحست بالظلام لان أنوار تلك القصور كانت تؤانسها حتى اذا وصلت الى الموقف المعهود وقفت وأدار جوهر بغلته نحوها وسألها عما تحتاج اليه

فقالت « الى أين نحن ذاهبون ؟ . . ماهذا كيف خرجت من قصري وأنا فيه كالملكة المتسلطة حتى على الملك نفسه . . »

فقطع جوهر كلامها قائلا « لا تزالين ياسيدتي صاحبة السيادة وفي الغد تعودين الى قصرك ومعك اخوك وتخلصينا من انقباضاتك وعبساتك »

وكان جوهر خفيف الروح وهي تستأنس بكلامه فاعجبها تعبيره فقالت « هل ألاقي أخي ؟ ياحبذا ذلك »

قال « لابد من لقائه . . والا فلماذا خرجت ؟ »

وهمت بالجواب وعيناها شاخصتان في منتهى الطريق تنتظر مجيء سعيد وبغلتها تتحرك تحتها فشغلها شبح ظهر عن بعد من ناحية القصر فاسرع جوهر ببغلته لملاقاته . ثم عاد مسرعاً وبشر الزهراء أنه سعيد فلم تدر أتفرح أم تحزن لانها كانت لاتحبه ولكنها لا ترى بدا منه أملا بلقاء اخيها فظلت صامتة حتى وصل سعيد اليها فحياها وقال لها « هل أنت مرتاحة »

فاجابت برأسها « ان نعم »

فأومأ لها ان تسوق بغلتها بجانبه وساروا . وكانت قد تعودت الركوب لان الناصر كثيرا ما كان يصطحبها في خروجه للصيد أو التنزه وركوب البغال سهل

ساروا برهة لا يتكلمون حتى اطلوا على الجسر المؤدي من قرطبة الى ارباضها فوق الوادي الكبير فسمعوا دوى الطواحين . وكانت الزهراء لم تسمعها من عهد بعيد لانها لم تمر على ذلك الجسر من عدة أعوام ـ قطعوا الجسر وقد مضى هزيع من الليل فاشرفوا على الارباض وهم سكوت . وكانت الزهراء كلما بعدت عن القصر خطوة اقتربت من الندم خطوتين فلما دخلت الارباض ورأت ماهنالك من المنازل الحقيرة احست بانقباض نفسها وقالت « الى اين نحن ذاهبون ؟ »

فبادر سعيد اليها وقال « الى سالم »

قالت « ارى سفرنا قد طال كثيرا »

قال « لم يبق الا القليل »

وظلوا سائرين فرأت انهم تجاوزوا الارباض فتصورت ان سعيدا يخدعها فاوقفت بغلتها وقالت « ارانا خرجنا من حدود قرطبة »

قال « نحن على مقربة من المكان لا تخافي » وبعد قليل اطلوا على الوادى الكبير ثانية حتى صاروا عند الشاطىء . وعرفوا ذلك من لمعان سطح الماء عن بعد وانعكاس صورة السماء عنه

ثم وصلوا الى بيت منفرد فترجل سعيد وترجل جوهر واعان الزهراء في النزول فنزلت وأخذت قواها تضعف من الخوف وكادت تعتقد انها وقعت في الفخ ولكنها تجلدت واطاعت سعيدا والتفتت الى ماحولها فاذا هي في بساتين وليلة الغارة . وقد ساد السكون في ذلك الليل فلا يسمع فيه غير خرير ذلك الوادى . ثم مالبثت ان رأت كلبا كبيرا خرج من ذلك البيت وأخذ يحوم حول سعيد ويتفرس عليه ـ وهو علام المعرفة عند الكلاب ؟ فعلمت الزهراء من ذلك انهم وصلوا المكان المقصود وصارت تتوقع أن ترى [illegible] احد يأخذها اليه

الفصل التاسع والستون

الخوف

وبعد ان ترجلوا تناول جوهر ارسان البغال واخذ في شدها الى بعض جذوع الشجر هناك ؟ وأشار سعيد الى الزهراء بأن تمشي معه فمشت وهي تحاذر ان يمسها ذلك الكلب بسوء وقلبها يخفق حذرا من الخديعة ؟ اما سعيد فكان يلاطفها حتى دنت من البيت فتناول من جيبه مفتاحاً فتح به الباب ودخل والظلام حالك فتراجعت وقالت « لا ادخل على الظلام » فاشار اليها ان تجلس فقالت « اين اخي ؟ »

قال « ليس هو هنا وانما اردت ان تستريحي هنيهة »

فاجفلت وقالت « استريح ؟ كنت افضل ان نظل سائرين حتى نصل اليه فقد مضى معظم الليل وسيدركنا النهار وينبغى ان نكون في القصر في صباح الغد »

فضحك وقال « لا بأس سنكون هناك كما تقولين » قال ذلك وخرج

فالتفتت حولها فلم تزدد الا وحشة واخذت تفكر فيما اتته من الطيش في تسرعها ولكنها لم تشعر انها كانت مخيرة في ذلك ؟ وارادت ان تصيح وتستغيث فخافت العاقبة فرجعت الى رشدها واخذت تتجلد وتعمل فكرها فحدثتها نفسها ان تستغيث بجوهر لعله ينقذها فنهضت ومشت الى الباب فرأت سعيدا واقفا الى جانبه يكلمه ثم اشار اليه فاسرع نحو الشاطىء وعاد سعيد نحو البيت والكلب يقفز حوله

فرجعت الزهراء الى مقعدها واحست انها وحيدة هناك وقد اصبحت في قبضة سعيد يعمل بها ما يشاء فاخذ قلبها في احتقان وجاش الحزن في صدرها واحست بالحاجة الى البكاء ولم تستطع أن تحبس دموعها فبكت . ثم دخل سعيد فلما رآها تبكي ضحك وقال « ما بالك تبكين ؟ »

قالت « أخاف أن تكون خدعتني »

قال « كيف أخدعك أو اريد بك سوءاً وأنا انما أريد سعادتك وقد تركت الدنيا كلها من أجل لقائك »

قالت « أين نحن الآن ؟ أين أخى ؟بالله أرنى إياه ثم لا أبالي بعد ذلك ما يصيبنى »

قال « تمهلي انك سترينه وتكونين في أوج السعادة »

وهما في ذلك سمعا صفيراً فاجفلت الزهراء وجعلت تتلفت وهى مذعورة فقال لها سعيد « لا تخافي »

فقالت « وما ذاك ؟ »

قال « هذا ربان السفينة يخبرنا بوصولها »

قالت « وأى سفينة ؟ »

قال « سفينة لنا في هـذا النهر سننتقل الى المكان الذى فيـه أخوك وليس هو بعيداً »

فصفقت وصاحت « ويلاه .. الى أين تذهب بي ياسليمان ؟ ألم تعاهدني على الذهاب الى أخى ؟ »

قال « نحن ذاهبون اليه في الماء وذلك أهون من السفر بالبر »

فقالت « بالله دعني . . ارجعنى الى القصر قد استغنيت عن رؤية اخى أو غيره . . ويلاه ماهـذا ! . أين أنا ؟ » قالت ذلك واطلقت لنفسها عنان البـكاء

فتقدم سعيد اليها وأمسكها بيدها وقال « لا تظنى سوءاً يا حسناء نحن ذاهبون الى اخيك . . تعالى اخرجي انظري الى السفينة فانها ستحملنا الى منزل تجدين فيه أخاك فتتحققين صدق قولى »

فاجتـذبت يدها من يده وتراجعت ثم أعملت فـكرتها فرأت نفسـها منفردة هناك وندمت ندماً شديداً على مجيئها ولـكنها لم تقطع الامل من لقيا اخيها فتجلدت وأطاعت سعيداً في الخروج الى السفينة فرأت الشراع منصوباً فدعاها للنزول ولم تجد في السفينة أحداً من النوتية وما لبثت ان رأت السفينة تخترق عباب الماء وليس فيها أحد غيرهى وسعيد وجوهر

الفصل السبعون

الفشل

فلنتركهم يخوضون الماء ونرجع الى عابدة عند الناصر وهى تسقيه المرطبات وتغنيه وتنادمه . قضت بقية ذلك النهار عنده وهو يتلاهى بالحديث والشراب . فلما اقترب العشاء كان الشراب والغناء والخلوة نبهت فيه ذكرى ابنه عبد الله فتصور ما كان من تسرعه في قتله وكيف ان الزهراء قالت له انه كان في امكانها اقناعه واستبقاؤه حياً ولامته على تسرعه فاحس بشوق لرؤيتها ومحادثتها فبعث في طلبها فلم يجدها في غرفتها فالح في البحث عنها فلم يقف لها أحد على خبر . فغضب وغلبت عليه الحدة فامر برفع المائدة واخرج عابدة وطلب الانفراد ليناجي نفسه في مافعله هل اخطأ بقتل ابنه أم كان يقدر ان يستبقيه . فقضى بقية تلك الليلة في أمثال هذه الهواجس لايجسر احد على مخاطبته

اما عابدة فكان اخراجها من حضرة الخليفة صدمة قوية للغرض الذي كانت تهيء نفسها له وسارت توا الى غرفة سعيد فلم تجده هناك ولاحظت من حال الغرفة أنه خرج منها خروج المسافر ومكثت على ذلك وهى تصبر نفسها لعله يأتي فمضى هزيع من الليل ولم يأت فخرجت تلتمسه عند الزهراء فوجدت مربيتها وكانت قد تعرفت اليها فسألتها هل رأت سعيدا فقالت « لا هو ولا الزهراء »

فاجفلت عابدة للحال ودلها قلبها على مكيدة فقالت « وكيف اتفق خروجهما معاً ؟ »

فهزت كتفيها كأنها تتنصل من تبعة ما خطر ببالها فادركت عابدة ان تلك الوصيفة تشك في ذلك الامر ثم شاع في القصر كله خبر ضياع الزهراء ولم تبق وصيفة ولا وصيف ولاخادم ولاخادمة الا عرف به وبث تمام رئيس الخصيان للبحث عنها في سائر القصور فلم يقف لها على خبر

اما عابدة فانها عادت الى غرفة سعيد لتعيد النظر وتتفرس في الاشياء فلم تردد الا اعتقادا بفراره فانقبضت نفسها وتولاها اليأس فجلست على مقعد هناك وقد انحلت عزائمها واسترخت كأنها اصيبت بغيبوبة واستغرقت الهواجس واخذت تراجع تاريخ حياتها مع سعيد وكيف كانت متيمة به وهو يعدها بأن يتزوجها وكيف جعل شرط الزواج فوز العبيديين على الامويين واستخدمها في كثير من الاحوال لتنفيذ اغراضه وآخرها دخولها نصر الزهراء على ماعلمت وكيف اراد ان يستخدمها في الفتك بالخليفة وكيف انها قبلت بذلك على أن تكون هذه المهمة آخر العقبات في سبيل نيل مرامها ثم هو يفر من القصر بالزهراء . ولما تصورت فراره بها اجفلت وجلست على المقعد والظلام حالك فغلب عليها الانقباض فاركنت الى البكاء

وهي مستغرقة في البكاء سمعت الآذان وعلمت أنه آذان نصف الليل فتذكرت وصية سعيد أن تسقي الخليفة العقار وتشربه في تلك الساعة فغلبت عليها الطاعة للاستهواء فنهضت واستخرجت الورقة من جيبها وعمدت الى الكأس وفيها الماء وصبت العقار فوقه واخذت تتأمله وتقول « هل الموت مختبيء في هذا الماء ؟ . . الموت ولا هذا العذاب . . ولكن لا . لا . ربما صدق سعيد فيأتيني بعد قليل . . . . كيف يأتي وقد فر بالزهراء ؟ . . لا . لا اظنه يفعل بل هو يشفق على قلبي لانه يعلم مقدار حبي له »

ثم وضعت الكأس من يدها واسندت رأسها على الحائط فغلب عليها النعاس من فرط التعب فتوالت عليها الاحلام المزعجة ولم تستيقظ الا على آذان الصبح فنهضت مذعورة لصوت الآذان ورأت الكأس لا تزال كما هو فتناولته وكان الاستهواء قد ذهب تأثيره فانتبهت لنفسها وقالت « اين ذهب سعيد . . هل يعود ويشفق على قلبي . . . سامحك الله ما اقسى قلبك وان لم ترجع فهل ابقى حية . تباً للحياة بعدك . الافضل ان اموت . . ان اموت في هذه الكأس ؟

ورفعت الكأس وتأملت وهمت ان تضعه على شفتيها فاذا بيد قبضت على ذراعها فوقعت الكأس الى الارض وانسكب ما فيها فأجفلت والتفتت فرأت ساهر ينظر اليها بوجه عبوس ويقول لها « اين مملوك . . . ابن سعيد الوراق الخائن ؟ »

قالت « لا أعلم . . أين هو اني ابحث عنه »

قال « قبحه الله من خائن . . قد وشى بالامير عبد الله والفقيه وعجل قتلهما وهو سبب خروجهما على الخليفة وانت معه لانك رفيقته »

فقالت « أنا ؟ . أنا المسكينة الذليلة ؟ انه خانني قبل كل واحد . . » واطلقت لنفسها البكاء . . فرق ساهر لها وقال « خانك أنت ؟ »

قالت « قد عذبني عدة أعوام وهو يعدني بالزواج فاطعته الى هذه الساعة ثم ظهر لي انه فر . . ألم يفر ؟ »

قال « يظهر انه فر والزهراء معه وقد علم الخليفة بذلك وبعث الي فامرني ان ابحث عنه فلما وجدتك هممت بالقبض عليك لانك رفيقته »

قالت « ويلاه من ذلك الظالم الخائن . . آه لو القاه لاقتله بيدي قد كنت لهذه الليلة اتعشقه واستهلك في حبه أما الآن بعد أن تحققت خيانته فليس في الدنيا ابغض الي منه ولو تأتى لي ان امتص دمه لفعلت . . » قالت ذلك وهي ترتعد من التأثير وتحرق أسنانها

ومن نواميس الحب انه يزداد بالتبادل أو بالامل فالمحب يزداد تعلقاً بحبيبه اذا تحقق انه يحبه أو استدل من تصرفه انه سيحبه فيحيا بالامل فاذا علم بعد ذلك ان امله في غير محله وان ذلك الحبيب كان يخادعه تصيبه صدمة الفشل فينقلب حبه بغضاً ويشتد بغضه بنسبة ذلك الحب ــ وهكذا أصاب عابدة لما تحققت خيانة سعيد لها فانها نقمت عليه نقمة لا تقاس بها نقمة أعدى الاعداء

فقال لها ساهر « انت طبعاً تعرفين منزله ومخبآته في قرطبة وارباضها » قالت « اعرف : . نعم اعرف كثيراً من أحواله » وحرقت أسنانها قال « اتبعيني » ومشى نحو غرفة الخليفة فلقي تماماً رئيس الخصيان

فاخبره « ان هذه الجارية تعرف كثيراً من مخبآت ذلك الخائن لانها كانت معه وقد خدعها وخانها وكاد يقتلها فهي تدلنا عليه اذا أمر الخليفة بشرذمة ترافقنا فنذهب الآن للبحث حالا »

فدخل بمام على الناصر وقص عليه ما قاله ساهر فامر أن يرسلوا معه شرذمة من الفرسان الاشداء ومعهم عابدة ترشدهم الى المكان فهيأوا الافراس وأتوا عابدة بفرس ركبت عليه وركب ساهر على فرس الى جانبها وقد اعجبه ما ظهر من أدبها . وكان قد استلطفها كثيراً منذ رآها في قصر مروان منزل الامير عبد الله وتولدت فيه حاسة الشفقة عليها الآن . وكان حسن السريرة مخلص الطوية شديد الحب مع انه خصي لا يرجو من وراء الحب غير تعب القلب ولكنه كان قد أحب الزهراء الى درجة العشق ويكتفي من حبها أن تبتسم له وتظهر رضاها بعمله وقد خدمها في التجسس على عبد الله خدمة حسنة ولذلك كان من أكثر الناس غضباً على سعيد لفراره بها

الفصل الحادي والسبعون

الفخ

أما سعيد فقد تركناه على ظهر السفينة ومعه الزهراء وقد تولاها الخوف وأوشكت أن تيأس من النجاة لكنها صبرت نفسها لترى عاقبة الصبر . فجرت السفينة بهم ساعة والريح خفيفة وسعيد يحاول استرضاء الزهراء وهي لا تزداد الا اضطراباً تنتقل في السفينة من جانب الى جانب تتطلع الى الشاطئ والظلام يحجب الشاطئين عنها لولا ما تراه من بصيص الانوار في بعض الاماكن

وكان جوهر فى أثناء ذلك متشاغلا لا يتكلم . فرأت سعيداً يغافل جوهر ويدور من ورائه وبيده كيس معلق بحبل قد حمله سعيد ومشى الهوينا وجوهر مشتغل بربط حبل الشراع الى السارية وقد وقف على حافة السفينة والظلام حالك والرجل في غفلة فاستغربت الزهراء ذلك التلصص ولم تفقه له معنى . على انها لم يطل نظرها في الامر حتى رأت

سعيداً وثب على جوهر فجعل ذلك الحبل حول عنقه ورفسه برجله فسقط في الماء الى قاع النهر فصاحت الزهراء « ويلك ماذا فعلت ؟ » ووقفت وركبتاها ترتجفان وهي تنظر الى الماء تتوقع أن يعوم جوهر فلم يعم لان في الكيس حجراً أغرقه الى القاع .فصاحت « ما هذا »فتجاهل سعيد ثم قال « لعل جوهراً وقع في الماء »

فقالت « تقول ذلك وأنت أغرقته ؟ »

قال « ما لنا وله دعينا وحدنا »

فأيقنت عند ذلك وقوع الخطر فصاحت فيه « ويلك يا خائن . . كيف قتلت الرجل وهو خادمك الامين . ما أسهل القتل عليك . . »

وكان سعيد قد قبض على الدفة وجعل يديرها نحو الشاطيء فلم يجبها حتى رست السفينة فنهض اليها وتناولها بيده وقال « اطاعي الى البر »

فتراجعت وقالت « الى أين ؟ لا . لا أطلع »

قال « أتريدين البقاء في السفينة ؟ »

قالت « بل ألقي بنفسي في الماء .الموت خير لي من رفقتك » واجتذبت يدها من يده وهمت أن تلقي نفسها في النهر

فمنعها وهو يقول « ألا تريدين أن تلاقي أخاك ؟ قد وصلنا الى مكانه وخلصنا من التعب »

فلما سمعت قوله عاد اليها أملها وأطاعته فنزلت الى البر وقد بان الفجر فالتفتت الى ما حولها فاذا هي في بستان في وسطه بيت كالذي كانت فيه منذ هنيهة ورأت البغال هناك ايضاً ثم شاهدت الكلب الذي رأته بالامس ، اذا بسعيد قد تناول المفتاح وفتح الباب واشار اليها ان تدخل فتحققت انها في البيت الذي كانت فيه منذ بضع ساعات وان سعيداً لم يركب السفينة إلا ليغرق جوهرا في الماء فأصبحت ترتعد من فظاعة ذلك العمل ولما دعاها للدخول ابت وقالت « لا ادخل او تقول لي اين أخي ؟ »

قال « يظهر ان اخاك وسائر رجالنا فروا من هذه الديار لما بلغهم مقتل الامير عبد الله والغالب انهم رجعوا الى القيروان إذ كان موعدنا من

أول الامر انه اذا احسسنا بالفشل ونحن في اي مكان رجعنا الى القيروان . فما علينا الآن إلا ان نذهب الى هناك »

قالت « الاتزال تخدعني . قد انكشفت لي خيانتك ولكن ويلاه بعدان ضاعت حيلتي . » قالت ذلك وقعدت على الارض واخذت تبكي وتلطم وجهها

فأمسكها سعيد وأراد إنهاضها وهو يقول لها « لا تستسلمي الى الظنون . . ما أنا والله خائن وانما انا محب عاشق . اقلعي عن هذا الجنون وتعالي معي الى القيروان فتشاهدي أخاك وبعد ذلك اذا شئت الرجوع به الى قرطبة والا بقينا هناك بارغد عيش »

قالت ألا تزال تذكر الحب والغرام وقد ظهرت خيانتك ؟ »

فامسك يدها وقال « ادخلي الى البيت وافعلي ماشئت . . لا فائدة من بقائك هنا . . قومي ادخلي »

فاطاعته ونهضت حتى دخلت البيت وعرجت الى أقرب الغرف فوقفت الى الحائط وهي فى غاية الاضطراب

فجثا امامها جثو المتضرع وقال « آه يا حسناء والله اني أحبك . . أحبك . وتحبك كل جارحة من جوارحي . . . قد ركبت الخطر واقترفت الذنوب واتيت الفظائع طمعاً بالوصول اليك . أيعقل انى أخونك ؟ سترين مني ما ينسيك هذا العذاب - نعم اني أسأت الى كثيرين ولكنني فعلت ذلك فى سبيل حبك ارحمى متيما دنفاً لا يطلب من الدنيا سواك » قال ذلك بتذلل ويكاد الدمع يتناثر من عينيه وهو شاخص اليها

الفصل الثانى والسبعون

اليأس

أما هي فكانت تسمع كلامه وهي مطرقة فلما فرغ من قوله دفعته بيدها وقالت « أتعترف بجرائمك وذنوبك ثم تطالب الي أن أحبك؟ اني لا أحب ولا أقدر أن أحبك . . »

فتلملم واعتدل في مقعده وقال « نحن هنا وحدنا ونريني استعطفك واتذلل لك فلا تستبدي بي واسمعي نصحي . . »

قالت « ان من يزعم انه محب لا يكذب حبيبته ولا يخونها »

قال « أنت حبيبتي ومتى خنتك ؟ »

قالت « ألم تأت بي الى هنا لمشاهدة أخي فأين هو ؟ »

قال « قلت لك انه رجع الى القيروان ودعوتك للذهاب اليه فلم تقبلي »

قالت « هل يعقل فرارهم جميعاً ؟ »

قال « نعم هذا كان موعدنا انه متى شعرنا بالفشل ننتقل الى القيروان . . فلما سمعوا بمقتل عبد الله وابن عبد البر وياسر واطلاع الناس على أمرهم فروا — وقد اخطأوا لانهم لو انتظروا مجيئي الآن لعلموا ان عدوهم الاكبر قد مضى »

قالت « من تعني ؟ »

قال « اعني اكبر عدو نخافه ونخشى بأسه »

قالت « لا أعرف أحدا تعنيه الا أن يكون الناصر »

قال « هو اعني »

فاجفلت وقالت « ماذا تعني بأنه مضى ؟ »

قال « لا تعجبي . اعني انه مات »

فتراجعت وصاحت « الناصر ! الناصر مات ! خسئت ان باعك أقصر من أن تناله »

فوقف وهو يهز كتفيه ويقول « سواء صدقت أو لم تصدقي فقد قلت لك الواقع ومع ذلك فهو بعيد عنا ولا شيء يمنعني مما أريده واذا بقيت على عنادك جعلتني أعمد إلى العنف »

فتفرست في وجهه وقالت « لك أن تقتلني وتقدر أن ترميني في هذا الماء كما رميت ذلك الخادم الامين ولكن لايمكنك أن تحول بغضي الى حب وأنت قد ارتكبت ما ارتكبته حسب قولك التماساً لحبي وانا لا احبك . لا أحبك .. فافعل ما تشاء . اقتلني »

فنظر اليها نظر الاستغراب وقال « اظنك لم تفهمي مرادي .. اذا أقلعت عن هذا العناد وأطعتني فليس فقط تلاقين أخاك بل تعيشين عندي عيشة الملكة الآمرة الناهية »

قالت « فهمت كل ماتقوله ولكنني لا اقدر ان احبك ـ أقول ذلك مع علمي ان موتي وحياتي بين يديك فافهم ؟ »

فقال « يالله ما هذه الوقاحة »

قالت « لاتكثر الكلام . ليس عندي غير ما قلته لك وان ماتزعم انك فعلته في سبيل حبي لايزيدني الا بغضاً لك واذا خيرت بينك وبين الموت لاخترت الموت . ألا يكفيك هذا التصريح أقتل ثم أقتل » قالت ذلك وقد احمرت عيناها من البكاء والغضب وأخذت ترتعد وقد اصطكت ركبتاها ولم تعد تستطيع الوقوف فقعدت وقد خارت قواها وأسرع تنفسها وأوشكت أن تصاب بنوبة عصبية . ثم انقلب ذلك الغضب بغتة الى حزن فغلب عليها البكاء فأخذت تندب نفسها وتلطم خديها وتقول « ويلاه يازهراء . أين أنت ياسيدي الناصر . . نصرك الله على اعدائك واذا علمت بموتي فاعلم اني مت على ولائك . فاني محبة لاحبائك عدوة لاعدائك الى آخر نسمة من حياتي . . آه . آه . . تباً لك ياسعيد أو ياسليمان أوكما تسمي نفسك . . قد ارتكبت آثاماً كثيرة ألم يكن الافضل لك أن تقتل نفسك وتخلص الناس من شرك ؟ من أجل هذا الحب الذي تزعمه ارتكبت هذه الآثام -- أنت تكلفني أن أحبك ولا طاقة لي بذلك . . دعني . . أو اقتلني وليس لك مأرب ثالث » ولما فرغت من قولها كان أنهكها التعب وهي لم تنم طول الليل الماضي فضلا عن الغضب والخوف فخارت قواها وهي لاتزال في ثوب صاحب البريد

أما سعيد فكان يسمع توبيخها وتعنيفها وهو صابر يراعي حركاتها وسكناتها ويتردد بين أن يبقى على المحاسنة أو يأتيها بالعنف فلما رآها استلقت منهوكة القوى وقد امتقع لونها وكاد يغمى عليها قعد أمامها ومد يده الى رأسها وأراد أن يمر بده على جبينها لعله يؤثر عليها بكهربائيته أو مغنطيسيته

فحالما لمست يده جبينها نهضت مذعورة كأنها وخزت بحربة ونفرت منه . فنهض وقد أخذه الغضب وجرى في أثرها وهو يحاول أن يحوط خصرها بذراعيه وهي تتحاشى أن يمسها فأفلتت منه وقد تدلى شعرها على كتفيها وهمت أن تخرج من البيت الى البستان فسبقها وأقفل الباب فأصبحت سجينة ولكنها احست بقوة لم تعهدها في نفسها من قبل والتفتت الى سعيد وقالت « أهذا ما تزعمه من حبك تثب على كالوحش الكاسر والله انك لا تأخذني الا جثة هامدة »

فتراجع وقال « كم توسلت اليك وتذللت لك فلم تقبلي وهل يليق بي وأنا لا يعجزني قلب الممالك وتفريق الجنود أن أعجز عن إخضاعك ؟ »

قالت قلت لك يمكنك أن تقتلني فقط . هذا كل ما يمكنك أن تفعله معي والقتل لا يهمني . . اقتلني كما قتلت سواي وعش هنيئاً . . ماذا ينجيك من غضب أمير المؤمنين الى أين تفر من سيف نقمته ؟ »

فضحك ضحكة صح لها المكان وقال « قلت لك ان الناصر مضى الى حال سبيله »

فصاحت « ان يدك أقصر من ان تناله »

قال « يظهر انك لم تعرفي من أنا وسوف تعلمين »

الفصل الثالث والسبعون

شد الوثاق

قال ذلك وأراد أن يتحول عنها ليتناول شيئاً في غرفة أخرى فسمع نباح الكلب وكان نباحه اذا استعرب قادماً فاجفل سعيد وأنصت واذا بدبدبة حيول قد تعالت فتركته الزهراء مشتغلا بالتنصت وفتحت الباب ووثبت الى الخارج معثرت بالعتبة ووقعت لكنها عادت فنهضت واذا بعشرات من الفرسان قد ملأوا البستان وفي مقدمتهم فارسان عرفت منهما ساهراً فصاحت «ساهر ساهر . لله درك . عليكم بهذا الخائن أحيطوا بالمنزل وأحذروا أن يفلت منكم»

فهرولوا بأفراسهم حول المنزل وجاء بعضهم من ناحية الباب فخرج اليهم سعيد وقد تبدلت سحنته وجحظت عيناه وقال لهم «لا تزعجوا انفسكم ها اني بين أيديكم لا أحمل سيفاً ولا سكيناً ولا تخافوا فراري » قال ذلك بهدوء وسكينة كأن لم يكن شيء مما كان

فتقدم اليه ساهر ووراءه جماعة قد صوبوا سيوفهم الى سعيد وقال له ساهر « تسمح لى ان أشد وثاقك ؟ »

فمد يديه وقال « افعل »

فأخذوا يشدون وثاقه وهو ينظر الى مابين يديه فرأى عابدة بينهم فقال « عابدة . وانت ايضاً ؟ »

فلم تجبه ولكنها تقدمت الى الزهراء واخذت تخفف عنها فسألتها الزهراء عن الناصر فقالت « هو في خير وكيف انت جئت معه ؟ »

قالت « اتيت معه لارى اخي »

قالت « ومن اخوك »

قالت « يسمونه صاحب النقمة »

قالت « صاحب النقمة أخوك . . ألم تريه ؟ »

قالت « لم أجده هل تعرفين مكانه »

قالت « نعم أعرفه »

فصاحت « بالله أين هو ؟ خذيني اليه »

فاشارت اليها أن تنتظر والتفتت الى ساهر وكان قد شد وثاق سعيد وتقدم به إلى أربعة يحرسونه وجاء في الحال الى الزهراء ووقف متأدباً وقال « هل تأمر سيدتي بشيء أجريه اني عبد المطيع »

قالت بورك فيك من شهم لقد جئتني بالفرج في أبان الضيق جزاك الله خيراً »

فتبسم وقال « ان هذه الكلمة من فيك تساوي عندي كل أموال الدنيا — ولا تنسي أن لعابدة الفضل الاكبر لانها دلتنا على هذا المكان ولولاها لم نعمل شيئاً »

فالتفتت الزهراء الى عابدة وضمتها الى صدرها وقالت ولا أنسى فضلك يا عزيزتي ويزداد ذلك الفضل اذا استطعت ان تهديني الى أخي »

قالت « أنا أعرف مخبأه لكنني لا أقدر ان ادعوه فانه لايصدقني بل ربما فتك بي »

فقال ساهر « أنا اسير اليه . قولي أين هو مكانه »

قالت « ولا أنت فانه يسيءالظن بكل رجال الناصروكل أهل الاندلس وخصوصاً الآن بعد شيوع مقتل الامير عبد الله ؟

قال « ما الحيلة اذاً »

قالت « الحيلة ان تأخذ اليه كتاباً أو علامة من سعيد فانه يأتي سريعاً لانه يحترمه احترام العبادة . . »

فقال ساهر « لا أظن سعيداً يعطينا كتاباً أوعلامة »

قالت عابدة « أنا اكلمه . . دعوني أدخل اليه وحدي »

قالت ذلك ودخلت عليه وهو مشدود الوثاق في إحدى غرف ذلك البيت . وكان جالساً وقد اقطب حاجبيه واطرق كانه يفكر وبان الاهتمام في عينيه فلما لمح طلها رفع بصره اليها فلم يتمالك عن ارسال دمعتين فلما رأته يبكي خفق قلبها وتذكرت ما كان له من المنزلة الرفيعة في نظرها وكيف قضت عدة سنوات وهي ترى السعادة في رؤيته والموت والحياة بين شفتيه فتأثرت من منظره وغلب عليها الحنو فقالت « يسوءني ياسيدي أن أراك في هذه الحال . وأنا الجانية عليك لاني دللتهم على مكانك ولكنك أذهبت رشدي باعمالك »

فقطع كلامها قائلا وهو يظهر التجلد « لاذنب لك ياعابدة وانما الذنب لي . . أنا لا أنسى ما اقترفته من أسباب الشقاء لك وكم عرضتك للموت . أعرف هذا كله وأدرك ذلك فلا لوم عليك مهما عملت وسيسوقوني الى [illegible] أو غيره وسيقتلني صبراً . وهذا كله لا يهمني لان الحياة لم تعد تحلو لي . . »

وسكت هنيهة ثم قال « ماذا تم بالناصر هل أصابه سوء ؟ »

قالت « لا . . لأني [illegible] أقدر على تنفيذ أمرك ؟

فتنهد تنهداً عميقاً وقال « الحمد لله . . . أشعر الآن يا عابدة كأني صحوت من رقاد أو أفقت من اغماء . . فاذا كنت قد تعمدت نجاة الخليفة فان لك الشكر »

قالت « الحق يقال اني لم اتعمد ذلك قط » وقصت عليه ما وقع بالاختصار ثم قالت « لعل الخليفة اذا تأكد رجوعك وتوبتك يعفو عنك ليستفيد من علمك ودهائك »

فهز رأسه هزة الافتكار والاشمئزاز وقال « لا . لا أحب البقاء بعد الآن لان نفسي لاترضى بدون منصب الملك أو الخلافة . أما وقد تعذر ذلك فالقبر أولى . . وقد خدعتك وخدعت سواك وفتكت وغدرت رغبة في ذلك المطمع فاسقط بيدي فاحب الآن أن أخدمك بشيء تريدينه »

قالت « لا أريد شيئاً . . سوى أن الزهراء . . . وهذه قد لحقها منك عذاب شديد (فحرق أسنانه عند سماع اسمها) فاذا كنت تشعر بذلك فاكرمها بايصال أخيها اليها . وانا اعرف مكانه لكنني أعلم أنه لا يصدق سواك ولا يثق بغيرك فارسل اليه علامة منك أو كتاباً أن يحضر الى هنا ومتى جاء كنت وسيلة في تعريفه الى أخته وهذه كفارة عن كل سيئاتك معها .. »

قال « افعل ذلك . . مدي يدك الى هذا الخاتم تناوليه من اصبعي واذهبي الى المنزل الذي تعرفينه واطلبي سالماً ولا تسمه صاحب النقمة فتى جاءك اعطه هذا الخاتم واسأليه ما شئت »

فمدت يدها واستخرجت الخاتم من يده وأحست وهي تستخرجه ببرودة أطرافه فتجاهلت

ولما أرادت الخروج ناداها فعادت فقال لها « انت تعلمين أن القوم الذين أغريناهم على الثورة لايزالون يجتمعون هناك وتعلمين أن الذنب في ذلك ذنبي انا فهؤلاء لا تزال الدولة تعدهم أعداءها فاذا عرفت مكانهم ربما فتكت بهم فتزيد ذنباً آخر الى ذنوبي فينبغي ان تذهبي أنت وحدك وتحتفظي بهذا السر وتأتيني بصاحب النقمة وحده وانا أرشده الى السقيفة بهذا المفتاح في جيبي لتفتحي به الباب الخارجي وهو يعود فيحل الملك

الجمية ولا يعرف أحد بها ولا تجدين الآن منهم أحداً هناك كما تعلمين »
قالت « حسناً » واستخرجت المفتاح ورجعت الى الزهراء وقالت لها
«هذه هي العلامة وأنا أذهب بها لآتيكم بسالم ومتى جاء فان سعيداً يتمم المعرفة »

الفصل الرابع والسبعون

صاحب النقمة

تنكرت عابدة بلباس رجل ومشت حتى دخلت ذلك الدهليز واتصلت منه الى الباب وطرقته الطرقة التي عرفتها فخرج اليها شاب ملثم الوجه وقال « من الطارق »

فقالت « افتح وخذ هذه الرسالة » ففتح كوة صغيرة في الباب فمدت الخاتم منها وحالما رآه فتح الباب ودعاها للدخول وهو يحسبها رجلا فقالت « ان صاحب هذا الخاتم يدعوك اليه الآن وهو على مقربة من هذا المكان »

قال « هل هو في ضيق »

قالت « لا . . ولكنه يحب أن يراك وحدك »

فدخل وغير ثيابه وخرج معها حتى تجاوز الدهليز وهو يتفرس فيها لانه طرب لرخامة صوتها وشعر انها امرأة فقضى مسافة الطريق وهو يسألها الأسئلة ولو بغير باعث ليسمع صوتها وكلما سمعه زاد [illegible] ، وقد تذكر انه سمعه قبلا وطرق باب قلبه

وبعد قليل اقتربا من البستان فسمع صهيل الافراس وعلم انها افراس خيالة الناصر فوقف وقال لها « أما آن أن يكون في الامر [illegible] يا رجل أو يا امرأة »

قالت « كلا يا سيدي وسترى ذلك حال وصولك »

قال « لا . . لا أخطو خطوة واحدة من هذا المكان قبل ان ترفعي عنك هذا القناع »

قالت « احب ان تعرفني » قالت ذلك وازاحت اللثام

وحالما وقع نظره عليها عرفها فصاح « عابدة ! اين سعيد؟ماذا أرى »

قالت « لا تخف يا سالم . . اما وقد عرفتني فلم يبق باعث على الحذر وعما قليل ترى سعيداً وهو يقص عليك خبراً جديداً »

وكان سالم قد خرج وعليه عباءة وتحتها السيف والخنجر وكان طويل القامة عظيم الهيبة جميل الخلقة يكاد الشرر يتطاير من عينيه لايهاب العشرة اذا لقيهم وحده وقد تعود الضرب والطعن . فلما سمع قول عابدة وهويعلم منزلتها عند سعيد واختبر غيرتها على أحزابه . مشى معها حتى وصلا الى باب البستان وكانت الزهراء قد اختبأت في احدى الغرف ريثما يقابل اخوها سعيداً ويمهد السبيل للتعارف

فمشت عابدة بين يدي سالم في البستان ومشى هو في اثرها مشية البطل الباسل لايبالي بما هناك من الخيول حتى وصل الى باب البيت فسبقته عابدة الى سعيد وانبأته بمجيئه وكلفته ان يخاطبه ليستأنس به لئلا يستغشنا فصاح من الداخل « سالم ! »

فلما سمع صوته وثب اليه وهو يقول « لبيك يا سيدي » وما عتم ان رآه موثقاً على تلك الصورة حتى صاح « ماذا ارى » واستل سيفه وقال « نفديك روحي من اوثقك ؟ »

فاجابه سعيد بهدوء وسكينة « تمهل يابني نحن في حال آخر . انا اوثقت نفسي وانما دعوتك لاعترف لك اني خدعتك »

فاستغرب سالم قوله وقال « خدعتني ! معاذ الله »

قال وهو يغص بريقه « نعم خدعتك وخدعت آخرين مالنا ولذلك احب ان انصحك نصيحة الوالد . اعلم ياسالم ان المشروع الذي قمنا له فشل وقد تعلم قتله من مقتل الامير عبد الله ورفيقه لانهم اتهموا بالانتماء الينا . والصواب الآن الرجوع عن هذا الامر . . »

فصاح « نرجع عنه ؟ . انا لا ارجع . . خصوصاً بعد ان جاهر ذلك الخليفة برغبته في الاقتصاص مني وهدد بقتلي ان كتب ذلك على اللوح الذي اعلن فيه الاعدام »

قال « نعم قد فعل ولكن لافائدة من مقاومته وليس من الحكمة مقاومته عبثاً فالرجوع الى الصواب اولى . . اخبر بذلك سائر الرفاق »

قال « لا حاجة الى اخبارهم فانهم تفرقوا من أمس خوفاً بعد اطلاعهم على ذلك الخبر »

قال « وانت »

قال « كنت عازماً على البقاء والمثابرة على السعي في هذا السبيل عملا بما بثته في من الانفة وطلب الحق . . ولكن . . »

قال « قد قلت لك رأيي في هذا الشأن »

قال « وانت الى أين ذاهب بهذا الوثاق »

قال « اني سأساق الى الخليفة ليحاكمني »

قال « وكيف تقبل بذلك ـ دعني انجيك من الآن بحد هذا الحسام »

قال « لاتفعل . . »

قال « اذهب معك للمحاكمة او القتل ولا اتخلى عنك »

قال « تأتي معي ولكن لتكون سعيداً صاحب القول الفصل والكلمة النافذة في بلاط الخليفة »

فدهش لهذا القول ولم يفهمه فقال « ماذا تعني . . ان الناصر لا يكاد بصره يقع على حتى يأمر بقتلي لاني كنت اكثر أعدائه مجاهرة بعداوته »

قال « نعم . ولكن لك شفيعاً لاترد شفاعته »

قال « من هو ذلك الشفيع إن لم يكن أنت »

قال « ألا تذكر أختك حسناء »

فقال « دعني من ذكراها فقد مضت عدة أعوام لم أذكر اسمها ولكنها لم تبرح صورتها من ذهني . . . الذي بعث الى ذكرها الآن »

قال « لانها ستكون شفيعة لك عند الخليفة »

فصاح قائلا « اختي حسناء هل هي حية باقية ؟ أين هي . . أم انت تعني شيئاً آخر »

قال « ان اختك حسناء حية وهي الآن صاحبة المقام الاول عند الناصر »

الفصل الخامس والسبعون

اللقاء

فاطرق سالم وهو يفكر في ما سمعه ولا يصدقه . ثم رفع بصره الى سعيد وقال « اصدقني الخبر ياسيدي . . فقد فهمت منك مراراً أنها ماتت »

قال « نعم قلت لك هـذا ولذلك اعترف لك الآن اني خدعتك فان اختك لاتزال حية وهي اقرب الناس من الناصر »

قال « ياللعجب . . ماذا اسمع ؟ كيف غاب عني هذا الامر كل هـذه الاعوام وأنا على مقربة منها ؟ »

قال « لانك لاتعرف اسمها الجديد فـكما غيرت اسمك من سالم الى صاحب النقمة غيرت هي اسمها من حسناء الى الزهراء »

فصرخ وقد دهش وقال « الزهراء ؟ . . الزهراء حظية الناصر اختي ماذا تقول ؟ »

قال « نعم ان الزهراء اختك وهي تتفانى في حبك »

قال وقد جحظت عيناه « هل تعلم هي بوجودي ؟ »

قال « كانت تحسبك ميتاً الى أمس فاخبرتها بوجودك حياً فهرعت من بيت الخليفة وأتت معي ليلا لتراك وتنصح لك بالرجوع الى طاعة الناصر »

فصاح وقد أخذته الدهشة « أين هي ؟ »

قال « هي قريبة منك » وأشار بيديه الى ذلك المكان

قال « هي هنا الآن ؟ » وتلفت حوله

وكانت الزهراء ساعة رجوع عابدة مستلقية في بعض غرف البيت تنتظر [illegible] ذلك الليل فدخلت عليها عابدة وحدها فدهشت وسألتها عن سالم فقالت « انه سيأتي بعد قليل لانها تركته في بيت صاحب النقمة »

فقالت « اصدقيني . . اظنك لم تجديه أو لعله قد [illegible] مات ؟ ويلي »

فقالت « وحياتك هو حي وسيأتي بعد قليل »

فصدقتها وصبرت نفسها وهى كلما سمعت حركة اوصوتاً تحسب أخاها قادماً وعابدة تشاغلها ريثما يفرغ سعيد من التعريف . واذا بالزهراء نهضت فجأة وقالت « أسمع صوت اخى . . هذا صوته يرن في اذنى . . » وهرولت نحو الباب فمشت عابدة معها ولما دنت من الغرفة التي كان سعيد فيها سمعت كلاماً فقالت « اسمع سعيداً يتكلم . مع من ؟ »

قالت « ستعلمين بعد قليل »

قالت « اظنه يكلم اخي . . » واقتربت من الباب وكان مغلقا فسمعت اخاها يقول « هي هنا الآن »

فعرفت صوته ففتحت الباب وكان هو يقول ذلك ويتلفت حوله فوقع بصره عليها وهى لا تزال بلباس صاحب البريد فلم يعرفها . أما هى فوقفت لحظة تتعرف ملامحه وتتفرس فيه . وما عتمت ان القت نفسها عليه وهى تصرخ « اخى . . اخى سالم »

فلما سمع صوتها عرفها فضمها اليه وتعانقا وتضاما وعابدة وسعيد ينظران اليهما نظر الاشفاق وسعيد كانك أبدلته بسواه فقد تغير قلبه وتبدلت عواطفه وأحس بالفظيعة التي أوشك أن يرتكبها لو لم تتداركه عابدة بالجند ويقبضوا عليه . فانه كان عازما على الفتك بها وباخيها اذا هي لم تبادله الحب والغرام . فلما رأى تعانقهما والدموع تتساقط من عينيهما فرحاً بذلك اللقاء شعر بخطر الذنب الذى كان عازماً على ارتكابه وأحس بلذة الاحسان في هذا اللقاء لانه كان وسيلة التعارف بين الاخوين مهما كان قصده فجعل يتأمل حركاتهما فكانا يفترقان لحظة ريثما يتأمل أحدهما وجه صاحبه ثم يرتدان الى العناق

أما عابدة فتفرحت لانها كانت الوسيلة في [illegible] على الخصوص انها لم تقتل الشريفة ولا هو علم أنها كانت عازمة على [illegible] لم يكن ذلك الا رغم [illegible] ذنبه

أما سالم [illegible] أن قبل اخته مراراً تباعد [illegible] ثم نظر الى اخته وقال « لا ازال أحسبني في منام لأني كثيراً [illegible] في منامي

وقبلتك مثل هذه القبلات ثم أستيقظ فلا اجد احداً »

قالت « انت في يقظة ياحبيبي وقد تمت سعادتى الآن بلقياك »

فقال « أليس الفضل في هذا الاجتماع لصديقنا سعيد ؟ »

قالت « نعم له فضل . . وتنهدت فصاح سعيد فيها وقال « أنا اولى بهذا التنهد ياحسناء » قال ذلك وهو مغلول اليدين فلم يستطع سالم مشاهدته على تلك الحالة فقال لاخته « حلوا وثاق سعيد واذا كان له ذنب فهو لا يفر»

فاعترضه سعيد قائلا « لا . لا اريد أن يحل وثاقي . . »

فحولت الزهراء انتباهه الى عابدة وقالت « ان الفضل الاكبر في هذا اللقاء حقيقة هو لهذه الادبية اللطيفة . هل تعرفها ؟ »

فهز رأسه مجيباً وقال « نعم . . نعم اعرفها »

قالت « وهل عرفتها قبل الآن ؟ »

قال « عرفتها مع سعيد الوراق . . . ياللعجب ماذا ارى ؟ اهذا سعيد صاحب الرأي الصائب والقول الفصل . . . »

أما عابدة فقد توسمت في ملامح سالم وحركاته توددا اليها واعجاباً بها فتحرك قلبها وهي أول مرة تحرك قلبها لغير سعيد فغضبت لتحركه خوفا من ان يسوقها الى بلاء جديد فاحبت ان تلهو عن ذلك بشيء آخر فقالت للزهراء « وهل نسيت يا سيدتي ساهراً ؟ . . . »

قالت « لا أنسى فضله من وجوه كثيرة . . . أما لقاء أخي فانا مدينة به لك بنوع خاص . . »

ثم نادت ساهراً وكان في طرف البستان مع سائر الخصيان فاتى ووقف متأدباً فقالت له « هذا اخي صاحب النعمة »

فأجفل وصاح « اخوك . هذا أخوك . وتقولين صاحب النعمة . . أليس هو طلبة امير المؤمنين . اعوذ بالله كيف يكون اخاً لاعز الناس عنده ؟»

فقالت « وسيكون من أعز الناس عنده لانه اخي . . »

فحني رأسه موافقاً وقال « نعم سيكون . . والآن يا سيدتي ألا تعود الى القصر فان أهله في قلق شديد لغيابك » قالت « نمضي حالا »

فخرج وامر الصقالبة أن يتأهبوا للركوب ويجعلوا سعيداً مخفوراً وهو معهم وسار الجميع قاصدين القصر

الفصل السادس والسبعون

المحاكمة

اما القصر فكان أهله في وجل لغياب الزهراء . وقد علموا بذهاب ساهر والصقالبة للتفتيش عنها والخليفة اكثر الجميع قلقا وغضبا ولو اخذت الزهراء وهو في ريب من إخلاصها لكان وقع المصيبة عليه اخف كثيرا . اما الآن بعد ان ظهر له من حبها واخلاصها في خدمته ما ظهر فضلا عن تعقلها ورويتها فاصبح شديد التعلق بها يفديها باعز ما لديه

فقضى معظم ذلك النهار في قلق لا يرتاح له بال وهو يرسل الوصيف اثر الوصيف يتشوفوا الطريق عن بعد وصعد هو على منارة من منائر جامع الزهراء ليشرف منها على الطريق المؤدي الى قرطبة فلم ير شيئاً

وفي الاصيل جاء البشير برجوع ساهر والصقالبة ومعهم سعيد والزهراء وعابدة ورجل آخر لم يعرفوه فأمر . أن يؤتى بهم الى بيت المنام في قصر المؤنس وجلس لهم بمجلسه يوم جاءته عابدة وسعيد حيث البركة وعليها التماثيل الذهب وغيرها . فادخلوا عليه أولا الزهراء وهي لا تزال بلباس صاحب البريد . فلما رآها استغربها فكشفت عن وجهها وانكبت على يده قبلتها فلما عرفها صاح بها « ويلك ماهذا ؟ »

قالت « هذا الثوب الذي تنكرت به ساعة الفرار »

فقطب حاجبه وقال « ساعة الفرار ؟ . لماذا فررت . أرأيت مني انكاراً لحقك ؟ رأيت أعز الناس عندي لما تأكدت من [illegible] واخلاص طويتك . . كيف تفرين ؟ »

قالت « فررت الى أخ لي كنت قد أضعته ثم بلغني انه موجود في مكان بالارباض فذهبت لاراه »

قال « وما كان أجدرك أن تطلبي احضاره فيجيئك ولو كان وراء سد ياجوج »

قالت « نعم أعلم ذلك ولكنى أخاف على أخى من أمير المؤمنين »

قال « تخافين على أخيك مني ؟ »

قالت « نعم يا سيدى . . انما خوفي منك وحدك وليس من سواك ؟ »

قال « أإلى هذا الحد تسيئين الظن في ؟ هل أكافئك على صنيعك الجميل باذى أخيك ؟ »

قالت «أيعدنى أمير المؤمنين اذا جاءه أخي وكان مذنباً أن يعفو عنه»

قال « لك ذلك » قالت « ولو كان ذنبه كبيراً ! »

قال « ماذا عسى أن يكون ذنبه نحوي ؟ »

قالت « قد يكون من الخارجين على الدولة . . »

قال « اعفو عنه اكراماً لك ولو كان صاحب النقمة »

قالت « هو صاحب النقمة ياسيدي بعينه »

فاستغرب قولها وقال « وكيف يكون صاحب النقمة أخاك ؟ »

فقصت عليه حديثها عن أخيها باختصار وما كان من أمر سعيد وكيف أحبها ولم تحبه وما فعله الى آن غر بها بالامس وكيف أنقذها ساهر وعابدة وكان الخليفة يسمع كلامها باستغراب ودهشة فلما فرغت منه انجلت أشياء كثيرة لم يكن يفهمها وتبين له أمور كثيرة تزيد ثقته بالزهراء فقال لها « لقد عفونا عن أخيك أين هو ؟ »

فأمرت أحد الغلمان أن يدعو سالماً فخرج وعاد به فدخل سالم وهو يمشي مشية الشجاع مع احترام فأعجب الناصر بما في وجهه من دلائل البسالة والجمال فأشارت اليه الزهراء أن يقبل يد الناصر ففعل ووقف فقال له الناصر « أنت صاحب النقمة ؟ [illegible] في جملة الخارجين [illegible] حتى خرجت [illegible] ؟ »

[illegible] أحوالها كانه [illegible] فيعود الى [illegible]

وقالت « [illegible] أمير المؤمنين عنه ؟ »

قال « عفوت ولكنني لا أفهم ما يحمل هؤلاء على الخروج وكان الاسلام على وشك السقوط فانهضته وكانت الدولة مبعثرة فجمعت شتاتها وقهرت أعداءها . ألم أرفع شأن الاسلام بعد ان كادت هيبته تذهب بما أتاه أصحاب بغداد من أسباب الضعف فأتاني ملوك النصارى يتزلفون ويتقربون وهاداني أكبر ملوك النصرانية وخطبوا مودتي . أليس في ذلك عز للاسلام والمسلمين ؟ من استطاع ذلك من الخلفاء قبلي ؟ . وأنتم مع ذلك تتآمرون وتتواطأون » وكان يقول ذلك وصوته يرتجف من الغضب حتى خافت الزهراء غضبه ونظرت الى أخيها مخافة أن تبدو منه كلمة تبعث على هياج الناصر فسمعت من الخارج صوتاً يقول « لا ذنب لاحد من المتآمرين انما الذنب لواحد منهم »

الفصل السابع والسبعون

موقف هائل

فعرف الخليفة صوت سعيد فأمر بادخاله وهو موثق اليدين وليس على وجهه شيء من مظاهر الخوف وانما كانت عيناه حمراوين يكاد الشرر يتطاير منهما . فلما وقع نظر الخليفة عليه هاب منظره وأمر أن يحل وثاقه فتقدم بعض الحرس الى حله ووقف بضعة منهم الى جانبيه والسيوف مسلولة وأشار بدخول سائر القادمين فدخلت عابسة فوقفت بجانب الزهراء ودخل سالم ووقف متأدباً بجانب سالم غادر الحديقة . بدا أن يتقدم حتى يقف في وسط القاعة فتقدم بقدم ثابتة وجأش رابط فقال له الناصر « أأنت سعيد الوراق صديقنا وموضع ثقتنا ؟ » فلم يجب

قال « هذا حرفتي لا [illegible] أكرمه [illegible]
[illegible] لا [illegible] خرج علي رأيت [illegible] في خروجه ثم [illegible]
على [illegible] النصرانية [illegible]
بك ؟ . . [illegible] ولكن [illegible]

كيف ارتكبت هذه الفظائع . كيف جعلت هذه الدنايا سبيلا اليك فاقترفت أموراً يتنزه عنها الجهلاء وأهل الطيش واموراً يستحى أهل الفجور من اتيان مثلها . أين كانت حكمتك . اين كان عقلك وسداد رأيك ؟ بل أين كان تدبيرك وأنت تعلم ان فرارك بالزهراء لم يكن ليتم لك وعبد الرحمن حي فانه يملأ الارض عليك خيلا ورجالا ويأتي بك صاغراً ذليلا . اذا لم يكن لك شرف يعصمك عن ارتكاب الرذائل ويردعك عن خيانة من اكرمك وقدمك ألم يكن لك عقل يدلك على الخطر الذي يهددك من هذه الجرأة ؟ »

وكان سعيد واقفاً يسمع كلام الناصر وقد تكتف ووقف مستريحاً ينظر الى بيت من الشعر مطرز على ستارة من ستائر تلك القاعة وسائر الحضور ينظرون اليه ينتظرون ما يعتذر به عن نفسه وكلهم يعرفون قوة حجته ورجاحة عقله ورغم ما أساء به اليهم لاتزال منزلته رفيعة في اعينهم

أما سعيد فلما سمع سؤال الناصر عن سبب جسارته وكيف يفر بجاريته ولا يخشى بأسه نظر اليه وقال « أما سوء التدبير فلا أقبل التاطخ به فان تدبيري لو عرفه المولى لما وجد به خرقاً ولكن القضاء قضى بفساد ذلك التدبير لاقف هذا الموقف »

فقال الناصر « كأنك دبرت الوسيلة لقتلي ايضاً ولم تنجح . . فكيف خطر لك ان تفعل ذلك ونحن لم نقصر في اكرامك وما الذي كنت تتوقعه من اقتراف تلك الجريمة — انها لم تكن لتغنيك بالمال ولا لترفع منزلتك بل قد تكون سبباً في الحط من شأنك حتى عند نفسك يوم يثوب اليك رشدك وترى انك قتلت الابرياء واسأت الى من احسن اليك . . »

فاعتدل سعيد في موقفه ووجه خطابه الى الناصر باهتمام وجرأة وقال « يعلم أمير المؤمنين انه لم يأل الى شيئاً لاعلمه وقد اعترف لي بسداد الرأي والحكمة والتعقل ولكنه يسألني عما حملني على مخالفة الصواب وتعريض نفسي لذلك الخطر . . لم يحملني على ذلك يا امير المؤمنين طمع في مال فان الاموال كثيرة عندي ولا الحياة فاني لا ارى السعادة بها . . قد ارتكبت

كثيراً من الرذائل . . ارتكبت الخيانة والغدر والكذب وانا اعلم جيداً انها رذائل وان مثلي يجب أن ينزه نفسه عنها . لم أرتكبها طمعاً بالمال أو الجاه كما قلت ولكن . . . » ولما وصل الى هنا غص وتغيرت سحنته وتشاغل ببلع ريقه والجميع سكوت وقد أمسكوا نفسهم تشوقاً لسماع مايعتذر به سعيد عن نفسه فلما سكت جعلوا ينظرون بعضهم الى بعض

أما سعيد فرفع كمه مسح به دمعة انحدرت على خده واستدرك فقال « لا يظن أمير المؤمنين انى أبكي جزعاً من الموت اني لا ارى السعادة في الحياة كما اني لا اراها في الجاه ولا المال »

الفصل الثامن والسبعون

الجسارة

فاستغرب الخليفة تعبيره وتشوق لتتمة حديثه فقال « أنا أعلم أنك لا تخاف الموت لان أعمالك الماضية تدل على ذلك ولكني سألتك عن سبب إقدامك على الخيانة وأنت أعقل من أن تأتيها عن جهل — ونحو أمير المؤمنين أيضاً . ألم تخش بأسه ؟ »

فاجابه سعيد « ان الرذيلة التي لايجوز ارتكابها مع أمير المؤمنين لا يجوز ارتكابها مع سائر الناس . واستأذن الامام الناصر بكلمة أقولها وأنا في آخر يوم من أيام الدنيا — ان المنصب الذى يشغله أمير المؤمنين انما ساقه اليه التقادير وهو غير مخير ولو وجد فيه سواه لبلغ الى مثله . . . لاتغضب ياسيدي . لولم تولد من بيت الخلافة وينصرك الناس على قتل الناس لم تبلغ هذا المقام قط وصلت اليه على جسر من الجماجم فوق بحر من الدم — رأى فخر في ذلك ؟ فلما رقيتوا مقامك وبايعوك وحدك خليفة وبنيت القصور وأكثرت من الجوارى والخصيان وأمرت الناس أن يخدموك وقد ذلوا وهم يحسبون لك فضلا عليهم والفضل لهم في صيانة دولتك والدفاع عن حياتك — ثم أنت تنكرت على أحدهم جزءاً صغيراً مما تحوزه

لنفسك . . ولا ذنب لك في ذلك فانها القاعدة التي جرى عليها الناس من
قبل ولكنها ليست هي أسباب السعادة »

فامتعض الناصر من تلك الجسارة لكنه تجلد وصبر عليه حلماً وسعة
وقال « ربما كنت مصيباً لكنك لم تجبنا عما حملك على تعريض نفسك
فضلا عن ارتكاب الخيانة وغيرها من الرذائل وأنت الحكيم العاقل ؟ »

قال « لست أول حكيم عاقل ارتكب الرذائل في سبيل مطامعه »

قال « نعم ولكننا لم نفهم الغرض الذي حملك على ذلك »

قال « ان الغرض الذي حملني على هذه الرذائل من أشرف الاغراض
بل هو أشرفها جميعاً لان عليه يتوقف عمران هذا الوجود بل هو سنة من
سنن الله في خلقه وفضيلة من أكبر الفضائل ـ وأما سواي فانه يرتكب
الرذائل في سبيل اغراض تخالف سنة الوجود وقد نهى عنها الشرع
والعرف . كم من رجل ارتكب الغدر والفتك والقتل التماساً لمنصب الملك أو
الخلافة وهذا المنصب نفسه مشوب بأمثال هذه الرذائل لان طالب الملك
متى ناله حلل لنفسه كل محرم وساعده الناس على التمادي في الاثرة وصار
يحسب أموال الرعايا وأنفسهم حقاً له فيبني القصور ويزخرفها بالذهب والفضة
مما يجمعونه له من تعب الفقراء ويقتني الجواري على اختلاف أنواعهن ويتحكم
برقاب الناس وأموالهم كما يشاء ولا يرى لسواه حقاً بمشاركته في ذلك . بل
ويل لمن يجرأ على الاعتراض .. ولو لم أكن على باب الآخرة لم أقله . . »

فدهش الجميع لهذه الجسارة مع ما فيها من الحكمة البالغة ولم يجسر
أحد قبله على مثل هذا الحديث في حضرة خليفة شديد البأس ولكنهم
غضوا من أبصارهم تهيباً من [illegible]

أما الناصر فظل على اطراق [illegible]

[illegible]

عليك بالاستفهام إلا لاستفيد من حكمتك فقد كنت كما تعلم كثير الثقة بعلمك والاعجاب بتعقلك . . »

الفصل التاسع والسبعون

الحب

فتنهد سعيد تنهداً عميقاً وأجال نظره في الحاضرين حتى وقع على الزهراء وكانت شاخصة فيه وقد غطت رأسها بالنقاب واخذ منها الاعجاب به كل مأخذ فلما رأته ينظر اليها حولت نظرها عنه أما هو فلما وقع نظره عليها ابتسم ابتسامة شفت عن معان كثيرة وتنهد ثانيــة وقال وهو يوجه كلامه الى الناصر « ان السبب الذى حملني على ما ارتكبته انما هو أشرف الاسباب بل هو الوسيلة الوحيدة لجمع شتات الناس وتأليف قلوبهم وحفظ أنواعهم وهو الذي أمر به الشرع وأوصى به الله وقد امتدحه الحكماء وتغزل به الشعراء بل هو أكبر الفضائل ـــ ان ذلك السبب يا سيدى هو « الحب » هذا هو الذى حملني على ارتكاب ما ارتكبته . فهل في الحب عار وقد جاء ذكره في القرآن والحديث ؟ أليس هو سبب نظام الكون ؟ »

فلما قال ذلك أجفلت الزهراء وأطرقت حياء لعلمها انه يشير الى حبه إياها ولم يخف غرضه على الناصر فقال له « ولكن الله ينهى عن التعدي على نساء الآخرين »

قال « نعم يا سيدى ولكن الحق الطبيعي في الحب للمحب الأول [illegible] الأمر جار في أعمال الناس فالقوي يفوز بما يريد والضعيف يذهب حقه هدرا »

قال الناصر « وإذا كان المحب حكيما ألا تقضي عليه حكمته أن يخاف العقاب فيبتعد عن عرين الأسد ؟ »

قال « نعم اذا استطاع الى ذلك سبيلا ولكنه اذا غلب على أمره وتمكن الحب من قلبه حتى أعمى بصيرته وأصبح لا يرى ملجأ [illegible] الا [illegible] محبوبه ـ كما يعمي طالب الدنيا زخرفها وكما يعمي طالب السيادة فلا [illegible]

غير مطلبه وكما يعمى طالب الجاه فانه يقتل ويغدر ويخون في سبيل الحصول عليه والسيادة ظلم واستبداد تخالف الحرية الطبيعية التي منحها الخالق لبني الانسان . وأما الحب فانه شريعة طبيعية أمر الخالق بها وقال في كتابه (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فلا غرو إذا اعترض طلبه فتك أو قتل أو غدر وخصوصا اذا المحب سبق سواه إلى ذلك الحبيب . . »

فلما سمعت الزهراء قوله خافت أن يظن الخليفة بينها وبين سعيد تبادل المحبة قبل مجيئها اليه فاستأذنت بالكلام فأذن لها فقالت « ولكن شرط المحبة الصحيحة أن تكون متبادلة فاذا لم تكن كذلك بطلت فضيلتها وأصبح طلبها تعدياً . . »

فنظر سعيد اليها وهي تتكلم وقد ترنح لصوتها الرخيم فلما فرغت ظل ساكتاً ينظر اليها كأنه يتوقع أن تعود الى الكلام فلما علم انها فرغت قال « ان الحب فضيلة مهما اعترضه أو تقلبت عليه الاحوال لانه اساس العمران والمحبون هم الفضلاء ولولاهم لخلت الدنيا من الرحمة والاحسان . ولولا الحب ياحسناء لكانت الحياة كالصحراء القاحلة ماؤها أجاج وهواؤها سموم وانما يجعل ماءها عذباً وسمومها نسيما « الحب » آه من الحب ولما قال ذلك شرق بريقه ثم أجهش للبكاء والناصر ينظر اليه ويعجب وكان أول من شارك سعيداً بالبكاء عابدة فانها لم تستطع امساك نفسها لما غلب على قلبها من التذكارات الماضية وكيف كانت عالقة القلب بسعيد وهو يضحك منها ويستخدمها في سبيل سواها لكنها ما زالت تشعر بالعطف عليه فلما رأته يبكي بكت

أما الزهراء فأجابت سعيداً قائلة « ولكن إذا تأكد المحب أن حبيبه لا يحبه ولا [illegible] أن يحبه [illegible] سبيل للوصول اليه . أليس من الحكمة أن [illegible] ؟ »

فتنهد سعيد وقال [illegible] عقل يحل المشكلات [illegible] المجارب وعزم [illegible] وتغلب على كل أنواع المشاق [illegible] مشكلة [illegible] الحب [illegible] على

أمري وذهب بعزيمتي وقضى على عقلي وحكمتي . . »

فقالت « فماذا يفعل المحب اذن ولا حيلة له الى حبيبه ؟ »

فمد سعيد يده الى جيبه وقال « اذا تأكد يأسه من حبيبه فقد تأكد أنه مائت اذ لا حياة للمحبين بغير الحب واذا عاشوا فعيشهم الشقاء فما عليهم الا الرحيل من هذه الدنيا » قال ذلك واستخرج ورقة ملفوفة ووجه كلامه الى الزهراء وقال « اني أموت فداء الحب » والتفت الى عابدة وقال « سامحيني يا عابدة فقد ظلمتك كثيراً » ونظر الى الناصر فقال « ليس لك عندي غير هذه الروح عقاباً على جرائمي . خذها » والتقم ما في تلك الورقة

الفصل الثمانون

عابدة وسالم

فعلم الناصر أنه تناول السم فصاح فيه « ويلك أتقتل نفسك ؟ مهل . اني أحب استبقاءك وأضن بحكيم مثلك أن يموت . . قد كنت أحب ان أستبقيك ماذا فعلت ؟ »

فقال « تستبقيني لاخدمك وأموت حسرة . . وقد يئست من حبيبتي؟ لاحياة لي الا بالزهراء » قال « أهديك مئات من الجواري اجمل منها . »

قال « الحب يا عبد الرحمن لا يستبدل ولولا ذلك لكانت هذه (وأشار الي عابدة) اولى الجميع بالبدل ولكن قلبي لا يرضى احداً غير هذه (وأشار الى الزهراء) فاني احس كأنها شطر من قلبي ولا يعيش الانسان بنصف قلبه . . فاهنأ بها انها جوهرة جمعت بين الصدق والاخلاص وهي لك وحدك فقط . . » فقال الناصر « كيف تقتل نفسك بيدك ؟

فقال « خيراً من ان يقتلني الجلاد »

فصاحت عابدة « اذا كان هذا دواء المحب اذا يئس من حبيبه فأجدرني ان أقتل نفسي . . » وأخذت تبكي فادركت الزهراء [illegible] فاقتربت منها وأشارت اليها ان تسكت.

اما سعيد فلم تمض لحظات حتى بدأ الالم في بطنه واسترخى فأشار الناصر أن يحمل من ذلك المكان وقد شق عليه امره لانه كان يحبه ويحترمه ولو بقي حيا لاستخدمه في بعض اموره

فحملوه وقد كاد يغمى عليه وبعد قليل مات فدفنوه

اما الناصر فبعد خروج سعيد تراجع واعتبر وزادت الزهراء رفعة عنده وازداد حبا لها والتفت اليها وابتسم فرآها تطرق في الارض كأنها تفكر فقال « كل ذلك جرى لاجلك ؟ . . »

قالت « انى حقيرة لا استحق هذه العناية ولكن الرجل قصير العمر رحمه الله »

قال « نعم انه دلنا على فضلك وصدق مودتك . . فأنت اليوم أرفع منزلة عندنا من قبل . فاطلبي ما تشائين »

قالت « ان نعم مولاي متوالية على جاريته وقد تم حظي بعفوه عن اخي هذا وانما اشارك هذه المسكينة بحالها لانها قاست العذاب في اثناء مساعي ذلك الرجل الغريب وكانت تحبه وهو لا يحبها وهي تخدمه وهو يخادعها فأحب ان تنال تعزية تنسيها ذلك »

والتفت الناصر الى سالم وقال « يا سالم . هل انت متزوج »

قال « كلا يا سيدى »

قال « أتتزوج عابدة انها أديبة عاقلة »

فأشرق وجهه وحنى رأسه وقال « ذلك حظ كبير لي وكيف لا اختار نصيبا اختاره لي امير المؤمنين ؟ »

فأمر الناصر ان تزف عابدة الى سالم وان يخصص لهما قصر يعيشان فيه برغد وهنا

فقالت الزهراء « [illegible] ساهر كن في خدمة مولاي [illegible] المناصب الكبيرة »

قال [illegible] الحسن [illegible]

تمت الرواية